





بمكة المكرمة

# قصيدة الأديب في العالم

كتاب في الأدب العربي  
من تأليف الأديب  
في الأدب العربي  
في الأدب العربي

تأليف

أحمد بن محمد بن عبد الله

قسم الثاني

الجزء الثاني

في الأدب العربي في القرنين  
الأول والثاني من مائة سنة إلى مائة سنة

كتاب في الأدب العربي  
من تأليف الأديب





# قصة الأدب في العالم

كتاب في ثلاثة أجزاء يعرض الأدب في عصوره المختلفة  
قديمه ووسيطه وحديثه — في الشرق والغرب  
مع نماذج من كل أدب

تصنيف

أحمد أمين و زكي نجيب محمود

القسم الثاني

من

## الجزء الثاني

في الأدب الغربي في القرن الثامن عشر  
والأدب الشرقي من سقوط بغداد إلى مبدأ القرن التاسع عشر

كتب فصل الأدب الفارسي

الدكتور عبد الوهاب عزام

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٦٤ — ١٩٤٥ م



## مقدمة

وهذا هو القسم الثاني من الجزء الثاني ، عرضنا فيه للأدب الفرنسى والإنجليزى والألمانى فى القرن الثامن عشر .

وألقينا نظرة خاطفة على الأدب العربى من سقوط بغداد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم نتوسع فيه توسعنا فى غيره لأنه موضوع قريب المنال لقراء العربية ، ألقت فيه الكتب الكثيرة مجملة ومفصلة ، وآثرنا أن نتوسع فى الأدب الأجنبى المجهول عند أكثر قراء العربية .

وقد تكفل صديقنا الدكتور عبد الوهاب عنزام بكتابة الفصل الخاص بالأدب الفارسى من غزوة التتار إلى آخر الدولة الصفوية ، أى إلى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى . وبقى من فصول قصة الأدب فى العالم الفصل الذى يمثل الأدب من ابتداء القرن التاسع عشر إلى اليوم ، وهذا هو موضوع الجزء الثالث من هذا الكتاب .

والله المستول أن ينفع به ويعين على إتمامه ما

أحمد أمين

١٠ ذو القعدة سنة ١٣٦٤

١٦ اكتوبر سنة ١٩٤٥





## فهرس القسم الثانى من الجزء الثانى

الصفحة

الموضوع

الفصل الحادى عشر ... ..

الأدب الفرنسى فى القرنه الثامن عشر ... .. ٣٣٧

✓ ( ١ ) الذئ - مونتيكيو ٣٤٠ - فولتير الناثر ٣٤٢ - ديدرو ٣٥٣ -

جان چاك روسو ٣٥٦ ... ..

( ب ) الشعر ٣٦١ - فولتير الشاعر ٣٦١ - جان باپتست روسو ٣٦٢ -

جرسيه وفلوريان ٣٦٤ - أندريه شيفيه ٣٦٤ ... ..

( ح ) الأدب المسرحى ٣٦٧ - ( ١ ) المأساة ٣٦٧ - كريون ٣٦٧ -

فولتير فى المأساة ٣٦٨ - ( ٢ ) الملهاة ٣٦٩ - ماريثو ٣٦٩ -

بومارشيه ٣٧٠ ... ..

( د ) القصة ٣٧١ - لى ساچ ٣٧٢ - ماريثو القصاص ٣٧٣ - بريثو ٣٧٣

الفصل الثانى عشر ... ..

الأدب الانجليزى فى القرنه الثامن عشر ... .. ٣٧٥

( ١ ) النثر - سوفت ٣٧٥ - آدمسن وستيل ٣٨٢ - دفو ٣٨٧ -

ريتشاردسن ٣٨٨ - هنرى فيلدينج ٣٩١ - سمولت ٣٩٤ - لورنس

ستيرن ٣٩٦ - جولدسمت ٣٩٩ - جونسن ٤٠١ - ادوردجين ٤٠٧

ادمنفد بيرك ٤١٠ ... ..

( ب ) الشعر ٤١٣ - الكسندر پوپ ٤١٤ - جيمس تومسن ٤٢١ -

تومس جراى ٤٢٣ - وليم كوبر ٤٢٥ - جولدسمت الشاعر ٤٢٨ -

روبرت بيرنز ٤٣٠ ... ..

( ح ) المسرح ٤٣٥ - الملهاة ٤٣٦ - كبرلانذ ٤٣٦ - جولدسمت الروائى ٤٣٦

|     |                                                                                  |     |
|-----|----------------------------------------------------------------------------------|-----|
| ... | الفصل الثالث عشر                                                                 | ... |
| ٤٣٩ | الأدب الأتالي في القرن الثامن عشر                                                | ... |
| ... | جيتة ٤٤٠ — لسنج ٤٤٧ — شلر ٤٥٣                                                    | ... |
| ... | الفصل الرابع عشر                                                                 | ... |
| ٤٥٦ | الأدب العربي من سقوط بغداد الى نهاية القرن الثامن عشر                            | ... |
| ... | سقوط بغداد على يد التتار وأثره في العلم والأدب ٤٥٦                               | ... |
| ٤٦٥ | (١) الشعر، موضوعاته وأساليبه وخصائصه ٤٦١ — صفى الدين الحلى                       | ... |
| ٤٧٠ | ابن نباتة ٤٦٧ — الشاب الظريف ٤٦٩ — سراج الدين الوراق                             | ... |
| ٤٧١ | ابن الوردى ٤٧٠ — ابن حجة ٤٧١ — عبد الغنى النابلسى                                | ... |
| ٤٧٤ | عائشة الباعونية ٤٧١ — عبد الله الشبراوى ٤٧١ — الشعر الشعبى                       | ... |
| ... | (ب) النثر ٤٧٥ — ديوان الإنشاء ٤٧٥ — الإخوانيات ٤٧٧ — أشهر                        | ... |
| ... | <u>الكتاب: القلقشندي ٤٧٨</u> — بدر الدين الخايجى ٤٧٩ — <u>لسان الدين</u>         | ... |
| ... | <u>ابن الخطيب ٤٨١</u> — شهاب الدين الخفاجى ٤٨٣ — مؤلفو المختارات ٤٨٦             | ... |
| ... | (ج) القصة ٤٨٦ — المقامات ٤٨٦ — ألف ليلة وليلة ٤٨٧ — قصة                          | ... |
| ... | عنقرة ٤٨٨ — قصة بنى هلال ٤٨٨                                                     | ... |
| ... | (د) التصوف والفلسفة ٤٨٩ — عبد الوهاب الشعرانى ٤٩٠ — بهاء الدين                   | ... |
| ... | العالمى ٤٩٠ — صدر الدين الشيرازى ٤٩١                                             | ... |
| ... | (هـ) التأليف والمؤلفون ٤٩١ — <u>النويرى ٤٩٢</u> — <u>ابن فضل الله العمري ٤٩٢</u> | ... |
| ... | القلقشندي ٤٩٣ — <u>المؤرخون ٤٩٣</u> — <u>ابن خلدكان ٤٩٣</u> —                    | ... |
| ... | ابن طباطبا ٤٩٤ — أبو الفداء ٤٩٤ — الذهبي ٤٩٤ — لسان الدين                        | ... |
| ... | ابن الخطيب ٤٩٥ — ابن الفرات ٤٩٥ — <u>ابن خلدون ٤٩٥</u> —                         | ... |
| ... | <u>المقرئى ٤٩٧</u> — ابن عربشاه ٤٩٨ — ابن تغرى بردى ٤٩٩ —                        | ... |
| ... | <u>المقرئى ٤٩٩</u> — <u>ابن بطوطة ٤٩٩</u>                                        | ... |

|                                                                        |     |
|------------------------------------------------------------------------|-----|
| معاجم اللغة ٥٠                                                         | ... |
| الموسوعيون : جلال الدين السيوطي ٥٠٠ — حاجي خليفة ٥٠١                   | ... |
| نظرة عامة في الأدب العربي ٥٠٢                                          | ... |
| الفصل الخامس عشر                                                       | ... |
| الأدب الفارسي من غارات التتار الى انقضاء الدولة الصفوية = القره السابع | ... |
| الراهبى الى منتصف القره الثانى عشر                                     | ٥٠٥ |
| ( ١ ) عصر التتار ٥٠٧ -- حافظ الشيرازى ٥٠٨ — رشيد الدين وكتابه          | ... |
| جامع التاريخ ٥١٤                                                       | ... |
| ( ب ) عصر التيموريين ٥٢٠ — تيمورلنك وأولاده ٥٢٠ — العلماء              | ... |
| والسكتاب والشعراء ٥٢٤ — عبد الرحمن الجامى ٥٢٥                          | ... |
| ( ح ) عصر الدولة الصفوية ٥٣٨ — صفى الدين الأردبيلي ٥٣٨ — المذهب        | ... |
| الشيعى ٥٣٩ — الأدب فى عهد الصفويين ٥٤١ — مرآتى أهل البيت ٥٤٣           | ... |
| التصوف ٥٤٧ — هاتف الإصفهاني ٥٤٨ — صائب الإصفهاني ٥٥٣                   | ... |
| بهاء الدين العاملى ٥٥٥                                                 | ... |



النظام السيامى فى القرن السابع عشر وحدة فى الأدب بأن ساد المذهب الاتباعى كما رأينا ، فقد أنتج اضطراب القرن الثامن عشر تفككا لتلك الوحدة وانحلالا لذلك المذهب ؛ وقد بدأ التدهور السيامى منذ أواخر عهد لويس الرابع عشر ، ثم تولى البلاد بعده وصى كان داعية للفساد الخلقى بفساده ، ثم جاء لويس الخامس عشر . فكان فاجرا عرييدا فى غير حياء ولا خجل ، وبذلك وصم الملكية بوصمة العار ، وأعقبه حفيده الضعيف المسكين المنكود ؛ وهكذا ساءت الحكومة فى البلاد وأصابها الوهن أعواما طويلا ؛ فإذا ينشأ عن هذا فى أنفس الناس غير التذمر والتبرم ؟ ثم إلى أى شىء ينتهى الشعب الساخط المتذمر إن لم ينته إلى ثورة كبرى تكتسح أمامها كل شىء ؟

وتريد الأيام أن تتآمر العوامل وتتحد لتنتهى إلى نتيجة بعينها ، فلئن كان الحكم السىء قد أدى إلى قلق فى النفوس ، فقد زادت من ذلك القلق النفسى روح التشكك التى نشأت عن ازدهار العلوم ورقبها ؛ كما زاد منه موقف الكنيسة التى كانت فيما سبق حصنا قويا يعمل على الحكم المطلق فى شئون الدين كما كانت الملكية تعمل عليه فى أمور الدولة . لكن شاء التعصب الأعمى لرجال الكنيسة أن يقفوا فى وجه الرقى والتقدم مع ما أصابهم من تحلل خلقى بغيض ، فكان أن نفر الناس منهم ونظروا إليهم بعين الشك والريبة ؛ ومن هنا رأيت التشكك فى أواخر القرن الثامن عشر سمة بارزة فى رجال الفكر إذ ذاك ، فجاء هذا التشكك العقلى فى سلامة الأوضاع العتيقة عاملا آخر أدى إلى الثورة عليها وتحطيمها ، فلم يعد لشىء قداسة فى أعين الناس ، وأخذوا يسألون عن كل شىء ويتحدّون كل سلطة ، ورفضوا أن يكون للعهد الماضى سلطان على حياتهم الحاضرة .

قلنا إن انحلال السلطة السياسية فى فرنسا بدأت بوادره فى أواخر عهد لويس الرابع عشر نفسه ، ولم يعد للقصر تلك الكلمة العليا التى كان يفرضها على الثقافة فى البلاد ، وانتقل الحكم فى ذلك من فرساي إلى الشعب فى باريس ؛ فمن علامت هذا التحول عودة « الصالونات » الأدبية إلى الظهور بعد أن طمسها قصر فرساي حينما من الدهر ؟ لكن تلك « الصالونات » لم تعد — على نحو ما كانت فى العهد السابق — تنصرف بمجدها إلى تحديد الأوضاع الملأمة فى دنيا الحب والغزل والبذع ، بل أصبحت مراکز فلسفية يؤمها قادة الفكر ليكون أهم ما يتحدّثون فيه شئون العلم والسياسة والاجتماع ؛ ونشأ إلى جانب



«الصالونات» رأى عام ما لبث أن أصبح أقوى عوامل التوجيه في مجرى الحياة الفرنسية ، وبات تطور الأدب في فرنسا في القرن الثامن عشر سهوياً بالحالة الاجتماعية للطبقة الوسطى ، لما أصابته التجارة والصناعة من رقي بعيد ؛ ذلك لأن هذا التحول الاقتصادي كان من شأنه أن تثرى طبقات الشعب العاملة ، وأن تزداد قوتها في السياسة ازدياداً مطرداً ، وأن تكون الجمهور القارئ الذي يتجه إليه الأدباء حين يكتبون .

وأضيف إلى هذه العوامل السياسية والاجتماعية عاملٌ جديد كان له في الأدب الخالص أكبر الأثر ، ونعني به تياراً أدبياً أخذ يتدفق من إنجلترا إلى فرنسا فيفعل فعله في أدبائها ؛ وهذه حقيقة تستوقف النظر ، لأن أنصار الاتباع في فرنسا إبان القرن السابع عشر أغمضوا عيونهم عن الأدب الإنجليزي ، بل جهلوه جهلاً كاد أن يكون تاماً ؛ فشيخ النقد الأدبي في فرنسا في ذلك العهد — بوالو — مثلاً — لم يكن يدرى شيئاً عن «الفردوس المفقود» لملتن ، فكتب عن فن الملحمة ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن أعظم ملاحم العصر الحديث ، وعنى بأدب السخرية والهجاء ؛ ولكنه لم يعلم شيئاً عن شيخ الهجاء في الأدب الإنجليزي «جون دريدن» ! أما في القرن الثامن عشر فقد انعكس الوضع وأخذ الفكر الإنجليزي والأدب الإنجليزي يشقان طريقهما إلى فرنسا . فكان من أثرهما أن تحطمت قواعد الاتباع في الأدب ، وأن ذاعت في رجال الفكر من الفرنسيين مبادئ الحرية والتسامح الديني ، وحقوق الأفراد ، واحترام الصناعة والتجارة .

وظاهرة أخرى في الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر جديرة بالذكر ، وهي أنه اتخذ وسيلة لتحقيق أغراض عملية ، فلم يعد الأدب أدباً خالصاً مقصوداً لذاته ، بل أصبح أداة لنقل الأفكار إلى جمهور القراء ، أو بعبارة أخرى أصبح أدب القرن الثامن عشر في فرنسا «أدباً تطبيقياً» لا «أدباً بحتاً» — إن صح لنا أن نستخدم ما يقال في الرياضة والعلوم عند قسمتها إلى ما هو «بَحْثٌ» وما هو «تطبيقي» — فالقطعة الأدبية باتت تقوم بمحصولها الفكري لا بجمالها الفني ؛ وانظر في آيات ذلك العصر ، تجدوها لا تدل على الخيال المبتكر المبتدع ، بل هي عبارة عن رسائل سياسية ، مثل «روح القوانين» لمونتسكيو ، و«العقد الاجتماعي» لروسو ، أو رسائل في التربية مثل «إميل» لروسو ، أو أبحاث في العلوم والتاريخ وما إلى ذلك . بل إن الشعر والمسرحية اتخذت كذلك وسائل

لغايات ، فأصبح الأدب كله أدوات للدعاية السياسية على أيدي « الفلاسفة » — كما كان يُسمَّى رجال الفكر في الحركة الثقافية الجديدة — يحاربون بها النظم القائمة في الكنيسة والدولة معاً ، وينشرون بها آراءهم الجديدة في الدين والسياسة ؛ فلا غرابة إن قلنا — بعد ذلك كله — إن أدب القرن الثامن عشر هو الذي مهدَّ للشورى الفرنسية .

( ١ ) النشر :

( 1755-1689 )  
مونتسكيو Montesquieu ( ١٦٨٩ — ١٧٥٥ ) :

ولد قريباً من بوردو ، من أسرة اشتهر أبنائها في القضاء والقانون ، ولهذا اشتغل بالقانون جرياً على سُنَّةِ أهله ، وأصبح مستشاراً في محكمة بوردو وهو في عامه الخامس والعشرين ، ثم أعقب عمه في رئاسته بعد ذلك بعامين ؛ ولكنه كان قد درس « نيوتن » وانهمك في المطالعة العلمية ، وانتخب عضواً في الجمع الفرنسي ؛ ولم يكدهم انتخابه هذا حتى أنفق ثلاثة أعوام يرتحل في أنحاء أوروبا باحثاً في الأحوال الاجتماعية والنظم السياسية لكل دولة حلَّ في أرضها ؛ وقضى نصف هذه المدة في إنجلترا وحدها ، حيث انصرف بكل مجهوده إلى دراسة « لوك » ودرس مبادئ الدستور الإنجليزي ، ثم عاد إلى بلاده ينشئ ويكتب .

كان مونتسكيو في كتابته مصلحاً ينشد الحرية لقومه ، لكنه لم يكن في إصلاحه المنشود حالمًا كما كان « روسو » ؛ بل لم يكن نائراً يريد هدم النظام القائم وكفى ، إنما كان أرسقراطياً محافظاً لا تدفعه النزعة إلى الإصلاح إلى أن ينكر على طبقة حقوقها وامتيازاتها ؛ وكان مما كتبه مونتسكيو كتابه في التاريخ « تأملات في أسباب مجده الرومان وانحلالهم »<sup>(١)</sup> . ولا شك أنه قد طالع قبل أن يكتب مؤلفه كتاب « جِبْن »<sup>(٢)</sup> — المؤرخ الإنجليزي المشهور — المعروف عن « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ؛

( ١ ) Considérations sur les Causes de la Grandeur des Romains et de leur  
Décadence .

( ٢ ) Gibbon The Decline and Fall of The Roman : Empire



وكان « جِبْن » متأثراً بالثقافة الفرنسية ، كما تأثر مونتسكيو بالثقافة الإنجليزية ؛ لكن مونتسكيو في كتابته للتاريخ قد زلّ في خطأ فاحش ، وذلك أنه لم يترث عند تعميمه الأحكام . بل تراه يقفز من أمثلة جزئية قليلة إلى القانون العام في غير روية العالم الحذر ؛ فأنت تطالعها وتأخذ عليه هذا المأخذ ، لكنك — مع هذا — يستحيل أن تفرّ من فتنة حديثه ؛ فهو يمتاز بما يحدثه في نفس قارئه من لذة ومتاع ، وأسلوبه متدفّع متجدّد يعرج به هنا وهناك فيبسط لك شتى الآراء والأفكار .

وله كذلك كتاب « روح القوانين »<sup>(١)</sup> الذي وضع به أساس البحث المقارن في الحكومات والتشريع ؛ وفيه يبحث الأخلاق والعادات في الأمم القديمة والحديثة على السواء . على أن أهم ما يعنينا من إنتاجه الأدبي كتابه « خطابات فارسية »<sup>(٢)</sup> الذي يسخر فيه من أباطيل الكنييسة والدولة والمجتمع والأدب السائد ؛ وفكرة هذا الكتاب أنه يتخيل رجلين من بلاد الفرس لهما قسطٌ موفور من الثقافة والمال ، هما : « ريكا » و « أزبك »<sup>(٣)</sup> ، أخذ هذان السيدان الفارسيان يضربان في أرجاء أوربا ، حتى انتهى بهما المطاف إلى باريس وشاهدوا الحياة فيها . فاستوقفت أنظارهما بغرابتها . وطفقا يتبادلان الرأي فيما يشاهدان ، ثم يسجلان ما يلاحظان لينقلاه إلى أصدقائهما في فارس ؛ وكانت تأتي الرسائل في ذلك الحين إلى « أزبك » تنبئه أن مؤامرة تجري في « حريمه » ، وإنما أدخل الكاتب هذا العنصر في « خطاباته » ليشبع في قرائه رغبة شديدة في مطالعة مثل هذه الأنباء عن النساء ، حتى يكفل لنفسه متابعتهم لقراءة « خطاباته » بما فيها من نقد للحياة الفرنسية نفسها ، وليس الناقد هنا رجلاً تعود ما ألف من أوضاع سياسية واجتماعية فأفقدته العادة رهافة حسه ، بل النقد صادر عن سيدين مثقفين غربيين عن البلاد ، لا يعميها الغرض والهوى ؛ وبهذا استطاع مونتسكيو أن يلقي ضوءاً ساطعاً على مفاصل عهد الوصاية الذي أعقب عصر لويس الرابع عشر ، فبيّن مفاصل السياسة وانحلال المجتمع والنفاق في الدين .

. Lettres Persanes (٢)

. Esprit des Lois (١)

. Rica , usbek (٣)



فولتير Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٨) :

لقد قيل إنه لو كان القرن السابع عشر عصر لويس الرابع عشر ، فإن القرن الثامن عشر هو عصر فولتير ، وهذا حق لا ريب فيه ، فلن تجد رجلاً يصور ذلك العهد خيراً من فولتير ؛ ففي القرن الثامن عشر نشأت الطبقة الوسطى وزاد ثراؤها ، وكان فولتير « بورجوازيًا » ثرياً ، وفي القرن الثامن عشر ازدهرت العلوم الطبيعية التي تسلك أسلوب البحث الجديد ، وكان فولتير من هواة العلم يلتمسه أينما وجد إليه السبيل ؛ وفي القرن الثامن عشر استهدف بناء المجتمع بكل ما فيه من نظم دينية وملكية وأرستقراطية للتغيير والتحوير ، وكان فولتير في هذا الإصلاح رائداً وإماماً ، فكأنما كان فولتير لعصره بوقاً يعبر عما يضطرب فيه من مذاهب وآراء ؛ فبات على وجه الدهر وثيقة نطالع فيها نوازع ذاك الزمان .

في عام ١٦٩٤ ولد لأسرة في باريس طفل نحيل ضئيل ، أسماه أبواه ، إذ عمَّاه « فرانسوا ماري أرويه »<sup>(١)</sup> ، ولكنه أطلق على نفسه فيما بعد اسم فولتير ؛ وقد كان له من هزال جسمه ما أكسبه مزاجاً حاداً عنيفاً ؛ وعله لا تنقطع أسبابها ، حتى نيف عمره على الثمانين وهو يشكو شكاية متصلة من ضعفه الذي يشرف به على الهلاك ؛ ولكن هذه العلة الملائمة لم تحل بينه وبين العمل الذي لا ينقطع ، والعراك الذي لا يهدأ ، والكتابة المتصلة ، والسخرية بعباد الله .

أراد له أبوه أن يكون محامياً . ولكن فولتير الشاب طمع في المناصب السياسية ، فاتصل ببعض العلّية ، ووفق إلى السفر إلى هولندا تابعاً للسفير الفرنسي ؛ ولكنه ما لبث أن أثار السخط بسلكه ؛ من ذلك محاولته الفرار بفتاة أحبها ، فأعيد إلى فرنسا حيث الحكومة ضعيفة مستبدة ؛ فحمل فولتير القلم وملاً الدنيا بالرسائل والأناشيد ، مع أنه يعيش في زمن تكفي فيه الإشارة من نبيل ليزج في السجن بمن يشاء ؛ فما هي إلا أن أُلقي فولتير نفسه محكوماً عليه بسنة يقضيها بين جدران الباستيل ؛ فكان ذلك درساً قاسياً حفزه إلى

التفكير الجاد العميق في أخطاء الحكومة المستبدة ؛ مع أنه عومل في سجنه برفق ولين ، وتركت له الحرية يعمل ما يشاء ، فانصرف إلى كتابة القصائد والمآسي فأنجز كثيراً من ملحمة أخرجها فيما بعد وهي ملحمة « هنرياد »<sup>(١)</sup> ، حتى إذا ما خرج إلى الحياة الطليقة مثَّلت له رواية « أوديب »<sup>(٢)</sup> ، فلقيت نجاحاً عظيماً ، وشاع اسمه بين الناس .

والشهرة في سن الثلاثين متعة ، استمتع بها فولتير ، وعاش بفضلها بين العظماء ، حتى لسكانه يعيش في حلم أذهله عن الدنيا الواقعة من حوله ؛ ولكن حادثاً وقع إذا ذاك أيقظه من ذلك الحلم البديع ، وألقى به في مسالك وعرة شائكة ، وذلك أن نبيلاً استشاط منه غضباً ، فأوحى إلى خدمه أن يوسعوه ضرباً وتعذيباً ، ففرغ فولتير إلى العدالة أن تقتص له من الأثيم المعتدى ، ولكن هيهات ! أيشكو نبيلاً جليلاً فرد من الشعب ؟ وسارعت أسرة النبيل فقذفت بهذا الذي اجترأ عليها بالشكائية في ظلمات الباستيل ، فلما قضى عهد السجن وأطلق سراحه ، أقسم ليؤججها حرباً شعواء على المجتمع الذي احتمل مثل هذا الظلم الشنيع .

ههنا ولد فولتير مولداً جديداً ؛ فقد سافر إذ ذاك إلى إنجلترا ، ولم يكد يستقر به المقام هنالك حتى صادفه ما ازداد به فكره ثورة وانقلاباً . فقد شاهد أن أبناء الطبقة الوسطى من الإنجليز لهم أن يطمحوا إلى أرفع المناصب ، ورأى بعيني رأسه في تلك البلاد كيف يمكن للحرية والنظام أن يستقيا جنباً إلى جنب ، وأن الإيمان الديني السليم والفلسفة الحرة الطليقة يمكن أن يقوما في غير تشاحن ولا عداوة ؛ شهد المذاهب الدينية الكثيرة تختلف وتصطرع ، فتعلم الشك ، وطالع « چون لوك » فتعلم الفلسفة وقرأ « سوفت » فاتخذ طريقته الساخرة نموذجاً يحتذيه ، ودرس « نيوتن » فعرف مذهباً علمياً جديداً ؛ وقابل في إنجلترا فريقاً من أعلام أدبائها : « بوب » و « سوفت » و « تومسن » ، وتعلم الإنجليزية قراءة وكتابة وحديثاً ، فأتقن مطالعة جزء كبير من الأدب الإنجليزي ، إذ قرأ « شيكسبير » و « ملتن » و « دريدن » . حقاً لقد علمته مرارة السجن في الباستيل أن يتمنى للناس مجتمعاً جديداً ، ثم بينت له زيارته لإنجلترا كيف يمكن لهذا المجتمع الجديد أن يكون .



عاد إلى فرنسا ، وسرعان ما أعاد لنفسه الشهرة والثراء ، فقد جاء هذه المرة إلى أرض الوطن ، وقد تغير وجه الدنيا في رأيه ، فأخذ يكتب بقلم من نار كتابه « رسائل فلسفية » أو « رسائل عن الإنجليز »<sup>(١)</sup> ، وقد أراد حين يبسط لقومه النظم الإنجليزية أن يحفزهم إلى إعادة النظر في أفكارهم السياسية والدينية ، وبهذا وضع الأساس لمذهبه الجديد ، على نحو غير مباشر ، وهذا المذهب الجديد يتلخص في كلمة واحدة : « الحرية » ، فضلا عن أنه أبان في هذا الكتاب أهمية التجارة وقيمة العلم ؛ فكان هذا الكتاب وحده كفيلا أن يضعه موضع الزعامة في الطبقة الوسطى فيما نشب بينها وبين الطبقة العليا من عراك ؛ وأدركت الشرطة ذلك فصادرت الكتاب وأحرقته في ساحة العدل بقرار من المحكمة ؛ وكان لا بد لكتابيه — إن أراد لنفسه النجاة — أن يلوذ بالفرار ، فاحتفى بصديقه المعجبة به « المركيزة دي شاتليه »<sup>(٢)</sup> ؛ وأقام في كنفها ستة عشر عاما ؛ درست معه خلالها علوم الفلك والميكانيكا والكيمياء ؛ كما درست عليه التاريخ بصفة خاصة ؛ ومن أجلها كتب قوائيم في التاريخ كتاب « حياة شارل الثاني عشر »<sup>(٣)</sup> وغيره من كتب التاريخ ؛ وقد أرادت « مدام دي شاتليه » — كـبعض النساء اللاتي أحبن عظماء الرجال — أن يعترف العالم ببطلها ، فحاولت أن توفق بينه وبين البلاط وأصاب التوفيق فيما حاولت ، كما وفقت في ضمه إلى الجمع الفرنسي ، ثم أراد الله لثولتير أن يحرم هذا الوكر الهادي ؛ إذ هامت « مدام دي شاتليه » حبا بشاب جميل أذكى فيها العاطفة ، وما هي إلا أن جاءت المنية وهي تضع ثمرة ذلك الحب ، فحزن ثولتير على فقدانها حزنا شديدا عميقا .

عندئذ أوى ثولتير إلى فردريك الثاني ملك بروسيا ، وقد كان بينهما تبادل الرسائل الودية ، وكان ثولتير يتمنى للانسان « حكيما حاكما » ، أو مستبداً مستنيراً ، وظن أن هذه الأمنية الجميلة تتمثل في فردريك ، ولكنه لم يلبث مع ذلك المستبد المستنير في مفر حكمة طويلا ، حتى تبين له أن الملوك الفلاسفة يصطنعون من وسائل الحكم ما يصطنعه الملوك الطغاة في فرنسا ؛ فأين المفر ؟ إلى سويسرا . فعله واجد في تلك الجمهورية من الدعة والأمن

(١) « Lettres les Anglais » أو « Lettres Philosophiques » .

(٢) Histoire de Charles XII (٣) .

(٣) Mme du Châtelet .



مالم يجده في أحضان الملوك ؛ ولكنه سرعان ما صادف لوناً جديداً من ألوان العسف البغيض ، وهو ما يضطرم في نفوس الناس من تعصب ممقوت ؛ فلم يطعن رجال الدين في سويسرا إلى مقامه بينهم ، وأخذوا يتجرشون به ويشيرون الناس عليه ؛ وإذن فلن يجد الرجل حياة آمنة في سويسرا أو فرنسا ؛ فاتخذ لنفسه منزلاً على جانبي الحدود الفرنسية السويسرية ، ليفر إلى هنا إذا عصفت به العاصفة هناك ، ثم يقفز راجعاً إلى هنالك إذا دارت به الدوائر ههنا .

على هذا النحو أقام أمداً طويلاً أتاح الفرصة لاسمه أن يسير بين الناس شهرة وذبوعاً ؛ فمن عريته ذلك الذي كمن فيه واختفى من وجه الشرطة ، أخذ ينثر رسائله ومقالاته نثراً متلاحقاً ؛ فلا تسكاد تظهر حتى تشيع في أرجاء أوروبا ؛ وهو في هذه الرسائل يجتذ حيناً ويسخر حيناً ؛ وكثيراً ما أخذ على نفسه أن يدفع عن برىء تهمة باطلة ، فاقتن اسمه بين الناس بالشجاعة الأدبية والإنسانية الرحيمة ؛ فسمع عنه من الناس ألوف لم يطالعوا ما كتب ، حتى بات فولتير في أفواه الشعب أسطورة تروى .

وكان بين ما أنتجه فولتير في حياته الأدبية الخصبية في صحيفة «مدام دي شاتليه» «الدنيا كما تسير»<sup>(١)</sup> و «صادق»<sup>(٢)</sup> و «ميكروميجا»<sup>(٣)</sup> ، فلما ذهب إلى بروسيا وأقام مع فريدريك كتب «قرن لويس الرابع عشر»<sup>(٤)</sup> ، وانتقل من بروسيا إلى سويسرا حيث أقام قريباً من جنيف ، فكتب قصائده المشهورة «كارثة لشبونة»<sup>(٥)</sup> و «التانون الطبيعي»<sup>(٦)</sup> ؛ كما أخرج «مقالة في السلوك»<sup>(٧)</sup> ، وأخيراً وهو في مستقره عند الحدود الفرنسية السويسرية ، أخرج عدداً من المآسي منها «تاتكريد»<sup>(٨)</sup> ، وقصصاً قصيرة منها «كانديد»<sup>(٩)</sup> ، ونقداً أدبياً من بينه «تعليق على كورني»<sup>(١٠)</sup> ، وتاريخاً مثل كتابه «تاريخ روسيا في عهد بطرس الأكبر»<sup>(١١)</sup> ؛ وكتابه «تاريخ محكمة باريس»<sup>(١٢)</sup> ؛

. Le Monde Comme il va ( ١ ) . Zadig ( ٢ ) .

. Siècle de Louis XIV ( ٤ ) . micromégas ( ٣ ) .

. La Loi naturelle ( ٦ ) . Le Désastre de Lisbonne ( ٥ ) .

. Tancrède ( ٨ ) . Essai sur les Mœurs ( ٧ ) .

. Commentaire sur Corneille ( ١٠ ) . Candide ( ٩ ) .

. Histoire de la Russie sous Pierre le Grand ( ١١ ) .

. Histoire du Parlement de Paris ( ١٢ ) .

وفلسفة منها « رسالة في التسامح » <sup>(١)</sup> ، و « قاموس فلسفي » <sup>(٢)</sup> .

إن مؤلفات فولتير تؤلف مكتبة كاملة ، فهي تبلغ عددا يربى على مائتين وستين مؤلفا — منها الطويل ومنها القصير — فيها ملحة ، وفيها قصائد تهذيبية ، وفيها ضروب مختلفة من الشعر ، وفيها ما من وملاء وتاريخ وسير ، وفيها أبحاث علمية ورسائل دينية ومقالات فلسفية ، وفيها قصص ونقد ؛ أضف إلى ذلك كله أنه كان دائم المراسلة مع أصدقائه العديدين حتى بلغ ما كتبه من رسائل أكثر من عشرة آلاف ! فانظر إلى هذه الخصوبة الفادرة التي لم تمض بغير أثر سيء ، فقد اقتضته أن يبعثر قواه بعثرة لم تمكنه أن يكون أديبا من الصف الأول في إنتاجه ! فلم ينتج شيئا نستطيع أن نضعه في الطراز الممتاز من نوعه .

وسنرجع فولتير الكاتب المسرحي ، وفولتير الشاعر ، إلى أجزاء أخرى تالية . أما في هذا الجزء الذي خصصناه للنثر الفرنسي ، فلا يسعنا أن نقول عن أسلوبه إلا أنه المثل الأعلى الذي يطمح إليه كل من حمل القلم ؛ فهو أسلوب زاخر بالصور ، ولكنه واضح ؛ قوى نفاذ إلى القلوب لكنه سهل سلس ، تراه دائما كأنما لم تمسه يد الفنان إلا مساه رقيقا لكنه مع ذلك مترع بلفقات الذكاء الوقاد ، فهذا الأسلوب الموسيقي الرخيم أنشأ فولتير ما أنشأه على اختلافه وتنوعه . ولئن حقق له أسلوبه سائر أغراضه ، فقد كان قبل كل شيء أداة طيعة مكنته من السخرية التي بلغت في كتابته حدا لم تكذب تبليغه عند كاتب آخر ، فاستحق من أجلها في تاريخ الأدب أن يلقب « بالساخر العظيم » . ومن كان يسخر فولتير ؟ من كل ما نمر منه قلبه — من القساوسة والملوك والطغاة والظالمين ، فهو لاء جميعا أعداء لما أحب واشتهى وجاهد حياته من أجله ، هم أعداء الله والحب والعطف ، هم أعداء الحرية في الفكر والعمل . وجدير بنا في هذا الصدد أن ننفي عن فولتير تهمة الإلحاد التي لصقت به مع أنه أنفق حياته يحارب مذاهب الملحد من معاصريه ، وبنى كنيسة نقش على جدرانها « مهداة إلى الله من فولتير » ، وفي ذلك قال : « لن نجد كنيسة غير هذه أهديت إلى الله ؛ إنما تبنى الكنائس للقديسين ، أما أنا فأؤثر أن أكون خادما للسيد على أن أكون خادما لأتباعه » .



وفولتير — فضلا عن مكانته الأدبية — مؤرخ بدأ طريقة جديدة في كتابة التاريخ ؛  
فمؤلفه «مقالة في السلوك» تحدد بداية طور جديد في دراسة الإنسان لماضيهِ ؛ وأخذ المؤرخون  
ينهجون منهجه ، فتطور علم التاريخ بهذا تطورا ملحوظا ؛ نعم تستطيع أن تأخذ على هذا  
المؤلف بعض المآخذ ، فهو أحيانا يذكر تفصيلات خاطئة ، وهو كثيرا ما يصل إلى  
تعميمات لا عمق فيها ، وتراه في بعض المواضع يتأثر بالهوى ، ومع ذلك كله فهو — كما  
قلنا — يحدد طورا جديدا في كتابة التاريخ ، لأنه يمتزج من الحوادث التاريخية فلسفة  
قائمة على التطور الطبيعي ، لا على تدخل قوة فوق الطبيعة ؛ فقد كان المؤرخون قبله يعطون  
مجرى الحوادث بآداة عليا تُشرف عليها فتوجهها كيف شاءت . أما فولتير فلا يرى في  
حوادث التاريخ — بل في حوادث السكون كلها — إلا أسبابا تعقبها مسببات وهو أيضاً  
لا يجعل التاريخ سجلا للحروب والملوك ، بل يجعله قبل كل شيء تاريخاً للمدنية الإنسانية  
والتقدم العقلي .

وهو في فلسفته يتابع المدرسة الإنجليزية وعلى رأسها «بيكن» و«لوك» ، التي  
تعتمد بإدراك الحواس وبالتجربة في علمها بالأشياء ؛ وفي الدين لا يعادى المسيحية في ذاتها ،  
بل يعادى النظام الكنسي السائد في عصره ، إذ كان هذا النظام في رأيه مقروناً بالتعصب  
والقسوة والهوس ؛ هو يعادى المذهب الكاثوليكي الروماني الذي يراه عاملا من عوامل  
الجمود التي تعوق حركة التنوير والتقدم ؛ فهو مؤمن بالله لكنه لا يحترم الشعائر التي تدل  
على نفاق ، وهو كذلك لا يؤمن بالوحى ، وذلك عنده لا يتنافى مع إيمانه بالله ؛ وأما مذهبه  
في الأخلاق فهو المذهب النفى الذي يجعل الفضيلة فضيلة لأنها تنفع الإنسان ، لا لأنها  
واجب مجرى يجب أدائه بغض النظر عن نتائجه ، فمصلحة المجتمع هي المقياس الوحيد الذي  
يقاس به العمل إن خيرا وإن شرا .

وفيما يلي موجز لقصته «كانديد» لعلمها بذلك على شيء من خصائصه :  
كان شاب يعيش في قصر بارون بوسستاليا ؛ وكان بطبعه قويم الخلق طيب القلب  
صريحا ، ولهذه الصفات أطلق عليه اسم «كانديد» ، وقد كان خدام القصر يظنون  
كانديد ابن أخت البارون نجلة من جارٍ فاضل لم تقبل الزواج منه ، لأنه لا يحفظ من

أسماء أجداده إلا واحداً وسبعين اسماً ، ومحا الزمان بقية أسلافه ، وليس هذا دليلاً على النسب الشريف .

وكان للبارون ابنة اسمها « كونجوند » في السابعة عشرة من عمرها ، فتاة جذابة ، وكان « بانجلوس » شيخاً في قصر البارون يلتقي فيه المواعظ الدينية التي اعتاد كانديد أن يصغي إليها في سذاجة سنيته وبساطة أخلاقه ، وكانت أولى تعاليم الشيخ وأهملها « أن لا معلول في هذا العالم بغير علة ، وأن هذه الدنيا خير ما يمكن خلقه من الدني » ؛ يقول بانجلوس إن الأشياء لا يمكن أن تكون على غير ما هي عليه ، فكل شيء أعد لغاية مقصودة ، وهي بالضرورة خير غاية يمكن أن يقصد الخالق إليها ؛ فالأنف قد أعد ليحمل المنظار ، ومن ثم كانت لنا مناظير ، والساق قد أعدت للجورب ، ومن ثم كانت لنا جوارب ، والصخور أعدت لتتصحت في حصون وقصور ، ومن ثم كان لسيدى البارون هذا القصر الجميل ، والخزير خلق ليؤكل ، ومن ثم كان لحم الخنزير لنا طعاماً ؛ فلا يكفي إزاء هذا كله أن نقول إن العالم خير ، بل ينبغي أن نضيف أن ليس في الإمكان أبدع مما كان . أصغى كانديد في انتباه إلى تعاليم الشيخ وآمن بما سمع ؛ وكان طوال إقامته بالقصر مفتوناً بابنة البارون « كونجوند » ولكنه لم يجرؤ أن يعلن لها إعجابه بها ، فقد تقابلا ذات صباح ، وعلتها حمرة الخجل وعلته ، وحيته بصوت متقطع وحيها ؛ وفي اليوم التالي تقابلا مصادفة وراء ستار . فأسقطت كونجوند منديلها والتقطه كانديد ، فأمسكت الفتاة بيد الفتى ؛ فقبل كانديد يدها في لهفة وعاطفة مشتعلة ، وتقابلت منهما الشفاه وتلاتت الفواظ وارتعشت الأطراف ؛ ثم شئت المصادفة كذلك أن يجيء البارون على مقربة من الستار ، ف وقعت عينه على سبب ومُسبب من أسباب الدنيا الكثيرة ومسبباتها ، لكنه قذف بكانديد خارج القصر وركله ركلاً عنيفاً ، وسقطت كونجوند في إغماء لم تكد تفيق منها حتى صفعها أمها البارونة على أذنها صفعة قوية ، وبهذا اضطرب الأمر كله في قصر كان أبدع ما يمكن لقصر أن يكون .

خرج كانديد من فردوسه الأرضي طريداً ، فطوف أمداً طويلاً لا يدرى إلى أين يسير ، يبكي ويصعد البصر إلى السماء ثم يصوبه الحين بعد الحين إلى أجمل القصور التي تحوى أروع النساء ؛ وكان يبني على الطوى ويفترش الحصباء في الحقول المارية والثلج



يتساقط فوقه أ كداساً فوق أ كداس ؛ فلما أوشك أن يجمد جمود الموت أخذ يزحف في الصباح حتى بلغ القرية المجاورة ، وليس معه من المال شيء ، ثم هَدَّه النَّصْبُ فوقف منهوكا أمام فندق ، فمرَّ به سيِّدَان في ثياب زرقاء ؛ فقال أحدهما للآخر حين أبصره : « هذا يا أخى رجل جميل البنية ملائم الطول » ، وتحدث السيدان إلى كانديد واصطحبا به في رفق إلى حيث تناول معهما طعام الغداء .

قال كانديد : ليس معى يا سادة ثمن الطعام .  
فقال أحدهما : لا عليك ، فإن مَنْ في أسمالك لا يدفعون شيئاً ، ألسنت تبلغ في الطول خمس أقدام وخمس بوصات ؟

فقال كانديد : نعم ، سيدي ، فهذا مقياس طولى .  
فقال أحدهما : تعال ياسيدي واجلس إلى هذه المائدة ، فأنت ضيفنا ، بل لن ندع رجلاً مثلك بغير مال ، فقد خلق الناس ليعين بعضهم بعضاً .

قال كانديد : إنك على حق فيما تقول ، وهذا ما أنبأني به بانجلوس ، وهأنذا أرى كل ما في العالم يسير نحو الخير .

قال أحدهما : ألا تحب . . .  
فقال كانديد : نعم ، أحب كونجوند .

قال أحدهما : بل أسألك هل تحب ملك البلغاريين .  
فأجاب كانديد : كلا ، فلم أره .

قال أحدهما : وكيف ذاك ! إنه أفضل الملوك ، وينبغي أن تشرب نخبه :  
فقال كانديد : هأنذا أشرب نخبه بكل قلبي .

فقال السيد : كفأك هذا ، فقد غدوت الآن من حماة البلغاريين وبنيت مجدك .  
ثم قيَّده في أغلال الحديد وساقاه إلى فرقة بالجيش وعلماه كيف يسل السيف وكيف يطلق النار ، وكانا يجلدانه كلما أخطأ حتى بات كانديد بين الجند بارعا .

ولكن عنَّ له ذات يوم أن يسير على عقيدة عنده بأن للانسان ما للحيوان من حق في استخدام أعضاء جسمه كيف شاء ، ولكنه لم يكدر يبعد في مسيره حتى أقبل عليه أربعة رجال وشدوا وثاقه وألقوا به في غياهب السجن ، ثم جيء به أمام القضاء ،

فسألوه أيهما يفضل ؟ أن يُضْرَبَ بالسياط ستاً وثلاثين مرة ، في كل مرة يضربه جنود  
الفرقة جميعاً ، أم أن يُطْلَقَ عليه اثنا عشر رصاصة ؟ وعبثاً حاول أن يقيم الدليل على أن  
إرادة الإنسان حرة ، وأنه يرفض العرضين جميعاً ، ولكنه أرغم على الاختيار فأثر العقاب  
الأول ، وكان اختياره هذا دليلاً على ما وهبه الله للإنسان من حرية في الإرادة ! فأخذت  
السياط تنوشه حتى بلغت الضربات ألفين في مرتين اثنتين ، وكان ذلك كافياً أن يمزق  
جسده تمزيقاً ، فلما همَّ الجند أن يبدأوا في المرة الثالثة صاح بهم كانديد أن يرجعوه فيقتلوه ؛  
وقبل منه الرجاء وشدَّ فيه الوثاق ، لولا أن ملك البلغاريين مرَّ بهم ، وسأل للذنب  
ما ذنبه ؟ فأجاب الفتى قائلاً : إنه شاب حَدَثُ اشتغل بالفلسفة فجهل أمور الدنيا وتلك  
جريرته ، فعفا عنه الملك وتولى علاجه طبيب فبرئت جروحه بعد ثلاثة أسابيع ، وما كاد  
يستقيم على قدميه حتى نشبت الحرب بين البلغاريين وأعدائهم ؛ ها هي ذى المدافع تحصد  
الجند حصداً في هذا العالم الذي هو خير ما يمكن خلقه وليس في الإمكان أبدع منه ! وكان  
كانديد فيلسوفاً فلم يطق أن يرى تلك المجزرة البشرية فاخْتَبأ ، ثم انتهز فرصة كان الجند فيها  
يرتلون أناشيد الصلاة ، وأمرع هارباً يخطو فوق جثث وأشلاء حتى بلغ قرية في أرض  
أعداء البلغاريين ، فألقاها رماداً إذ أحرقها البلغاريون وفقاً للقانون الدولي ، وشهد هنالك  
كهولاً اتخنتهم الجراح يرمقون بعيون كليلية جثث زوجاتهم ملقاة على الأرض طرْحى ،  
وشهد في موضع آخر نساءً تأكلهن أسنة النار في بطن فأكذوا يضرعون إلى الله أن يمنَّ  
عليهم بموت سريع ؛ فسارع كانديد إلى قرية أخرى من قرى البلغاريين أنفسهم ، فاقى  
السكوارث بعينها ، فها هو ذا يطأ أعضاء مبتورة لتوها لا تزال ترتعش بالحياة ، فمضى  
مسرعا حتى خلاص من ميدان القتال ، وليس في وقاضه إلا قليل من زاد ، ولكنه لم يَنْسَ  
قط فأنثته كونه جوند !

وبلغ كانديد أرض هولندية ، وطفق يسأل الناس إحساناً ، فيتهده الناس بالسجن  
إذا هو لم يكفَّ عن السؤال ، وأخيراً صادف رجلاً كان قد أنفق ساعة كاملة يحاضر جمعاً  
حاشداً في وجوب الإحسان ، فدَّ إليسه كانديد المحتاج ، فنظر إليه الخطيب سائلاً :  
« ماذا أنت صانع هنا يا فتى ؟ » فأجاب كانديد ، إن ضرورة الحوادث قد دفعته إلى طلب  
الإحسان دفْعاً ، ولم يكن له قدرة على تحوير مجرى الأسباب والمسببات في هذه الدنيا  
فهزه الخطيب قائلاً : عني أيها الوغد !



وهكذا مضى عنه مَنْ كان يدين بالعتيدة المسيحية في الحب والإحسان ؛ وشاءت المصادفة أن يمر به رجل لا يدين بالمسيحية ، وأشفق الرجل على هذا الإنسان البائس ، وإنه لإنسانٌ كسائر الناس يمشى على قدمين ، وليس هو من ذوات الظلف أو الجناح ! فاستصحبه إلى داره وأطعمه وعلمه صناعة يؤديها في مصانعه .

وخرج كانديد في صبيحة اليوم التالي يجول في الطريق ، فقابل سائلا كادت حروق النار تمزق جسمه ، وقد عشت عيناه وتآكل أنفه ، واعوجَّ فمه واسودَّت أسنانه ، فتعحركت الشفقة في قلب كانديد وناول ذلك المسكين قطعة النقود اللتين كان رجل الأمس قد أعطاهما إياه ؛ فنظر إليه الشيخ ، وكاد يسقط على الأرض ودمعت عيناه ؛ فذعر كانديد وخطا إلى الوراء فرعا .

قال الشيخ : وأسفاه ؟ أنت تعرف صديقك بانجلوس ؟  
فأجاب كانديد : ماذا تقول ؟ أهو أنت أستاذي العزيز ؟ كيف حالت حالك وماذا أصابك من السوء ؟ ما الذي أخرجك من أجل القصور ، وماذا حدث لكونجوند ؟  
قال الشيخ : — وقد نقله كانديد إلى اسطبل سيده وأطعمه — ماتت كونجوند .  
فطار صواب كانديد ثم أفاق فقال : هل ماتت كونجوند ؟ أيتها الدنيا وأنت خير ما يمكن خلقه من الدُّنْيَا ! وكيف ماتت ؟ .

فأجاب الشيخ : بقرها الجند البلغاريون ، ولما أراد البارون أن يحميها ضربوه ثم قطعوا البارونة إربا إربا ، وهدموا القصر حتى لم يبق فيه حجر على حجر ؛ لكننا انتقمنا ، إذ أحدث جندنا مثل هذا في قصرٍ لأمير بلغاري .

واستعطف كانديد سيده أن ينفق على علاج أستاذه ، وشفى بانجلوس لولا أنه فقد عيناً وأذناً ، واستخدمه السيد حاسباً لبراعته في الحساب ؛ وبعد حين شاءت الضرورة لذلك الرجل أن يرحل إلى لشبونة ، فاستصحب الفيلسوفين : بانجلوس وكانديد ؛ وأخذ بانجلوس يشرح لسيده وهما في الطريق كيف لم يكن في الإمكان أبدع مما كان ؛ فلم يوافق الرجل على رأيه ذاك ، فأضاف بانجلوس : إن طبيعة الإنسان قد فسدت ؛ فالله لم يخلق الناس ذئاباً ، لكنهم قد باتوا من الذئاب ؛ إن الله لم يُعْطِ الناس مدافع أو بنادق ، لكنهم صنعوها ليفتك بعضهم ببعض ... ولكن الشرور الفردية تكون في النهاية الخير

العام ... وبينما هو ماضٍ في حديثه ذاك ، اكفهرت السماء وهبت الريح ، وعصفت العواصف بالسفينة وهي على مرأى من ميناء لشبونة .

ولم تلبث السفينة أن باتت حطاما ، وغرق كل مَنْ عليها إلا بانجلوس وكانديد ومعهما بَحَّارٌ فقط غليظ القلب ؛ ولكن لم يكد الفيلسوفان يطان أرض لشبونة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، واندلعت نار بركانها . وامتلات الشوارع باللهب والرماد وترنحت الدُّورُ فوق آسائها واندكت قوائمها ، وقضى ثلاثون ألفاً من سكان المدينة نحبهم صرعى ؛ وأصاب كاندديد قطع من الصخر هوت عليه فجرحته وسقط يتمرغ من الألم .

وبينما الناس في فزعهم والهول ، أخذ بانجلوس يهدى من روعهم وينزل السكينة على قلوبهم بقوله : إن كل ما يحدث في الدنيا معقول مقبول ، لأن العالم خير ، ولا بد أن يقع فيه ما وقع ، لأن لكل شيء سبباً ؛ فغذبه شاب يتشح بالسود — وكان عضواً في محكمة التفتيش — وقال له : بظهر أنك يا سيدي لا تؤمن بالخطيئة الأولى ؛ فلو كان كل شيء خيراً لما هوى الإنسان من الجنة ولا كان هناك عقاب ؛ وكأني أسمعك تقول إن كل شيء مقدور ، وإذن فأنت لا تؤمن بحرية الإرادة . فبدأ بانجلوس يجيب بأن حرية الإرادة لا تعارض الجبر ، لأنه من جبر الإرادة أن تكون حراً . . .

لكن الشاب الفيس لم يمهله حتى يفرغ من جوابه ، وأمر به فقبض عليه وزجَّ في السجن ، كما سجن تلميذه كانديد لأنه كان يستمع إليه في إعجاب .

هدأت الأرض بعد زلزالها ، وقد تهدم من لشبونة ثلاثة أرباعها ؛ فأجمع حكماء المدينة أن لا وسيلة للإنقاذ خير من أن يُلقى ببعض المذنبين في النار ليحترقوا احتراقاً بطيئاً في حنل من الناس يرتلون لله الصلاة والدعاء ، وإن هي إلا أيام قلائل تمضي حتى جيء برجل رفض أن يأكل الطعام مطهياً بالشحم مع أنه تقليد لا بد من احترامه ، وأُلقي بالمسكين في النار ، كذلك جيء بكاندديد وأمر أن يُجَلَّد بالسياط ، كما سيق بانجلوس إلى حبل المشنقة لأنه إباحي التفكير — حدث كل هذا والناس من حولهم يرتلون الدعوات وينشدون الصلوات أن ينقذ الله لشبونة من زلزالها الخفيف .

فلم يسمع كاندديد — وقد هاله ذلك كله — أن يصيح : « إن كانت هذه الدنيا خير ما يمكن خلقه ، فما عسى أن تكون أسوأ الدُّنى ؟ »



هذا مثال لقولتير ، وإن تخطى فيه روحه الهازلة الساخرة ، فهو يهزأ بمن ينظر إلى الدنيا نظرة التفاؤل ، لما يراه في العالم من ألوان الشرور ؛ وقد أمسى أسلوب قولتير — الذى يمتاز بالتدفق والصقل والبساطة والوضوح — مثلاً أعلى يطمح إليه الكتابون ، وأوحت قصة « كانديد » بما أوحت إلى « رينان » و « أناتول فرانس » من كتاب فرنسا ، ثم تعدى تأثيره أرض الوطن إلى سائر الأقطار المجاورة ، فاحتذاه « بيرون » فى تهكمه ، وتمنى « برنارد شو » أن يقوم فى إنجلترا بالدور الذى قام به قولتير فى فرنسا من نقد وتهذيب يعومان على السخرية اللاذعة .

ديدرو Diderot (١٧١٣ — ١٧٨٤) :

وهذا رجل آخر وقف بإنتاجه العظيم الضخم إلى جانب قولتير : هذا يذيع فى الناس آراء « جماعة الفلاسفة » الذين أرادوا قلب المجتمع عن طريق التنوير العقلى بفطنته وسخريته وسحر أسلوبه ، وذلك ينشرها نشرأ علميا هادئاً ؛ وقد أراد له أبوه بادى الأمر أن يلتمس سبيله إلى وظائف الكنيسة أو أن يدرس القانون أو الطب ، فأبى الفتى على أبيه ما أراد له ، وفقد بذلك معونته ، فأصابه الإملاق ، ولم يستطع العيش إلا بمجهوده الشاق ، معلماً وكاتباً مأجوراً لأصحاب المكاتب ، فيكتب لهم ما يؤجرونه على كتابته ؛ فهذا كتاب يطلب إليه ترجمته ، وتلك قصة وضيفة يكتبها لإجابة لدعوة من الناشر الذى يتلمس موارد الكسب بكل السبل ؛ بل هذه مواعظ يعدها لتلقى فى السكنائس ؛ وكان قد جمع نتاجه الفكرى الخاص فى « آراء فلسفية »<sup>(١)</sup> لكنها أحرقت بأمر من برلمان باريس ؛ ثم ازداد عليه سخط القابضين على زمام الحكم حين نشر « خطاب عن العمى موجه إلى المبصرين » فألقوه فى السجن ، وبعدئذ همَّ بعمله الجسيم الذى لبث مشغولاً به عشرين عاماً أويزید ، وهو إعداد موسوعة شاملة للمعارف الإنسانية جميعاً ، ولو أن ذلك لم يمنعه أن يتابع إخراج ما يجيش به صدره من خواطر ، ومع ذلك كله ألت به ضائقة مالية فى أخريات سنيه ، فأعانتة عليها « كاترين » امبراطورة روسيا التى شاءت أن تكون

(١) Pensées Philosophiques

راعية له تحميمه ، وزارها الكاتب في قصرها زيارة لم تطل ، ثم عاد إلى باريس حيث عاش عيشة هادئة إلى أن وافته منيته .

هكذا أخذ «ديدرو» ينفث كفايته ومواهبه نثراً ذات الشمال وذات اليمين ، لا يحرص لنفسه على وقت أو عافية أو مال ؛ قد حباه الله عقلاً يموج بالأفكار المبشكرة ، كأنه الحقل الخصيب ينبت في كل يوم من صنوف النبات ألواناً ؛ لكنه مع ذلك أعوزته القدرة على التفكير المتسلسل المتساق ، كما امتنعت عليه القدرة على التركيز ؛ ومن هنا كان غزير الإنتاج قوى الفكر لامع القريحة ، ومع ذلك لم يخلف لنا شيئاً نستطيع في وضوح وجلاء أن نرى فيه فلسفته الخاصة ، ولا هو ترك فيما ترك أثراً فنياً واحداً يدل على الصقل والتجويد ؛ على أن لنا أن نقول عن فلسفته إنها مادية صميمة ، وهو في وجهة نظره إلى الأدب يبشر بمذهب الابتداع ، إذ دعا إلى ضرورة اعتماد الفكر العبقري الموهوب على نفسه ، فلا حاجة به إلى قواعد القدماء ونماذجهم يحتذيها ، فهاهي الطبيعة أمامنا ، فقيم العودة إلى ما قاله آباؤنا ؟ نعم إن للآثار الأدبية القديمة قدرها العظيم ، ولكن هل يعني ذلك أن نحد قرائحنا بحدودها ؟ لهذا كنت تراه شديد الإعجاب بالخارجين على قواعد الاتباع من أدباء الانجليز ، أمثال «ريتشر دسن» <sup>(١)</sup> و «ليلو» <sup>(٢)</sup> و «مور» <sup>(٣)</sup> و «ستيرن» <sup>(٤)</sup> .

ولنا إلى هذا الحديث عودة حين نتناول أدبين في جزء تال كاتباً مسرحياً ؛ ولديدرو فوق ما ذكرنا «آراء غريبة عن ممثل الملهة» <sup>(٥)</sup> ولعله أمتع كتبه جميعاً ، وفيه بحث في قواعد الفن التمثيلي ؛ وله كذلك «ابن أخى رامو» <sup>(٦)</sup> وهي قصة جميلة يسخر فيها من أخلاق العصر ، وقد ترجمها «جيته» إلى الألمانية . وقصة أخرى عنوانها «الراهبة» <sup>(٧)</sup> فيها وصف لحياة الأديرة ، وله كذلك «چاك المؤمن بالقدر وسيده» <sup>(٨)</sup> ، وهي ليست قصة بالمعنى

(١) Richardson ترجم ديدرو رواية رتشر دسن المشهورة «كلاريسا» الفرنسية لينشر فيه القصص في فرنسا .  
(٢) Lillo .  
(٣) Moore .  
(٤) Sterne .  
(٥) Paradoxe sur le Comédien .  
(٦) Le Neveu de Rameau .  
(٧) La Religieuse .  
(٨) Jacque le Fatalisté et son Maître .



الصحيح للقصة ، بل هي سلسلة محاورات ومناقشات تتخللها حكايات ومغامرات ، وأخيراً نذكر مقالاته التي كتبها عن معارض التصوير التي أقيمت في باريس من سنة ١٧٥٩ إلى سنة ١٧٩٥ ، وقد نشرها باسم « الصالون » ، وهو في هذه المقالات يميل إلى مذهب الابتداع ، معترضا على رجال الفن الذين يشترطون التقيد بأوضاع الفن القديم بقوله : « وماذا لولم يكن في الوجود قديم ؟ » .

وأجل إنتاجه قدراً هو « الموسوعة » — أو دائرة المعارف — التي أدارها وساهم في تحريرها ؛ فقد أحس الناس أن المعارف المتفرقة لا بد من جمعها ليكون للانسانية من مجموعها سبيلٌ مؤدية إلى الحق ؛ وكان هذا الإحساس هو الحافز الذي دفع « ديدرو » إلى إنشاء الموسوعة ، فجاءت كنزاً زاخراً بكل صنوف العلم والمعرفة التي وصل إليها العقل البشري حتى ذلك الحين ؛ بل أضافت إلى ذلك أنها وضعت أساس المذهب الديمقراطي ؛ وقد عاون « ديدرو » في هذا المشروع الضخم طائفة ممتازة من الأعلام والفحول — كان بينهم فولتير وروسو — ولعل هذا الخطاب الذي أرسله فولتير إلى ديدرو ، يقرب لك أساس هذه الموسوعة ، قال : « ما أشبه موسوعتك ببرج بابل : فيها الطيب والخبيث ، وفيها الحق والباطل ، وفيها الجد والمرح ، كلها مجتمعة في كتاب واحد ؛ ويخيل إليّ أن بعض فصولها قد كتبه متأنق متحذلق وهو جالس في « صالونه » ، وأن بعضها قد كتبه خادم قذر وهو في مطبخه ؛ إن قارئ الموسوعة لينتقل فيها من أعلى سماء يحلق فيها الفكر إلى أسفل السفاسف التي تبعث في نفسه الملل » .

ورأى أولو الأمر أن ظهور هذه الموسوعة يفتق الأذهان فيؤدي إلى خطر ، فاضطهدوها وقاوموها ، واضطر ناشروها إلى إخراج مجلداتها الأخيرة في طي السكتان خشية أن يصيبه من الشرطة أذى ؛ وقد حدث أن أصابت ديدرو خسارة فادحة حين داهمت الشرطة يوماً دار المطبعة فأتلف عاملٌ جبانٌ كل « التجارب » بغير إذن من سيده — وهكذا أخرجت موسوعة العلوم للناس ، فكانت عملاً جليلاً يخلد اسم « ديدرو » على وجه الزمان ، ولو أنه لم يدر على صاحبه من الربح أكثر من جنيهات عشرة في كل شهر مدى عشرين عاماً كاملة أنفقها في إخراجها ؛ وبهذه الموسوعة كان « ديدرو » رسول المعرفة في عصره ، فقد

كان يفكر الوحي مثل فولتير وروسو ، ويؤمن بأن إنقاذ العالم مرهون بنشر المعرفة والفضيلة .

هذا هو « ديدرو » بإنتاجه المتنوع الغزير ، فهو — في عصره — الصحفي الموهوب الذي ينتج إنتاجاً سريعاً متلاحقاً فيه سمات الاهمال إلى جانب ما فيه من طابع النبوغ والتجديد واستقلال الرأي ؛ ويقول عنه سانتسبري : « إنه يوشك أن يكون أكثر الأدباء خصوبة في تنوع آرائه ، فيستحيل أن تجد موضوعاً لم يعالجه ديدرو ، ويكاد يستحيل أن تذكر موضوعاً لم يقل فيه بعض الآراء الخالدة التي تدعو إلى الإعجاب »

روسو Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) .

كانت « جماعة الفلاسفة » ، التي يمثلها فولتير وديدرو ، تعتد بالعقل وحده ، ولا تؤمن إلا به ، فجاء « جان چاك روسو » مزدرياً العقل ومنطقه ، مؤمناً بالعاطفة والشعور ، فكان بذلك بمثابة رد الفعل الذي يعقب التطرف ليرده إلى الصواب .

ولد لأبٍ يصلح الساعات في جنيف ؛ ولما بلغ الثالثة عشرة أمر أن يعاون رجلاً يسجل العقود كي يحترف هذه المهنة بعد تربيته ، لسكن سرعان ما رأى فيه « المسجل » غيباً بليداً ففصله ، فوضع الفتى حيث يتعلم فن الذبذبة ، وقضى ثلاثة أعوام يعمل مع رجل فظ غليظ أخذ يقسو عليه ويستزله ، فما وسع صاحبنا إلا أن يعمد إلى الفرار ؛ وهام على وجهه لا يعلم لنفسه غاية يقصد إليها ، حتى انتهى به السير إلى قرية تسمى « كوفينيون »<sup>(١)</sup> وهناك استطاع القسيس أن يردّه عن عقيدة أبويه البروتستنتية إلى الكاثوليكية ، لقاء غداء طيب قدمه إليه ، ثم أرسله إلى سيدة في « آنسي »<sup>(٢)</sup> هي « مدام دي وارينز »<sup>(٣)</sup> رجاء أن تعظه وترشده ؛ ولم يكذ الفتى يتصل بالسيدة حتى أحبتها ؛ وما هي إلا أن أرسلته « مدام وارينز » إلى « تورين » ليعمّد على العقيدة الجديدة ويؤخذ بشعائرها ، وقضى هنالك فترة أطلق بعدها ومعه قليل من الفرنكات أعطيها ؛ فراح ينفق هذا المال القليل بغير حساب ، حتى نفذ ، واشتغل خادماً بضعة أشهر ثم لم يطق على ذلك صبراً ، فهم



بالرحيل إلى « مدام وارنز » وهنالك في دارها أقام ما يقرب من عشر سنوات إقامة كادت تنصل ، إذ تخلّلتها فترات صغيرة غاب فيها عن دارها ، ليشغل معلماً للموسيقى في لوزان مرة ، وليكون خادماً لأحد الضباط مرة أخرى . وهكذا ، ثم حدث أن طاف بدار « مدام وارنز » حلاق جوال ، فاغتنب حُبَّ السيدة لنفسه ، وبادلتها السيدة الحب ، فاعتم « جان چاك » أن غادر الدار مغيباً محققاً ، وقصد إلى باريس وليس معه إلا قليل مال ، وملهاة كتبها عنوانها « نارسيس »<sup>(١)</sup> وطريقة جديدة في الترقيم للموسيقى من ابتكاره ؛ تلك كانت عدته حين قدم إلى المدينة الكبرى ، فسرعان ما تبدد ماله القليل وبات في باريس خالي الوفاض لا يدري ماذا يصنع ، لولا أن شاء له القدر أن تعينه سيدتان عرفتهما ، على أن يعينَ كاتباً لسر السفير الفرنسي في البندقية ، فما مضت عشرة أشهر حتى اشتجر مع السفير ، وقفل راجعاً إلى باريس حيث نزل بفندق حقير قريب من السوربون ، وبدأ يرتق من نسخ « النونات » الموسيقية ؛ وهنا اتصل بخادمة أمّية ساذجة ؛ ولبت يعيش في مسغبة ، لسكنه على الرغم من سوء حالته استطاع أن يلتمس السبيل إلى بعض السيدات البارزات ، وطائفة من رجال الأدب الظاهرين ، منهم « ديدرو » الذي دعاه أن يكتب فصولاً عن الموسيقى في موسوعته .

ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره ، حدثت نقطة التحول في حياته ؛ إذ أعلن الجمع العلمي في « ديجون » موضوعاً للتسابق بين الكتّاب ، وهو : هل عمل تقدم العلوم والفنون على رقي الأخلاق ؟ فما وقعت عيناه على موضوع المسابقة في الصحف حتى أحس بهزة الوحي في نفسه واعتزم أن يسابق ؛ وكتب مقالة يهاجم فيها الثقافة كلها مهاجمة عنيفة حارة ، كان لها السبق عند المحكمين ، وأحدث نشرها حركة قوية ؛ فما هو إلا أن أصبح رجلاً مذكوراً مشهوراً ، إذ عدّه الناس رسولا لمذهب جديد ينادى بالعودة إلى الطبيعة ؛ ثم أخرج بعد أربع سنوات « بحث في نشأة وأساس التفاوت بين الناس »<sup>(٢)</sup> ، ورأيه في هذا الكتاب هو أن المدنية كلها فساد في صميمها .

شاع اسم « روسو » في « صالونات » باريس ؛ وكان يستطيع أن يحتل في المجتمع

(١) Narcisse .

Discours sur l'Origine et les Fondements de l'inégalité parmi les Hommes. (٢)

مكانة عالية ، لكن كبريائه وغروره أبيا عليه إلا أن ينفر من الناس وأن يجافى المجتمع ؛ واعتزل في بيت صغير تملكه إحدى أصدقائه ، وهناك كتب «جولى أو هلويز الجديدة»<sup>(١)</sup> و «العقد الاجتماعى»<sup>(٢)</sup> و «إميل»<sup>(٣)</sup> ؛ وكان «إميل» يحتوى على نظرات دينية وسياسية تزعج أولى الأمر ، فصدر الأمر بإحراقه والقبض على كاتبه ، ففر روسو من باريس إلى «موتيه» بسويسرا ، لكنه سرعان ما غادرها طريداً ، إذ نشبت بينه وبين أهلها الشحنة على اختلاف ديني بينه وبينهم ؛ وهام الرجل على وجهه يضرب في فجاج الأرض لا يعرف لنفسه مستقراً ، حتى دعاه الفيلسوف الإنجليزى «دافيد هيوم» أن يهبط على إنجلترا فيتخذ فيها مأوى له ، واستجاب للدعوة رجاء أن يجد في تلك البلاد راحة نفسه ؛ لكنه عندئذ كان قد اعترته حالة من الجنون التى تخيل المصاب بها أنه مضطهد ، فظن الظنون بكل شئ وارتاب فى كل شخص ، وتوهم أن العالم كله يترصد به ، فلا يرى فى الأصدقاء إلا ألد الأعداء ؛ وقضى فى إنجلترا شهراً وهو فى مثل تلك الحالة النفسية ، ثم تسلل إلى فرنسا وظل ثلاثة أعوام شريداً طريداً ؛ وعلم أولو الأمر بوجوده ، فأمنوه على نفسه ، وعاد إلى باريس واستأنف بها حرفته الأولى وهى نسخ «النوتات» الموسيقية ، لكن وساوسه وأوهامه أخذت تتسع وتزداد ، فكان يحسبه إذا ما سار فى الطرقات متبعوا بالجواسيس ؛ بل إنه كان إذا ما صادف فى طريقه صبيّة يلهو جري مسرعاً لما يراه فيهم من خطر ؛ وظل فى هذا العذاب النفسى ثمانية أعوام ، كان فيها موضع الإشفاق عند عارفه . وأخيراً عرض عليه صديق غنى أن يرحل إلى بيت ريفى صغير له على مقربة من باريس ، وفى ذلك البيت الهادئ قضى نحبه فجأة فى يوليو سنة ١٧٧٨ ؛ ولم يكن مضى إلا شهر واحد على موت فولتير .

ولروسو إنتاج أدبى غزير ، لكنه معروف بكتبه الأربعة العظيمة «الاعترافات» و «جولى» و «العقد الاجتماعى» و «إميل» — أما «الاعترافات» فلا نجد لها نظيراً فى كتب السيّر ؛ وليست قيمة هذا الكتاب فى صدق ما ورد فيه من حقائق ، لأنه كتبه فى أخريات سنيه حين انتابته العلة العصبية واعترته الوسوس والأوهام ، فنظر إلى



ماضيه وحاضره بمنظار العاطفة المضطربة السقيمة ؛ ولكن قيمته في تصوير نفسه تصويراً تكاد لا تجد له مثيلاً في آداب العالم كلها ، وكانت غاية الكاتب فيه أن يصف نفسه في أمانة تعلن كل شيء ولا تخفى شيئاً ، وهو يستهل الكتاب بقوله :

« إني بهذا الكتاب أؤدى عملاً لا أجد له مثيلاً ؛ ولن يجد بين الناس مقلداً ؛ وغاية الكتاب أن يعرض رجلاً على حقيقته لا ينقص من الحق شيئاً ؛ والرجل الذي أعرضه هو نفسى ، نفسى دون سواها ، لأننى أعتقد حقاً أن ليس لى بين الأحياء شبيهه ، إننى فى هذا الكتاب لا أخفى سيئته ولا أضيف حسنة ، وأتحدى رجلاً فى وسعه أن يقول — بعد أن يكشف عن سريرة نفسه بمثل إخلاصى — « إننى خير منه » .

« كان مولدى فى جنيف عام ١٧١٢ ، وأبى اسحق روسو رجل يصلح الساعات ، وأمى سوزان ، ومولدى — الذى كان أول حلقة من سوء طالعى — قد كلف أمى حياتها ، وجئت إلى العالم فى ضعف لم ينتظر لى معه أن أعيش ؛ وكفلتنى عمى حتى غمرتني بحناتها ، وأما أبى فقد كان فى يأسه يحبني أبلغ الحب .

« ولقد شعرت قبل أن أفسكر ؛ شأنى فى ذلك شأن سائر الأطفال ، بل لعلى ذهبت فى ذلك أبعد من سواى ؛ وكان أول ما أيقظ شعورى قصص قرائتها مع أبى ؛ وحدث أحياناً أن ظللنا نقرأ معا حتى مطلع النهار ؛ فما بلغت السابعة حتى فرغنا من قراءة كل ما احتوت عليه خزانة أمى من قصص قديمة ، وارتدنا إلى « بوسويه » و « موليير » و « بولتارك » و « أوغد » وأضرابهم ؛ وأبعدتنى قراءة « بولتارك » عن القصص ؛ فتراجعه هى التى نفثت فى هذه الروح الحرة الديمقراطية التى لا تصبر على الاستعباد الذى أرق جنبي ؛ وأنا مدين لعمتى التى كانت تحفظ ما لا حصر له من الأغاني ، وتغنيها بصوت حلو رخم ؛ أنا مدين لها بعاطفتى نحو الموسيقى ؛ فهذه كانت أول ما تعلق به جبي ؛ تلك هى العوامل التى كونت لى هذا القلب الذى أسرف فى كبرياته ، ولكنه مع ذلك قلب شديد الإحساس ؛ هذه العوامل صاغت لى هذه الشخصية الخنثة التى هى رغم ذلك جموح لا تسلس القياد ؛ وقد ظلت بهذه الشخصية أندفع إلى مواقف الضعف مرة وإلى مواضع الفضيلة مرة أخرى ؛ فقد كنت من التناقض مع نفسى بحيث أفلتت منى اللذة والحكمة فى آن معا ، فلا أنا بالذى عفت عن المتعة ولا بالذى نعم باللذة . . . . »

وأما كتاب « جولى أو هلويز الجديدة » فهو سلسلة من خطابات تبدأ بقصة عن حب آثم وتنتهى برسالة فى التهذيب ؛ وروسو فى هذا الكتاب مدين للقصصى الإنجليزى « رتشرسُن » فى قصته « كلارسا » من حيث الطريقة والنفعة الخلقية التى تسود الكتاب ، لكن الكاتب الفرنسى يكتب بماطفة لا تدنو منها عاطفة زميله الإنجليزى .

و « العقد الاجتماعى » كتاب يختلف عن السابقين ، فهو رسالة فى مبادئ الحكومة والمجتمع ، كتبت بالأسلوب العلمى المحكم الدقيق ؛ ولكن اتباع الكاتب للأسلوب المنطقى فى كتابه هذا لم يمنع أن يحىء الكتاب بعيدا عن الحقائق التاريخية ، ساجحا فى الخيال ، ومع ذلك فقد كان « للعقد الاجتماعى » أثر قوى فى عصر اضطربت فيه الأمور السياسية ، بحيث اتخذ رجال الثورة بعدئذ انجيلا يهتدون به ويستمدون منه للمبادئ ؛ وروسو فى هذا الكتاب مؤمن بأن الإنسان خير بطبعه وإنما أفسده نظام المجتمع ، ومن رأيه أن يضحي الفرد بمصلحته فى سبيل الصالح العام ، لأن الغاية المنشودة عنده هى « أعظم خير لأكبر مجموعة من الناس » ؛ وهو يريد بالإنسان الرجوع إلى الحالة الفطرية الأولى التى كانت قائمة قبل أن يفسد الإنسان بالحضارة الدخيلة الطارئة ؛ وهو من جهة أخرى يتمنى العودة إلى الماضى الجيد الذى يتمثل فى اليونان والرومان ، فقد بهر روسو ذلك الماضى العظيم ، وصوره لنفسه أعظم مما تميز له حقائق التاريخ ، ولكن ماله وللحقيقة التاريخية ! إنه كاتب يستلهم العاطفة ليثير النفوس ويحفزها على النهوض .

هذه العقيدة التى آمن بها إيماناً قويا — وهى أن الإنسان ولد نقياً لا يشوبه شر — أدت به إلى رأى فى التربية بسطه فى كتاب قريب فى سياقه من القصة . وهو « إميل » ومحور رأى فيه هو أن الطفل ينبغى أن يترك حراً من كل قيد إبان نشأته ، فلا يغله معلموه بما يملأ رؤوس الكبار من ترهات وأباطيل ؛ وحسب هذا الكتاب قيمة أنه ما يزال عمدة بين المراجع عند علماء التربية ؛ ولهذا الكتاب قيمة أخرى ، وهى أن روسو يعرض فيه مذهبه الدينى ؛ فهو معتقد بوجود الله ، لكنه يرى أن طريقة البرهنة على وجوده لا تكون بالحجج العلمية العقلية ، بل بالحُسد واللقانة ، باحساس من القاب لا يفهم العقل كنهه .

يستهل روسو كتاب إميل بقوله : « إن كل شئ يكون خيراً حين تخرجه يدا خالق



الأشياء ، ثم يفسد كل شيء بين يدي الإنسان ؛ وفي هذه العبارة تتلخص فلسفة روسو التي قوامها التفرقة بين ما هو طبيعي وما هو صناعي ، بين الإنسان الطبيعي كما أرادت له الطبيعة أن يكون ، وبين الإنسان المتحضر الذي أفسده المجتمع ؛ إن كل ما هو طبيعي خير ، وكل انحراف عن الطبيعة شر ؛ ولهذا فالحضارة الإنسانية غلطة كبرى ، لا تتخلص منها بغير العودة إلى أحضان الطبيعة ؛ وليس يخفى ما في هذا القول من دعوة صريحة للديمقراطية ، لأنه يمزق لفائف الحضارة عن وجه الإنسان ليخرج العنصر الإنساني من تلك الأكفان فيبدو تحت ضوء الشمس واحدا متشابها في الناس جميعا ، لا فرق بين متعلم وجاهل ، ولا بين شريف وعامل ؛ وهو بهذه الدعوة أيضا يمهّد للمذهب الابتداعي في الأدب ، يمهّد له بحبه للطبيعة وباعتداده بالفرد وشخصيته ، ويمهّد له بجدّة عاطفته وبأدبه الذاتي الذي يُخرج فيه مكنون نفسه .

### ( ب ) الشعر :

كاد الشعر يخبثق في فرنسا في القرن الثامن عشر ، للقيود الثقيلة التي فرضها « بوالو » والتي ما كان لينجو من أثرها غير النوابع ، وللتزعة العقلية التي سادت في فرنسا إبان ذلك القرن ، وإن سيطر منطق العقل نصب معين الشعر ؛ نعم قد تستطيع أن تسمي في ذلك العصر طائفة كبيرة من الشعراء الذين غرر نتاجهم وتنوع ؛ ولكنهم كانوا ينشدون الشعر عن غير طبع وفي صورة آلية ، فهو كلام منظوم لا روح فيه ، اللهم إلا قليلا جدا مما قيل . ونبدأ قائمة هؤلاء الشعراء بقولتي الذي عرفناه نائرا عظيما ، وشعره — كثره — متنوع مختلف الألوان ، فله ملحمة « هنرياد » التي كان يطمح أن يجاري بها الملاحم العظيمة وهي مقسمة عشرة أقسام ، وموضوعها الحروب الدينية وبطلها هنري الرابع ؛ وهذه القصيدة الكبيرة في مجموعها لا تخرج عن هجوم عنيف يتجه به الشاعر نحو التعصب والهوس الديني والخرافة ، وتمجيد للتسامح وحرية الفكر . أما من حيث طريقة الأداء فهو يحذو حذو الملاحم القديمة ، ولا سيما ملحمة الانياذة ؛ فكما أن « إنياس » أخذ يقص قصته الملكة « دينو » ملكة القرطاجنيين فهكذا أخذ هنري يروي أخباره للملكة اليصابات وكما أن إنياس أوحى إليه الله بما سيؤول إليه أمر شعبه في المستقبل ، فكذلك هنري .

لكن أين ملحمة «هنرياد» في ضعف خيالها وبرودة أسلوبها من الملاح القديمة الكبرى؟ ومما زادها ضعفا أنه لم يُرد أن يختار العوامل الروحية في الملحمة وجوّها الشعري من اللاهوت المسيحي، لأن هذه من القواعد التي حرمها «بوالو»، ولم يستطع من جهة أخرى أن يجعل ذلك الجوّ الشعري يونانيا أو رومانيا ولا أن يستمد عناصرها الروحانية كالألهة وغيرهم من الأساطير اليونانية والرومانية، لأن ذلك لا يناسب موضوعا مختارا من التاريخ الحديث، ولكن لابد الملحمة — جريا على العرف الأدبي — أن يكون لها جوّ روحاني أسطوري خيالي تجري فيه الحوادث؛ فعمد فولتير إلى تجسيد المعاني لتسكون له بمثابة الأشخاص الأسطورية: «فالساسة» و«التعصب» و«الرحمة» وما إلى ذلك تكتب بأحرف كبيرة وتعامل معاملة الأشخاص؛ لكن أمثال هذه المعاني المجسدة تعوزها الحياة التي تنكسب القصيدة حرارة؛ غير أن ملحمة «هنرياد» إلى جانب عيوبها تمتاز بحسن السياق التاريخي ووضوحه، والوصف في بعض مواضعها قوى ناصع، مثل وصفه لمذبحة سنت بارثولوميوي في الجزء الثاني، وحصار باريس في الجزء الرابع.

ومهما يكن من أمر، فشاعرنا تتم له البراعة إذا ما كان موضوع القصيدة فلسفيا، مثل قصيدة «حديث عن الإنسان»<sup>(١)</sup> و«كارثة لشبونة» و«القانون الطبيعي»، وهو كذلك مُجيد في بعض رسائله المنظومة مثل «رسالة إلى بوالو» و«رسالة إلى هوراس» وفي قصائده الهجائية الساخرة مثل «المسكين»<sup>(٢)</sup>؛ وله فوق ذلك قصائد قصيرة كثيرة قبلت في مناسبات مختلفة، لا يخلو كثير منها من روعة الخيال وجمال الأسلوب.

ولم يشهد القرن الثامن عشر في الشعر الغنائي إلا شاعرا واحدا هو جان بابتيست روسو<sup>(٣)</sup> (١٦٧٠ — ١٧٤١) الذي ليس بينه وبين سميّه العظيم «جان چاك روسو» علاقة سوى أن كليهما عانى في حياته البؤس والشقاء؛ فقد كان شاعرنا هذا ابن حذاء في باريس، وشاب في شبابه بوالو في مذهبه؛ ولم يكد يبدأ في بناء مجده الأدبي حتى اتهم بالاعتداء على غيره في بعض قصائده وحكم عليه بالنفي من فرنسا، حيث قضى بقية عمره بعيداً عن بلاده؛ ولم يكن «روسو» هذا من شعراء الطراز الأول المجيدين، وحسبك أن

• Le Pauvre Diable (٢)

• Discours sur l'Homme (١)

• Jean Baptiste Rousseau (٣)



تعلم أن الناس في عصره أوشكوا أن يبايعوه أميراً للشعر الغنائى لتعلم إلى أى حد رضى الناس من موهبة الشعر بالنز القليل ، ومع ذلك فالأدب مدين له بالحفاظة على شعلة الشعر الغنائى حية حتى أسعفتها الحركة الابتداعية الجديدة في مستهل القرن التاسع عشر .

ولعل الشعر التهذيبي أن يكون أكثر ملاءمة لروح العصر الذى سادته التفكير العقلى . وظهر من شعراء التهذيب الخلقى فريق أجادوا الحكمة وفاتهم الشعر فيما نظموا ، منهم «لويس راسين»<sup>(١)</sup> — أصغر أبناء السكاتب المسرحى المعروف — وأهم قصائده «العقيدة الدينية»<sup>(٢)</sup> وهى تذكر لما فيها من ورع وتقوى لا جودة شعرها ؛ وشعر الهجاء قريب الشبه بشعر التهذيب ، لأنه تهذيب سلبى يبين عيوب المهجو ؛ فظهر من شعراء الهجاء «جلبير»<sup>(٣)</sup> (١٧٥١ — ١٧٨٠) الذى ربما انتهى إلى تجويد الشعر لولا أن باغته المنية شابا ، وهو عدو لدود لجماعة الفلاسفة ، وهاجهم بقصيدتين ساخرتين إحداهما «القرن الثامن عشر» والثانية «دفاعى»<sup>(٤)</sup> .

\*\*\*

وكان الأدب الانجليزى قد أثر فى بعض الشعراء الفرنسيين فمال بهم إلى الشعر الوصفى فأنشأ «سانت لامبير»<sup>(٥)</sup> قصيدة «الفصول» تقليداً لـ «فصول» الشاعر الانجليزى «تومسن» ، لكن الشاعر الفرنسى قد زميله فى أسوأ نواحيه — فى تضخيمه اللفظى وخروجه عن مجرى القصيدة ليقول درسا تهذيبيا — ولم يستطع أن يجاريه فى خبرته بالطبيعة وحسه المرهف إزاءها ؛ ومع ذلك فقد لقيت قصيدة «الفصول» إعجابا عند طائفة الفلاسفة ، حتى قال عنها فولتير إنها القصيدة الوحيدة من إنتاج العصر ، التى ستبقى على الأيام للأجيال المقبلة .

ونذكر كذلك من الشعر الوصفى قصيدة «الشهور» للشاعر «روشي»<sup>(٦)</sup> (١٧٤٥ — ٩٤) ؛ ثم «الحقائق» و «رجل الحقول» و «ممالك الطبيعة الثلاث»

. La Religion (٢)

. Louis Racine (١٨٩٢ — ١٦٦٣) (١)

. Gilbert (٣) . mon Apologie (٤)

. Roucher (٦)

. Saint-Lambert (١٧١٦ — ١٨٠٣) (٥)

للشاعر «چاك دليل»<sup>(١)</sup> (١٧٣٨ — ١٨١٣) وهو مترجم «أشعار الحقول» عن فيرجيل و «الفردوس المفقود» من «ملتن»، ولكن كل هذه القصائد خالية من الروح والعاطفة . وربما كان أجدر بالذكر من شعراء التهذيب وشعراء الوصف الذين أسلفنا ذكرهم ، شاعران كانا ينظمان شعرا فكهما خفيفا ، هما «جرسييه»<sup>(٢)</sup> و «فلوريان»<sup>(٣)</sup> . وللثاني منهما «حكايات خرافية» على غرار حكايات لافونتين الخرافية ، لكنها بالطبع لا تدنو منها جودة وأصالة طبع ؛ ولا يشبه «فلوريان» سلفه العظيم في دقة علمه بالحيوان ، ونفاذ بصره إلى صميم نفس الإنسان ، وعلى كل حال فحكايات «فلوريان» لا تخلو من جمال ، فالشاعر بارع في سوق القصة ، ماهر في النظم السلس المستساغ .

\*\*\*

ونحتم حديثنا عن الشعراء بشاعر جاء في ختام القرن ، فكأنما جاء ليبشر بمصر جديد قادم ينهض فيه الشعر من العقم والجود الذين أصيب بهما طوال القرن الثامن عشر كما رأيت ؛ وذلك الشاعر هو «أندريه شينييه»<sup>(٤)</sup> (١٧٦٢ — ١٧٩٤) الذي ولد في القسطنطينية حيث كان أبوه قنصل فرنسا العام ، وهناك تزوج الوالد من امرأة يونانية بارعة الجمال كاملة التهذيب ، هي أم الشاعر ؛ وقد انتقل «أندريه» إلى باريس وهو لم يزل طفلا فدخل كلية ناغار في باريس ؛ ولما تخرج فيها التحق بالجيش ، لكنه سرعان ما ترك الحياة العسكرية كارها لها ، وأخذ يجول في أوروبا الجنوبية بضع سنين ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث كان لأمه «صالون» أدبي ، فكان هذا الصالون حلقة اتصال بين «شينييه» وبين كثير من رجال الفن والشعراء والفلاسفة ؛ وعين كاتما للسرمدي ثلاثة أعوام للسفارة الفرنسية في لندن ، لكنه كره إنجلترا والشعب الإنجليزي ، ولم يكن لإقامته بتلك البلاد أثر فيه كالذي أحدثته في عظماء أسلافه : فولتير وروسو وغيرها . ولما عاد إلى بلاده انغمس في تيار السياسة واشتغل بالصحافة ؛ فأيد الثورة في أولى مراحلها ، لكنه لم يلبث أن ازور عنها لسياسية اليقويبين المتطرفة ، فأدى ذلك إلى موته تحت المصقلة . ويظهر من آثار «شينييه» التي لم تنشر إلا بعد موته ، أنه كان يجاهد في سبيل

. Gresset (٢)

. Jacques Delille (١)

. André Chénier (٤)

. Florian (٣)



الخلاص من ربة القيود الصارمة التي فرضها أشباه الاتباعيين على أنفسهم فقصوا بها على  
فهم ، فهو في « مراثيه »<sup>(١)</sup> يحاكي شعراء الرومان الأقدمين « تيلس » و « بروتيموس »  
و « أوفد » ؛ و « ريفياته »<sup>(٢)</sup> زاخرة بما استقاه من الأدب اليوناني ، خذ مثالا لذلك  
قصيدة « الأعمى »<sup>(٣)</sup> التي يجعل هومر فيها يغني لطائفة من الرعاة ، وقصيدة « السائل »<sup>(٤)</sup>  
التي يقص فيها سائل جوال مغامراته لرجل أضافه ، فتبين له أن مضيفه هو ابنه ، ففي  
أمثال هذه القصائد تراه يستعير المادة من الأدب اليوناني ويمسها بخياله الشعري فيخرجها  
شعراً صادقاً ؛ تلك كانت أولى مراحلها في الشعر التي اعتمد فيها على الآداب القديمة  
اليونانية والرومانية على السواء ؛ ثم أخذ يطمح إلى نوع جديد من الشعر ، جديد في  
موضوعه وغايته ، وإن اتبع الأصول الفنية عند الأقدمين : « هيا نبذل » — في استخراج  
رقيقنا — زهرات لهم ( أي للأقدمين ) طالت عهدا ؛ وحسبنا أن نستعير منهم الأصباغ  
في تصوير فكرنا ؛ هيا نضئ مشاعلنا من شعلة أشعارهم ، فنصوغ شعراً قديماً للتعبير عن  
فكرنا الجديد » في هذه العبارة رسم خطته الجديدة التي تمنى أن يسير على منهاجها ،  
وكان لا بد له أن يفعل لو امتد به الأجل ، وقد بدأ فعلاً يحاول تحقيق أمله بأن يعبر عن  
فلسفة عصره وما ساد في أيامه من مختلف العلوم في شعر يلتزم قواعد الشعر القديم .

هكذا جاء « شينييه » حلقة تصل القديم والجديد ؛ شعره مزيج من هذا وذاك ،  
ولكن ما زالت الصبغة الاتباعية أبرز طابع يميزه ؛ فهو يوناني العاطفة والمزاج ، ولعله  
استمد ذلك من أمه اليونانية ، ثم أضاف إلى الطبع والسليقة تحصيلاً من الأدب اليوناني  
إذ أخذ يغذي فطرته بمدد من هومر وغيره من تراث اليونان ؛ فتعاون الدم اليوناني الذي  
يجري في عروقه مع الاستعداد الفطري الذي مال به نحو الأدب اليوناني ؛ ثم أضيف إلى  
هذين العاملين دراسة متصلة لما خلف اليونان ، فأنتج هذا كله شاعراً فيه العنصر اليوناني  
ملىء بالحياة ، ولم يكن كسائر معاصريه من أشباه الاتباعيين يسلكون في أشعارهم  
الأصول القديمة جامدة ميتة . ولا غرابة أن يعد « شينييه » بداية للعصر الابتداعي في

الأدب لما تراه في شعره من صور حية ناصعة ، وأسلوب واضح مبين يبرز لك المعاني  
إبرازاً حتى لتكاد تلمسها وتراها .

وهذا مثال من شعره :

إلى فتاة تارنتو

لقد ماتت « ميرتو » فتاة تارنتو !

أخذتها السفينة إلى شواطئ « كامارين » . . . . .

وقد غلق مفتاح الحِزْصِ — من أجل يوم العُرس —

خَشَبَ الأرز على ثوب الزفاف

وعلى ذهب كان ليزين ذراعيها

وعطور أعدت لشعرها الأشقر ؛

لكن ، وهي وحدها عند حيزوم السفينة تبتهل إلى النجوم

لَقَّتْها الرياحُ الهوجُ التي انتفخ بها الشراع ،

فصاحت جازعةً ، وهي على مبعدة من البحارة ،

ثم هَوَّتْ بين أحضان الموج ،

لقد أُمْسَتْ بين أحضان الموج فتاة تارنتو !

وطَوَّتْ موجة البحر جسدها الجميل

فاغرورقت من « ربة البحر » عيناها — وهي في جوف صخرتها —

فجاهدت أن تُخْفِيَ الجسدَ الجميلَ عن سباع البحر الضارية ،

فأَمَرَتْ فرفعتها عرائس البحر الفاتنة من فورها فوق هام الماء ،

وحَمَلْنَهُ إلى الشاطئ . . . . ثم نادى رفيقاتهن من بُعْدٍ بصرخات داوية

وظفقت عرائس الغابِ وعيونِ الماءِ والجبالِ

تضرب صدورها وقد جلاها الحداد

مرددةً — واحسرتها — حول قبرها :

واأسفا ! إلى حبيبك لم ترجعي



وثوب عرسك لم ترتده  
وحول ذراعيك أساور الذهب لم تُعقد  
وفي شعرك لم يفتح ذكي العطور

( ح ) الأدب المصري :

١ — المأساة :

تدهور الشعر في القرن الثامن عشر — كما رأيت — فتدهورت معه المأساة ؛ وكان انحطاطها — في رأى ديدرو — نتيجة للقيود الثقيلة والتقاليد الباهظة التي فرضت عليها فأعجزتها عن النهوض والسير ؛ فأصبحت المأساة شيئاً ألياً تراعى فيه مجموعة معينة من القواعد والقوانين ، وتعالج فيها الموضوعات القديمة بعينها ، بأشخاصها ودوافعها ومواقفها ، دون أن تعباً بحقيقة نفسية تصورهما ، أو طبيعة تعكسها في مرآتها ؛ فعلى كثرة مَنْ كتب المأسى في القرن الثامن عشر ، لا تكاد تجد بينهم كاتباً يستوقفك بابتكاره ، ويسترعيك بجودته ؛ بل لولا كاتبان فيه أجادا في كتابة المأساة بعض الجودة ، لما ترددنا في الحكم على ذلك القرن بالنضوب التام في ذلك الفن من فنون الأدب ، ونريد بهذين الكاتبين : « كريبون » و « فولتير » .

أما « كريبون »<sup>(١)</sup> (١٦٧٤ — ١٧٦٢) فقد ذاع صوته بين الناس في سن باكراً ، ثم خفت ذلك الصوت فغمره النسيان حتى فارق الحياة ؛ وله عبارة مشهورة تاقى ضوءاً على فنه في المأساة ، قال : « أخذ كورنى الأرض ورأسين السماء فبقيت لى الجحيم » ، وقد تكون عبارة منجولة عليه ، ولكنها على كل حال تصف ما آسبه التى أراد بها أن يثير في نظارته الرعب أكثر مما يثير فيهم الإعجاب والإشفاق ، ومن هنا تراه يعالج في رواياته أحد العواطف وأفظع الجرائم ؛ منها : « أترى وثيئت »<sup>(٢)</sup> و « السكترا »<sup>(٣)</sup> و « رادميست وزنوبى »<sup>(٤)</sup> . وهو يعلوف أسلوبه آناً ويهبط آناً ، وكثيراً ما يكون ثقيلاً على النفس ،

١ Électre (٣)

٢ Atrée et Thyeste

٣ Crébillon

٤ Rhadamiste et Zénobie

وقد تغمّض معانيه في بعض المواضع ؛ والجو السائد في رواياته مكفهر كئيب ، ومع ذلك كله فهو جيّد بارع في فنه التمثيلي في بعض ما كتب .

ومهما يكن من أمر فقد أفل نجمه أمام كاتب سيطر على فن المأساة كما سيطر على سائر ميادين الأدب ؛ واستطاع وحده أن يحتفظ بتقاليد القرن السابع عشر وأوضاعه ، حتى دنا القرن الثامن عشر من ختامه ؛ ذلك هو فولتير الذي أخرج عددا من المآسي يقرب من خمس عشرة ، بدأها برواية « أوديب » وختمها « بأيرين »<sup>(١)</sup> ، ومنها « بروتس » و « زائير »<sup>(٢)</sup> و « محمد » و « تانكريد » و « ميروپ »<sup>(٣)</sup> ؛ وقد وضعه معاصروه في صف كورنى وراسين ، بل زعموا أنه جمع في فنه محاسن الرجلين ؛ لكن رجال النقد الحديث لا يضعونه في هذه المسكاة العالية ، وينسكرون عليه قوة كورنى ، ونفاذ بصيرة راسين ؛ فلئن برع فولتير وأجاد في بناء الرواية التمثيلية وسياقها فقد فاتته الروعة في تصوير الأشخاص ، والقدرة على تحليل نفوسهم تحليلا عميقا يغوص إلى أغوارها .

وعلى كل حال فلما أساته مكانة هامة في تطور المأساة ؛ فعلى الرغم من تمسك فولتير بقواعد المأساة الاتباعية كما وضعها أسلافه في القرن السابع عشر تمسكا نظريا فهو من الوجهة العملية قد خرج على تلك القواعد بعض الخروج متأثرا بشكسبير ، لا سيما في توسيعه لنطاق المأساة بحيث يشمل موضوعات لم تكن تقرها قواعد الاتباع من قبل ؛ فقد كان يشترط أن تستمد المأساة موضوعها من أصول يونانية ورومانية ، وأن يكون للأشخاص أسماء يونانية ولاينية ؛ فاتبع فولتير هذا العرف في بعض رواياته مثل « بروتس » و « موت قيصر » و « ميروپ » لكنه خرج عليه في روايات أخرى ، فهو ينقلك إلى « تانكريد » إلى عالم الفروسية في العصور الوسطى ، وفي « محمد » و « زائير » ينقلك إلى بلاد الشرق وهكذا ؛ بل إنه حتى في رواياته الاتباعية الخالصة تراه خارجا بعض الخروج على أسلافه ممهدا السبيل للحركة الابتداعية القادمة ، فقد كان أسلافه في المأساة لا يلتفتون إلى تصوير الجو المحيط بهم في عصرهم ، ويحاولون أن تظهر رواياتهم في جو يوناني أو روماني حسب الموضوع المختار . أما فولتير فقد عني بما أهمله هؤلاء الأسلاف ، مثال ذلك أنه أصر



على أن يظهر « بروتس » في ثياب فرنسية تمثل الثياب السائدة في القرن الثامن عشر .

## ٢ — الملهاة :

سارت ملهاة النصف الأول من القرن الثامن عشر على قواعد زعيم الملهاة « موليير » وأهم وأجود ما ظهر إذ ذاك من الملاهى ، رواية « تيركاريه »<sup>(١)</sup> لـ « لى ساچ »<sup>(٢)</sup> الذى سجد ذلك عنه بعد قليل قصصيا بارعا ، فلو لم يكتب قصته المشهورة « جيل بلاس »<sup>(٣)</sup> لخلدته ملهاته تلك التى يسخر فيها سخرية جميلة من طبقة محدثة من رجال المال والأعمال ، ويعرض لأساليبهم وأخلاقيهم فيبين مواضع الضعف فيها بتهكمه الظريف .

وكتب الملهاة كاتب آخر سمنصادفه مع « لى ساچ » بين رجال القصة ، وهو « ماريثو »<sup>(٤)</sup> ( ١٦٨٨ — ١٧٦٣ ) ، وبدأت الملهاة بفضل طريقا جديدا ، بأن أخذت توجه مجهودها نحو دقة التحليل النفسى ؛ وتختار « الحب » موضوعا لها ؛ وموضع التجديد هنا هو أنه اتخذ عاطفة الحب موضوعا للتحليل ، بدل أن يجعلها — كما فعل السابقون — عنصرا بين سائر العناصر التى تتكون منها حوادث الرواية ؛ وهو يعالج الحب فى ألوانه المختلفة : الحب حين لا يشعر بوجوده العاشقان ، والحب حين يشعران به ويخفيانه ، والحب الذى لا يجرؤ على إعلان نفسه ، والحب حين يكون موضع شك وريبة ؛ فهو باتخاذ تحليل الحب موضوعا لملاهته ، كان شبيها براسين الذى اتخذ تحليل الحب موضوعا لمأساته ، ومن ملاحيه : « لى هو الحب والمصادفة »<sup>(٥)</sup> و « الاعترافات الزائفة »<sup>(٦)</sup> و « المخلصون »<sup>(٧)</sup> و « المحبة »<sup>(٨)</sup> .

كان « ماريثو » عاملا على تطور الملهاة نحو ما يسمى « الملهاة الباكية »<sup>(٩)</sup> — وهى شبيهة بضرب من الملهاة شاع فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر أيضا ، ويسمى هناك بالملاهة العاطفية — والملاهة الباكية تستدر عبرات النظارة بأن تعرض عليهم حياة اناس الخاصة بما فيها من فضائل ومآتانيه من آلام ، أكثر مما تستثير ضحكاتهم بأن تعرض عليهم تلك

(١) Turcaret . (٢) Le Sage . (٣) Gil Blas .

(٤) marivaux . (٥) Le Jeu de l'Amour et du Hazard .

(٦) Les Fausses Confidences . (٧) Les Sincères .

(٨) L'Epreuve . (٩) Comédie Larmoyante .

الحياة الخاصة بما فيها من حماقة وسخف ؛ أو هي بعبارة أخرى تضع مأساة في إطار ملهامة ؛ ولما كانت « الملهامة الباكية » تخالف طبائع الأشياء فقد ظهرت حركة تقاومها ، وعلى رأسها « بومارشيه »<sup>(١)</sup> (١٧٣٢ — ١٧٩٩) الذي حاول أن يعيد للملهامة ضحكاتها الخالصة التي تنبعث من قلوب خليّة مرحة كما كانت عند مولير ، وذلك بملهاتيه الساخرتين الرائعتين « حلاق اشبيلية »<sup>(٢)</sup> و « زواج فيجارو »<sup>(٣)</sup> .

وذكر « الملهامة الباكية » التي تمزج بين عنصرى المأساة والملهامة معا يؤدي بنا إلى الحديث عن « المأساة البورجوازية » أو « الدراما » كما أطلق عليها ، وهي ضرب من المسرحية ظهر في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ؛ فلعلك تذكر أن أصحاب المذهب الاتباعي لم يجيزوا قط أن تختلط ألوان الأدب بعضها ببعض ، فلا يجوز لمأساة أن تقبل عنصرا من عناصر الملهامة . والمأساة عندهم شرطها أن تكون أرستقراطية في موضوعها ، فتعالج مصرا لعظيم ، وتعرض أشخاصا فوق المستوى المألوف من عباد الله ؛ وأما الملهامة فشرطها عندهم أن تعالج مضحكات مأخوذة من حياة الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا ؛ وكان طبيعيا في عصر أخذت روح الديمقراطية تظهر فيه وتزداد أن يثور الأدباء على هذه الأوضاع الأدبية التي تفرق بين الطبقات ؛ وقد رأينا بداية هذه الثورة في « الملهامة الباكية » ، حين حاولت أن تطمس الفوارق بين المأساة والملهامة ؛ ثم أخذ رجال الأدب يتساءلون : فيم هذه التفرقة ؟ لماذا لا تتخذ حياة الطبقة المتوسطة إلا موضوعا للهو والفكاهة ؟ لماذا لا تكون كوارث هذه الطبقة من الناس مصدرا للأسى لا يقل في خبيثته عما تحدثه كوارث عظماء التاريخ القديم وأشخاص الأساطير ؟ لا بد إذن من أن يُفَسَّح في مجال المأساة ليمتسح « للمأساة الشعبية » إلى جانب « المأساة الحماسية » المألوفة ؛ واثن أعوز هذه المأساة الشعبية ما في زميلتها « الحماسية » من أبهة وجلال ، فسيعوض عن هذا النقص قربها من الحق الواقع وعمق أثرها في تقويم الأخلاق .

كان هذا — كما ذكرنا — نتيجة لازمة للتطور السياسي في القرن الثامن عشر الذي كان يسير نحو الديمقراطية ، ونحو ثورة الشعب على التفاوت القائم ، بخطوات سراع ،

(١) Beaumarchais (٢) Le Barbier de Seville

(٣) Le Mariage de Figaro



لكنه كان كذلك نتيجة مباشرة لروايات انتقلت من الأدب الإنجليزي إلى فرنسا ؛ فقد ترجمت رواية « اللو » « تاجر لندن ، أو تاريخ جورج بارنول » <sup>(١)</sup> ورواية « المقامر » <sup>(٢)</sup> لإدوردمور ؛ ولم تكن هاتان الروايتان تنقلان إلى الفرنسية حتى امتدحهما النقاد وقلدها الكتاب وتحمس لها الشعب ؛ وأصبحتا نموذجا يحتذى كل من أراد السير على المنهاج الجديد ، وما هذا المنهاج الجديد سوى « المأساة البورجوازية » ( وقد تسمى « الدراما » فقط ) التي تستمد عناصر المأساة من الحياة المنزلية المألوفة عند أوساط الناس ، والتي تنوخي الصدق في الوصف والتصوير .

وأعظم رجال « المأساة البورجوازية » — إذا قيست العظمة بعمق الأثر — هو « ديدرو » في مآساتيه النثرية « الابن الطبيعي » <sup>(٣)</sup> و « رب الأسرة » <sup>(٤)</sup> ولو أنه لم يوفق في تأليفهما ؛ وكان « سيدن » <sup>(٥)</sup> ( ١٧١٩ — ١٧٩٧ ) أقرب منه إلى التوفيق في رواية « فيلسوف وهولا يدرى » <sup>(٦)</sup> ، ويعد « سيدن » طليعة القرن التاسع عشر في هذا اللون من الأدب المسرحي .

#### ( ٥ ) الفصل :

كثيراً ما يتشابه مجرى الأمور في الأمم المختلفة ؛ ففي إنجلترا في القرن الثامن عشر ، أخرج الكاتب المسرحي « اللو » — الذي سلف ذكره في الكلمة الماضية — روايته « التاجر اللندني » محاولاً بها أن يضع أساساً لنوع جديد من المأساة يُعالج شؤون الطبقة الوسطى في حياتهم الخاصة ، وأخرج الكاتب القصصى « رتشردسن » قصة « باملا » يقصد بها إلى الغاية نفسها فجاء المجهودان في وقت واحد ، يشدا أحدهما أزر أخيه ؛ وكذلك حدث في فرنسا أن اتجهت جهود الأدباء نحو تحويل المسرحية والقصة في هذا الاتجاه الجديد في آن معاً ؛ فالمسرحية الجديدة والقصة الجديدة كلتاهما أريداً بها أن تصور الحياة الجارية لسواد الناس ؛ وكانت كلتاهما نتيجة لتطور الحركة الديمقراطية واتساعها .

(١) London merchant or the History of George Brnwell, by Lillo

(٢) The Gawester, by Edward moore

(٣) Le Fils Naturel (٤) Le Père de Famille

(٥) Sedaine (٦) Philosopie sans le savoir

## لى ساچ Le Sage (١٦٦٨ — ١٧٤٧) :

هو أول من يصادفك بين رجال القصة من الفرنسيين ؛ درس القانون والتحق بسلك القضاء ؛ لكنه عجز القضاء لينصرف إلى الأدب ، وابتث حتى نهاية حياته معتمداً في عيشه على قلمه ؛ وقصته التي خلده هي « جيل بلاس »<sup>(١)</sup> وبطلها طالب فرنسي شاب يدعى « أوڤيدو »<sup>(٢)</sup> ، قصد إلى جامعة « سالامانكا » ليتم دراسته ، وبينما هو في طريقه أطبق عليه الاصوص ، لكنه استطاع أن يلوذ بالفرار وتقلب به الحياة ، فهو آنأ يخدم الكنيسة ، وآنأ يعاون طبيياً ، وطورا يتصل بالمرح ، وبعد أن دارت به عجلة الحظ صعدواً وهبوطاً ، عرفه رئيس الوزراء فوثق به وجعله كاتباً لسره ، وجمع ثروة عريضة وسلطاناً قوياً ، لكن عجلة الحظ عادت فهبطت به من جديد وطوخته أسفل سافلين ، ثم صدمت به مرة أخرى واستعاد سابق مجده إذ عينه أحد الأشراف كاتباً لسره ؛ وانتهى به الأمر أن تزوج للمرة الثانية وأوى إلى قصره حيث قضى بقية عمره في هدوء وسعادة ... وحوادث الرواية — كما ترى — مفككة لا حبكة فيها ولا وحدة ولا منطق يضبط تتابعها ، فالمغامرات يعقب بعضها بعضاً كما اتفق ، بغير خطة مرسومة مدبرة ، وكثيراً ما يستطرد الكاتب في قصص فرعية لا تربطها بمجرى الحوادث الرئيسى رابطة قوية ؛ وإن شئت فقل إن « جيل بلاس » مجموعة من القصص سيمت واحدة تتبع واحدة ، دون أن تتصل هذه الخرزات بنحيط واحد لتصبح عقداً موصولاً ، لكن انتقال البطل في أوساط مختلفة ، بحيث يخالط أدناها ويعاشر أرقاها ، هياً للكاتب فرصة نادرة ليصور أخلاق عصره على اختلاف ألوانها ؛ وساعد الكاتب على حسن التصوير دقة ملاحظته التي لم تفلت منها دقيقة ولا جلييلة من شئون الحياة في كافة ضروبها ، وكذلك براعته في تحليل الأشخاص حتى ليضرب ببعض أشخاص قصته المثل في جودة التحليل والعرض — مثل شخصية الدكتور سانجرادو —<sup>(٣)</sup> والتحليل عند « لى ساچ » لا يتميز بالعمق ولكنه يتصف بالصدق ومطابقة الواقع ؛ وهو في قصته ساخر يهزأ بالتحليل الخلقى الذي أصاب



عصره الذى بصوره ، لـسكنها سخرية عفيفة لم تزل مرة فى حجر القول وخشه ، حتى لقد نقده تلميذه « سموات » — القصصى الإنجليزى الذى سنوى لك نبأه فى الفصل القادم — بقوله إنه كان أرفق مما يذبحى بحماقات الإنسان وسيئاته .

\*\*\*

ونذكر من أصحاب القصة فى ذلك العصر أيضاً « ماريثو » الذى أسلفناه كاتباً مسرحياً مجدداً فى فن الملهاة ؛ وقصته المشهورتان — وكلماتها ناقصتان — هما « حياة ماريان »<sup>(١)</sup> « والفلاح المحدث »<sup>(٢)</sup> ؛ أما الأولى فذكرات على لسان نبيلة تسجل فيها تاريخ حياتها من طفولتها حتى يومها الراهن ؛ وأما الثانية فقصة فلاح شاب يدعى « يعقوب » يهجر قريته فى سن الثامنة عشرة ليلتمس الثراء فى باريس ؛ وهاتان القصتان شبهتان بقصة « چيل بلاس » فى تفكك الأجزاء وتتابع المغامرات وتلاحق صور الحياة المختلفة الألوان والوجوه ؛ لـسكن « ماريثو » أقرب إلى تصوير الواقع من « لى ساج » ؛ فبدل أن يقص الحوادث فى جو أسبانى ويخلع على أشخاصه ثياباً أسبانية وأسماء أسبانية ليخفى وراءها رجاله ونساءه من الفرنسيين ، كما فعل « لى ساج » ، ترى « ماريثو » يتحدثك عن رجال فرنسيين ونساء فرنسيات فى غير تفكر ولا إخفاء ، ويعرض لك أشخاصه فى جو فرنسى خالص ؛ وكذلك كان « ماريثو » أحرص من زميله « لى ساج » على تسجيل دقائق الحياة كما تقع ؛ ثم إنه عنى بالتحليل النفسى لأشخاصه ، فكانت هذه الأداة عنده وسيلة اجتذاب القارىء ، وهى تقابل عنصر السخرية والفكاهة عند « لى ساج » .

وأخيراً نذكر من كتّاب القصة « بريثو »<sup>(٣)</sup> (١٦٩٧ — ١٧٦٣) الذى بدأ حياته جنسدياً ، ثم ترك الجيش لينخرط فى جماعة دينية وأصبح قسيساً ، ولكن نفسه القلقة لم تطمئن إلى حياة الدير ، ففر إلى هولندا ثم ألقي عصا تسياره فى النجلا ، حيث أقام حينما عاد بعده إلى بلاده .

(١) La Vie de Marianne . (٢) La Paysan Parvenu .

(٣) Prévost .

كتب « بريغو » أكثر من مائة كتاب ، بينها قصص ثلاث : « مذكرات ومغامرات رجل ذى شأن » <sup>(١)</sup> وتقع فى ثمانية أجزاء ؛ و « الفيلسوف الإنجليزى أو تاريخ مسيو كليفلاند » <sup>(٢)</sup> وتقع كذلك فى ثمانية أجزاء ، و « أسقف كيلرين » <sup>(٣)</sup> وتقع فى ستة أجزاء ؛ وكان مما عمله « بريغو » أن ترجم « رتشردسن » — القصصى الإنجليزى — وهنا كثيرا ما يخطئ المؤرخون فيزعمون أن القصص الفرنسى تأثر خطو زميله الإنجليزى بما ترجمه له ، فينبغى أن نذكر أن « بريغو » سبق بكتابة قصصه ترجمته لرتشردسن ، فهو إذن لا يدين له فيها بشيء ، ولم يبق لنا من هذا الإنتاج الضخم إلا شذرات قليلة تكفى وحدها أن تضع الكاتب فى مكانة ممتازة بين رجال القصة فى الأدب الفرنسى ؛ ولنذكر من هذه الشذرات بصفة خاصة « تاريخ مانون ليسكُو » <sup>(٤)</sup> — وهو فى الأصل شطر من الجزء السابع من قصة « مذكرات رجل ذى شأن » — فهذا الجزء يكون قصة قصيرة هى بحق أول قصة — فى موضوعها وصيغتها — تلمح فيها شهاً بما نسميه اليوم بالقصة ؛ فحكاية الحب فيها تثير عطف القارى ومشاعره ، والحوافز التى تدفع أشخاصها إلى النشاط والعمل طبيعية ، تصور الواقع أتم تصوير ؛ وأسلوبها سلس مستقيم ، لا يشوبه الإسراف فى الصنعة والتكلف ؛ وها قد انقضى على الإنسان قرنان من الزمان يمارس فيهما كتابة القصة منذ « بريغو » ولا تزال « مانون ليسكُو » تهز قلب القارى وتحرك مشاعره .

(١) Memoires et Aventures d'un Homme de Qualité

(٢) Le Philosophe Anglais, or Histoire de M. Cléveland

(٣) Histoire de manon Lescaut (٤) Le Doyen de Killerine



## الفصل الثاني عشر

### الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر

(١) النشر :

جوناثان سُوْفَت Jonathan Swift (١٦٦٧ — ١٧٤٥) .

ولد في « دبلن » ، وكان أبوه قد مات قبل ولادته ، فكفله عمه حتى أتم دراسته في الجامعة ؛ ولم يكن في دراسته الجامعية تلميذاً نابهاً حتى لقد منح الدرجة عن غير جدارة علمية ؛ ولم يلبث أن عينه قريب له عظيم كاتماً لسره ، وكان ذلك القريب العظيم هو « السير وليم تمبل »<sup>(١)</sup> رجل السياسة المشهور في تاريخ بلاده ، وكان إذ ذاك يقيم في « مور بارك »<sup>(٢)</sup> بمقاطعة « سَرِي » في إنجلترا .

لبث « سُوْفَت » في منصبه ذاك نحو عشرة أعوام ، ملأها بالقراءة والدرس ، فأكمل بهذا الجهود الشخصية نقص دراسته الجامعية ؛ وكان إذ ذاك يكتب ويكتب ، ثم يقذف في النار بما يكتبه ؛ وحاول قرض الشعر ولم يوفق ، وقد عرض إحدى منظوماته الشعرية على « دريدن » — وبينه وبينه صلة من الرحم — فقال له الناقد الكبير قولاً كان له في نفس الكاتب أعظم الأثر : « سُوْفَتُ يا ابن العم ؛ إنك لن تكون شاعراً » .

وكان في « موز بارك » — حيث أقام السير تمبل ومعه سُوْفَت — طفلة تنتمي بصلة بعيدة إلى أسرة الكاتب ، هي « إِسْتَرْ جونسن » ، تعهد سُوْفَت بتعليمها وتنقيفها ، فنشأت صلة من الود بين التلميذة وأستاذها ، ثم تطور الود فأصبح حباً وغراماً ، كان أقوى في جانب الفتاة منه في جانب الأستاذ ؛ وهذه هي الفتاة التي أطلق عليها الكاتب في أدبه اسم « سِتِلَّا » ؛ ومات « السير تمبل » بعد حين ، فعنى « سُوْفَت » بنشر مؤلفاته — وكان تمبل سياسياً أديباً له مكانته في عالم الأدب — وبعده عاد « سُوْفَت » إلى وطنه أيرلندة قسيساً لحاكمها « لورد باركلي » فسافرت في إثره « سِتِلَّا » ومعها صديقة لها ؛ واتصلت صلة الصداقة بين الكاتب وفتاته ، فكانت له مصدر سعادة لولاها لأصبحت حياته معتمة كئيبة .

وأول ما أخرجه « سوفت » من أدبه الخالد « قصة الدلو »<sup>(١)</sup>، كتبها وهو في التاسعة والعشرين من عمره ؛ وهى عند بعض الناقدين أعظم ما جرى به قلم الكاتب ؛ وفيها يسخر من العقائد الدينية الثلاث : الكنيسة الانجليكانية ، والكنيسة الرومانية ، والكنيسة الكهنوتية ، وهو يرمز إلى الكنائس الثلاث بأسماء إخوة ثلاثة : « جاك » و « بطرس » و « مارتين » . وقد ذكر سوفت كتابه هذا بعد كتابته بأعوام طوال ، فقال : « يا إلهى ! يا لها من عبقرية وهبتها حين أنشأت هذا الكتاب » . والحق أن هذه القصة دليل ناهض على أصالة فكره وقوة ابتكاره ، تجلت فيها مواهبه إلى حدها الأقصى ، والهجاء فى هذا الكتاب منصب على رجال الدين الذين يثيرون اختلافات فى المذاهب بتعاليمهم وسخفهم . ثم تلا هذه القصة « معركة الكتب »<sup>(٢)</sup> التى تدور حول المفاضلة بين أدب القدماء وأدب المحدثين ؛ فقد نشبت معركة أدبية حامية بين الأدباء حول هذه المفاضلة — وبدأت المعركة فى فرنسا — وكان « السير ولیم تمبل » فى ذلك العراك مدافعاً عن الأدب القديم ، فأيده « سوفت » فى وجهة نظره ؛ و « معركة الكتب » ملحمة تهكمية يتخيل فيها الكاتب حرباً تنشب بين الكتب القديمة والكتب الحديثة التى فى مكتبة قصر سنت جيمس ، نسوق لك منها هذا المثال :

« كان جيش القدماء أقل عدداً من جيش المحدثين قلة ظاهرة ؛ وكان لهمو قيادة للدفعية الراكبة ، وليندار قيادة كتيبة الفرسان الخفيفة ؛ وكان أقليدس رئيس المهندسين ، وعهد بقيادة رماة القوس إلى أفلاطون وأرسطو ؛ وبقيادة المشاة إلى هيرودت ولقى ، وكان هوقراط على رأس فرقة من الفرسان ؛ واصطف فى المؤخرة جنود الحلفاء يقودهم « ثوسميس » و « تمبل » .

ودات الدلائل كلها على أن معركة فاصلة وشيكة الوقوع ؛ فطارت « الشهرة » — وقد كانت كثيراً ما تطوف بالمكتبة المالكية ، وكان لها فيها مكان فسيح تأوى إليه — طارت فى عجل إلى چوپتير ، فقصّت عليه كل ما حدث بين الحزبين فى العالم الأرضى ، وكانت أمينة فيما قصّت ، لأنها لا تقول إلا الصدق وهى بين الآلهة ؛ فأبدى چوف اهتماماً



عظيماً بالأمر، وجمع من فوره مجلساً في مجرة السماء، ولما اجتمع شيوخ السماء أنبأهم كبير الآلهة النبأ، قائلاً إن معركة دامية وشيكة الوقوع بين جيشين قويين من القدماء والمحدثين، وما تلك الكائنات القديمة والحديثة إلا كتبٌ يهتم بأمرها آلهة السماء اهتماماً شديداً، وربما أسرفت الآلهة في اهتمامها ذاك . . . . .

ولما رأى «أرسططاليس» (بيكن) يتقدم نحوه مقطب الجبين من غضب، رفع قوسه إلى رأسه وأرسل رمحاً يشق الهواء، لكن الرمح أخطأ «المحدث» المقدام، ومضى فوق رأسه يترُّ أزيزاً، حتى صادف ديكارت فأصماه . . . . .

وأخرج «سوفت» بعد ذلك «يوميات إلى سنتلا»<sup>(١)</sup>، وهي خطابات قصد بها إلى حبيبته، ولم يرد نشرها؛ أخذ يتحدث فيها حديثاً طليماً عن دقائق حياته ويصّب فيها عواطفه كما يتحدث في صدره؛ تراه أنا يثرثرثرثة الخلق المرح، ثم ينتقل فجأة إلى أهم الحوادث السياسية في عصره؛ وهو بعبارة واحدة من قلبه ينفث الحياة والقوة في شخص، وبعبارة أخرى يضرب شخصاً آخر الضربة القاضية التي لا قيامة لذكره بعدها، وبالطبع يتخلل الأحاديث كلها حبه لِسنتلا وحاجته إلى حبها وعطفها. ولقد كانت علاقته بها موضع اختلاف كبير، والأرجح عند بعض الفاقدين أنه تزوج منها.

كان «سوفت» أول الأمر مؤيداً لحزب الأحرار، ثم ساءت سياستهم فانضم إلى حزب المحافظين؛ وسرعان ما أصبحت له مكانة سياسية ممتازة، بل أسنا نسرف إن زعمنا أنه أصبح في عالم السياسة — كما كان في عالم الأدب — قطب الرمح، وكان من الأدباء الأصدقاء الذين تجمعوا حوله «بوب» و«أديسن» و«سنتيل» ونوشك أن نقول في غير تحفظ إن الأدب الإنجليزي لم يشهد رجلاً بلغ من السلطان وقوة المركز ما بلغه «سوفت» إذ ذاك، وأخذ يخرج رسالة في إثر رسالة يهاجم بها «الأحرار» أصدقاء الأمس؛ والعجيب أنه رغم جبروته لم يستفد شيئاً مما يأمله؛ فقد كان يطمح أن يكون أسقفاً لكنيسة في إنجلترا، ولكن أولى الأمر أبوا أن يعهدوا بمثل هذا المنصب الديني إلى رجل طعن الكنيسة طعنات دامية في قصة «الدلو»؛ وأخيراً نُصّب نائباً لأسقف في

كنيسة « سنت باترك » في دبلن ، ولم يكن « سوفت » مقتنعا بهذا المنصب ، ولم يُرضَ أن يستقر به المقام في دبلن بعيداً عن النشاط السياسي في إنجلترا ؛ وما هي إلى فترة قصيرة مضت حتى سقط المحافظون وفقد سوفت بسقوطهم كل رجاء . وظل مقيماً في دبلن وكأحد منها في مطارح النفي .

وفي سنة ١٧٢٦ نشر « سوفت » أشهر كتبه وأقر بها إلى نفوس القراء على اختلافهم وهو « رحلات جلفر » <sup>(١)</sup> الذي ما فتى منذ نُشر مصدر متعة لا تنقطع للصغار والكبار على السواء ، مع أن كاتبه يقول : « إن الغاية الأساسية التي أرمى إليها هي أن أخرج صدور الناس لا أن أسليهم » ويقول أيضاً في خطاب أرسله إلى « بوب » أنا أكره وأمقت بقلبي ذلك الحيوان الذي يسمى بالإنسان ، ولو أنني أحب بقلبي زيدا وعمرا وخالدا ... فالكاتب ناغم على الإنسانية باعتبارها جنساً عاماً ، لكنه يحب الأفراد إن بدا منهم ما يدعو إلى الحب وهذا الكتاب نقد مقذع لاذع للإنسانية البغيضة .

وموضوع الرحلات — كما يعلم القراء جميعاً — وصف لأسفار جلفر في أرض الأقزام ثم في أرض العملاقة ؛ فهو بين أولئك ماردٌ جبار وبين هؤلاء قزم ضئيل ؛ وقد برهن الكاتب على قدرة توشك أن تكون إعجازاً في حفظ النسب بين حجج الأشياء ؛ فالعالم كله في بلاد « ليليميت » <sup>(٢)</sup> أرض الأقزام — ضئيل بنسبة مطردة ، والعالم كله في بلاد « بروبدينجناج » <sup>(٣)</sup> — أرض العملاقة — ضخيم بنسبة مطردة أيضاً ؛ فلو قلنا — مثلاً — إن البوصة عندنا تمثل قدماً في أرض الأقزام والقدم عندنا تمثل بوصة في أرض العملاقة سار كل شيء على هذه النسبة في دقة عجيبة لا تخطيء ؛ فالبقرة عند الأقزام في حجم الفريخ الصغير والمنزل في حجم الصندوق ، والرجل من الناس يمكن حمله في الجيب وهكذا . وقد عكس ذلك عند العملاقة .

ولم يرقُ للدكتور جونسن أن يجعل في هذا قدرةً ونبوغاً ، قائلاً : « يكفيك أن تفكر في ناس ضخام وناس ضئال ، ثم يسهل عليك بعد ذلك بقية القصة » ؛ ولكن يظهر أن سهولة الأمر قد أوحى بها الاطراد العجيب الذي استطاع سوفت أن يحافظ عليه من بد



القصة إلى ختامها ، فظن الناقد أن تصغير الأشياء والأحياء أمر طبيعي في مقدور كل إنسان ؛ وقد يقول قائل : إن القصة أ كذوبة واحدة ، ومن اليسير أن يكذب الإنسان ؛ ولكن فكر قليلا تجد الأ كذوبة المتسمة المطردة التي لا تتناقض أجزاؤها ليست من السهولة بحيث ظننت للوهلة الأولى .

ولكن ماذا يريد « سوفت » بهذه الرحلات العجيبة ؟ يريد أن يهاجم الإنسانية عامة في غرائزها وحمقاتها ، وأن يسخر من رجال عصره خاصة في خصوماتهم وسفاسفهم ؛ فإذا قال لك مثلا إن قومين من الأقزام اقتتلا ، واستعان فريق منهما بجلفر لأنه كان يخشى سطوة أسطول الأعداء ، فيذهب جلفر إلى ذلك الأسطول الخيف فيحطمه بإحدى يديه . ضحكت من زهو هؤلاء الذين اعتدوا بسطوة أسطولهم . والخطوة التالية أن تضحك من زهو الإنسان بقدرته ، وإنه لضعيف ؛ بل إذا قال لك إن جيشين من هؤلاء الأقزام تلاقيا في حومة الوغى ، وأنت تعلم أن الجندي منهم لا يزيد على طول إصبعك ، ضحكت ملء شديك عجباً من خصومة تشد بين تلك الخلوقات الضئيلة حتى تؤدي بهم إلى القتال ، والخطوة التالية لذلك أن تضحك ملء شديك أيضا عجباً من بنى الإنسان يختصمون ويقتتلون وإنهم كذلك لتوافه ضئال ؛ وإن روى لك السكاتب عن أرض الأقزام أن حزبين هنالك أحدهما يلبس أعضاؤه أحذية عالية الأعقاب ، والآخر يلبس أعضاؤه نعالا وطبئة الأعقاب ، وأن هذين الحزبين يختلفان في تلك البلاد على ولاية الحكم ، وأن الأمبراطور قرر ألا يعهد بأزمّة بلاده إلا لذوى النعال الوطيئة ، وأن ابن الإمبراطور كان متردداً بين الحزبين أيهما أقوم سبيلا فلبس نعلاً عالياً ونعلاً وطبيئاً ، فاعلم أن السكاتب يرمز بذلك إلى حزب « الكنيسة العالية » وحزب « الكنيسة الواطئة » — فهكذا كانا سميان في إنجلترا في القرن الثامن عشر — أى إلى المحافظين والأحرار ؛ وهو يرمز بامبراطور الأقزام إلى الملك جورج الأول ، وقد كان يميل بهواه مع الأحرار ، وابن الأمبراطور يمثل أمير ويلز الذى أبدى بعض الميل نحو المحافظين ؛ وإن رأيت السكاتب يروى لك عن الأقزام أنهم اختلفوا من أين تُكسر البيضة ؟ أتكسر من طرفها العريض أم من طرفها الدقيق ؟ وأن هذا الاختلاف أدى بينهم إلى خصومة وشحناء ؛ فاعلم أنه يشير بذلك

إلى الاختلافات الدينية الثقافية التي يثيرها رجال الدين بتعصبهم ، ولو نُظِرَ إلى تلك الخلافات من أعلى لوجد أنها لا تزيد في جدها عن مشكلة البيضة من أين تكسر ؛ وهكذا ، وهكذا . . . فلو قرأت « رحلات جلغر » تحت هذا الضوء لرأيت أنه أعظم كتاب في الهجاء الساخر بالإنسان عامة ورجال عصره خاصة .

والآن نعرض عليك فكرة موجزة عن أجزاء الكتاب :

أبحر « مستر لميول جلغر » <sup>(١)</sup> — وهو جراح على سفينة — من مدينة برستل في الرابع من شهر مايو سنة ١٦٩٩ ميمما شطر جزائر الهند الشرقية ؛ وتحطمت السفينة عند خط عرض ٣٠ تقريباً ، فقذف الموج بجلغر إلى جزيرة مجهولة ، فإذا بتلك البلاد ملكة « ليلبيت » التي يسكنها أقزام صغار ؛ وأخذ هؤلاء الأقزام رحلتنا أسيراً . وهذا يصف « سوفت » حياة هؤلاء الناس ؛ وما ينشب من قتال بينهم وبين خيرائهم أهل « بليفسكو » <sup>(٢)</sup> ، وحياة رجال القصر ، والأحزاب المختلفة ؛ وما إلى ذلك ؛ ونشب بين أهل « ليلبيت » — يقصد بهم الإنجليز — وأهل « بليفسكو » — ويقصد بهم الفرنسيين — قتال فظيع نسوق لك العبارة الآتية في وصف أسبابه ، لأنها تدلك على طريقة الكتاب في التهمك :

”بدأ القتال على الوجه الآتي : يسلم الناس جميعاً بأن الطريقة البدائية لكسر البيضة قبل أكله هي أن يكسر من طرفه العريض ، لكن جدّ جلاله الملك الحاضر حدث له مرة حينما شرع يأكل بيضة وهو صبي أن جرح إصبعه لما أراد كسر البيضة وفق التقليد القديم ؛ فلم يلبث أبوه الإمبراطور أن أصدر مرسوماً يأمر فيه أبناء الشعب جميعاً أن يكسروا البيضة من طرفه الدقيق وإلا تعرضوا للعقاب الصارم ؛ ولكن الشعب اتخذ موقف المقاومة بحيث ينبئنا التاريخ أن ست ثورات نشبت لهذا السبب ، ومات أحد الأباطرة في تلك الثورات ، وضاع التاج من آخر ؛ وقد كان ملوك « بليفسكو » لا يفسكون يزيدون هذه الثورات الأهلية اشتعالاً ، وكانت إذا ما هدأت ثورة فرطريدون إلى تلك الإمبراطورية يهتمون فيها ؛ ويقال إن أحد عشر ألفاً من الناس كانوا بين آونة وأخرى



يؤثرون الموت على أن يذعنوا لما أمروا به من كسر البيض من طرفه الدقيق ، وكتبت مئات عديدة من الكتب في موضوع هذا الخلاف ، لكن مؤلفات « أصحاب الطرف العريض » حرمت منذ أمد بعيد ، كما حرم القانون على ذلك الحزب كله أن يشغل رجاله مناصب الدولة ؛ وكثيراً ما احتج أباطرة بليفسكو خلال ذلك الشعب بوساطة سفرائهم ، وهم في احتجاجهم يتهموننا بإحداث فتنة دينية ، إذ زعموا أننا بذلك إنما نسيء إلى مذهب أساسى في الدين كما بشر به نبينا العظيم « لَسْتُ رُجْ » في الجزء الرابع والخمسين من الكتاب المقدس « بَلَنَّا كُرَال » ( وهذا الكتاب هو « قرآنهم » )<sup>(١)</sup> ؛ لكننا نحسب أن قولهم هذا مبالغه في تأويل النص ، لأن العبارة كما وردت هي : « وأمر المؤمنون جميعاً أن يكسروا بيضهم من الطرف الملائم » ، وأى الطرفين هو الملائم ؟ يجب — في رأى المتواضع — أن يترك لضمائر الأفراد ، أو أن يخوّل كبير القضاة — على الأقل — حق الفصل .

وفي الجزء الثانى من الكتاب يفر جلقر من أرض « ليليت » إلى بلاد « برو بندنجناج » وأهل هذه البلاد عمالقة يكبرونه حجاً بمثل ما يصغره أقزام ليليت ؛ وأخذ جلقر فى حضرة الملك العملاق وأمر أن يروى عن أمته ، فأخذ جلقر يعظم فى الوصف ويفخم ، لكن الملك ورجاله أخرجوه بكثرة الأسئلة حتى اضطر أن يقول الصدق فى أمته — وهنا يبين سوفت نقائص البلاد المتدنية فى رأيه ؛ ويستمع الملك إلى ما يقوله جلقر ، ثم يقول :

« لست أرى مما تقول ... أن رجالكم يُكبرون بما لهم من فضيلة ، أو أن القساوسة يرتقون بما لهم من علم وتقوى ، أو أن الجنود يُرقون بما لهم من خلق وإقدام ، والقضاة بما لهم من سلوك قويم ، والنواب بما يبدونه من حب لبلادهم ، والمشيرين بما يتحلون به من حكمة ... فلا يسعنى إلا أن أحكم بأن الشطر الأعظم من مواطنيك أسوأ فضيلة من الدود الصغير الكريه مما يزحف على سطح الأرض من ديدان » .

ثم يزور « جلقر » بعد ذلك أرض « لاپوتا »<sup>(٢)</sup> ، وهنا يصب سخريته على العلماء ،

(١) هذه العبارة فى النص موضوعة بين قوسين . (٢) Laputa

فالطعام في القصر الملكي يقطع على أشكال هندسية ، ورجال الفكر مغرقون في تفكيرهم حتى لا يفيقون إلا إن ضربوا بأطراف السياط ، وكان من بينهم عالم يحاول أن يستخرج أشعة الشمس من القاء ؛ وفي هذه الأرض أيضاً يلتقي الرحالة بفئة بغيضة حكم عليهم أن يقضوا حياة أبدية لا يستخدمون فيها ملكاتهم ومواهبهم .

وفي الجزء الرابع والآخر من « رحلات جلثر » ، يطوف الرحالة ببلاد يسكنها « الوينيم »<sup>(١)</sup> وهم ضرب من الكائنات لها هيئة الخيل ؛ ولهذه الخيل هناك مكانة الإنسان في سائر البلدان ، وأما الناس في تلك البلاد فيبدون في شكل بشع مخيف ، ويلقون من « الخيول » كل مقت وازدراء ؛ ويمثل « سوف » بهذه الفصيلة البشرية الوضيعة التي يسميها « ياهو »<sup>(٢)</sup> الجنس البشري كما يراه ؛ وفي هذا الجزء أقذع وألذع هجاء يوجهه الكاتب للانسانية التي يمتقها أشد المقت ؛ حتى ليقال إن الجنون الذي مس الكاتب في أخريات سنيه كان قد أخذ يلعب بقواه العقلية وهو يكتب هذا الجزء المظلم المعتم الكئيب من كتابه ، وحسبه ظلهما للإنسان أن يضعه في مرتبة أدنى من الحيوان .

« أدِسُنْ » و « سَتِيلْ »

لا بد أن نقرن هذين الكاتبين أحدهما بالآخر ، وأن نضعهما جنباً إلى جنب في كلمة واحدة ؛ فقد اتصلت حياتهما الأدبية وتعاونتا على نحو ما تعاون « بومنت » و « فلتشر » في القرن السابع عشر ، فأصبح عسيراً أن تذكر زميلاً بغير زميله .

جوزيف أدسن Joseph Addison (١٦٧٢ — ١٧١٩) :

هو من أئمة النثر في الأدب الإنجليزي ، تخرج في جامعة أكسفورد وأتقن دراسة اللاتينية إتقاناً مكثه أن يقرض فيها الشعر ، وأن يصادف هذا الشعر إعجاباً عند « بوالو » — الناقد الفرنسي الذي عرفته في الفصول السابقة — حين عرضه عليه « أدِسُنْ » أثناء إقامته في فرنسا ؛ وكان « أدِسُنْ » حياً خجولاً يتعثر في القول إن كان بين جماعة ، ومن هنا أحجم عن النقاش وهو عضو في البرلمان ؛ ويميل بطبعه إلى التفكير الهادئ للتأمل ؛



وقد كان يهيم الكاتب نفسه لينخرط في سلك الكنيسة ، لكن مواهبه الأدبية استوقفت أنظار « لورد هاليفاكس » الذى كان زعيما لحزب الأحرار ، وراعيا للأدب والأدباء ، فمنحه راتباً يمكنه من الرحلة فى أوربا ، وإنما قصدَ الزعيم بذلك أن ينشئ شاباً أديباً تنشئة قد تعود على حزبه بالنفع إذا ما عاد الأديب واكتعمل نضجه وأخذ يدافع عن الحزب بقلمه ؛ وانتهز « أدسن » هذه الفرصة السانحة وطاف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا يجمع التجارب ، ويزيد من معارفه ؛ حتى أثقلت حذيقه فكره بالثمار ، فراح يقطفها وينثرها فى أدبه بعد عودته إلى بلاده .

تغيرت الظروف السياسية فى إنجلترا ، وانقطع عن الكاتب راتبه ، فعاد إلى إنجلترا ليضع أول حجر فى مجده الأدبى سنة ١٧٠٤ ، وذلك حين أرادت الوزارة القائمة أن تشيد بالنصر الذى ظهر به « مولبرا »<sup>(١)</sup> فى موقعة « بلنهايم »<sup>(٢)</sup> فى قصيدة قوية تسرى بين الناس فتكون للحزب السياسى الحاكم دعاية ودعامة ؛ واقترح « هاليفاكس » أن يعهد بذلك إلى « أدسن » ، فظهرت قصيدة « الحملة »<sup>(٣)</sup> التى لقيت نجاحاً عظيماً عند أولى الأمر وعند الشعب القارى على السواء ، وكان الذى أعجب الناس من هذه القصيدة بصفة خاصة هذه الأبيات التالية :

عندئذ ظهر فى « مولبرا » العظيم روحه الجبار  
فما اهتز حين اهتزت الأرض بالجحفل الجرار ؛  
فبين المهرج والمرج واليأس والجزع  
خبر مشاهد الحرب الخفيفة كلها بلا فزع ؛  
فإن ملك هبط بأمر الله من السماء  
وزلزل الأرض الأثيمة بالعواصف الهوجاء  
كالتى عصفت منذ قريب بأرض « بريتانى » الشاحبة  
رأيتَه فى رزانه وسكون يصد الرياح الغاضبة ؛

(١) The Christian Hero

(٢) Blenheim

(١) Marlborough

(٣) The Living Power

(٣) The Campaign

فهو يؤدى ما أمر الله العلى بنفس راضية

وتراه فى غمرة الإعصار موجها للرياح العاتية

فى هذه الأبيات — كما ترى — وصف جميل لرباطة الجأش وضبط الأعصاب

وسط زعازع الحرب ورياحها الموح ، وهى الصفة التى كسب بها « مولبرا » موقعة

« بلنهايم » — وعلى كل حال أعجب الوزراء الأحرار بالقصيدة ، وكوفى شاعرها

« أدسن » بمنصب يدر مائتى جنيه كل عام ، ثم أخذ طالعه فى سعاد ما دام الأحرار فى

مناصب الحكم ؛ حتى تربع فى دست الوزارة وزيراً

رئس سقيل Richard Steele (١٦٧٢ — ١٧٢٩) .

ولد فى دبلن ، لكنه لم يُقم فى إيرلندة طويلا ، إذ مات أبوه وهو فى سن الخامسة ،

فانتقل إلى إنجلترا ، ودخل مدرسة زامل فيها « أدسن » زمالة دامت طول الحياة ؛ وتمم

« ستيل » دراسته الجامعية فى أكسفورد ، وكانت إنجلترا عندئذ تخوض فى الحرب إلى

ركبتها ، فانخرط الأديب فى سلك المحاربين ، وظل فى الجيش عشرين عاما .

وأول ما لفت إليه الأنظار قطعة أدبية أخرجها وهو فى التاسعة والعشرين ، هى

« البطل المسيحى » <sup>(١)</sup> وأراد بها أن تكون له بمثابة الشكيمة التى تضبط نوازعه ودوانه

القوية نحو الحياة المستهتره ؛ فقد كان فى « ستيل » اتجاهان متعارضان : فهو عريبيد

يفدفع وراء شهواته ، ولكنه نادم دائما يتمنى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، وكان مبذراً

مسرفا بغير حساب فوقع تحت عبء من الديون أقض مضجعه وأشقى حياته ؛ ثم أخرج

بعد ذلك ثلاث ملامه لم تُصّب نجاحا على المسرح ، هى « الجنازة » <sup>(٢)</sup> ، و « الحب

الكاذب » <sup>(٣)</sup> و « الزوج الرقيق الحس » <sup>(٤)</sup> ، وعلة فشل هذه الملامه اعوجاج فى ذوق

الشعب لازمه منذ عودة الملكية ، فما كان لنظارة ألفت المسرحيات الماجنة فى عهد عودة

الملكية لترتد فى أعوام قلائل إلى الذوق المذهب السليم ؛ فوجب الأديب — إذن —

هو قبل كل شئ تهذيب الذوق الشعبى وتطهيره من فساده ، وذلك عن طريق

. The Funeral (٢)

. The christian Hero (١)

. The Tender Husband (٤)

. The Lying Lover (٣)



الصحافة ؛ وهكذا صم « ستيل » أن يخرج مجلة « تاتلر »<sup>(١)</sup> ، ثم عقب عليها بمجلة « سبيكتيتور »<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

صدرت مجلة « تاتلر » وقد وُضِّحَ محررها « ستيل » في عددها الأول غايته من إصدارها : « الغاية من هذه الصحيفة أن تعرِّضَ بفنون الحياة الزائفة وأن تمزق أقنعة الدهاء ، والغرور ، والتسكف ، وأن تشيد بالبساطة العامة في ثيابنا ونقاشنا وسلوكنا » — وكانت « تاتلر » تصدر ثلاث مرات كل أسبوع ، ولم تكذب تظهر حتى صادفت نجاحا عظيما ، وظهورها يحدد بداية واضحة للصحافة الحديثة .

وكان « ستيل » يخاطب قراءه في صحيفة « تاتلر » باسم مستعار هو « اسحق بركرستاف »<sup>(٣)</sup> ، ولهذا الاسم قصة لطيفة يحمل ذكرها ؛ فقد كان ثمة مُنْجَمٌ مشهور اسمه « بارتريج »<sup>(٤)</sup> يُخرج التقاويم وفيها نبؤات تخدع العامة الساذجة ، فصم « سوفت » وزملاءه من الأدباء أن يسخروا بهذا المخادع ، فأصدروا تقاويم يتنبأون فيها بموت « بارتريج » ، وصدرت تلك التقاويم باسم منجم وهمي هو « اسحق بركرستاف » ، واستطاع سوفت وصحبه أن يوهوا الشعب أن « بارتريج » قد مات فعلا وعبثا حاول « بارتريج » أن يثبت للناس أنه حي ، فكسدت تقاويمه وبطل خداعه ؛ ومن هنا علق باسم « اسحق بركرستاف » شيء من الفكاهة اللطيفة . فاختاره « ستيل » اسما مستعاراً . ولما صدرت مجلة « تاتلر » كان « أدسن » في أيرلنده ، ولسكنه ما عثم أن واصلاها بمدده ، ولبتت المجلة قائمة مدة عام وتسعة أشهر أقفلت بعدها لظروف سياسية ؛ غير أن « ستيل » سرعان ما أعلن عزمه على إصدار صحيفة يومية .

وفي غرة مارس من سنة ١٧١١ صدرت « سبيكتيتور » معترضة أن لا تمس شئون السياسة ، وأن تقتصر على الأدب وتهذيب الذوق ، وإصلاح الحياة الاجتماعية ، ولقيت نجاحا هائلا وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وما يزال قراء الأدب حتى يومنا هذا

(١) The Tatler

(٢) The Spectator

(٣) Partridge

(٤) Isaac Bickerstaff

يقروون الصور الأدبية التي كانت تنشرها تلك الصحيفة ، وما تزال شخصية « سير روجر دى كثرلى »<sup>(١)</sup> تحتل مكانة عالية بين أروع الشخصيات التي صورتها أقلام الأدباء ، ثم ختمت الصحيفة حياتها في ديسمبر ١٧١٢ بعد أن أصدرت خمسة وخمسين وخمسمائة من أعدادها ، جمعت في سبعة مجلدات أضاف إليها بعدئذ « أدسن » مجلداً ثامناً يحتوي طائفة من أجمل ما دبجته يراعت من المقالات الأدبية<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وفي سنة ١٧١٣ — بعد أن طويت « سبكتيتير » بعام واحد ، أخرج « أدسن » مأساة « كاتو »<sup>(٣)</sup> فنجحت عقب نشرها ، لكنها لم تلبث أن كسدت سوقها في عالم المسرح ؛ فلم يكن « أدسن » بالذي يجيد إنشاء المسرحية على الرغم من نبوغه في تصوير الشخصية ، وذلك لعجزه عن تحليل الدوافع التي تتحكم في أعمال الناس وتسيّرهم في هذا الطريق أو ذاك .

\*\*\*

أما « ستيل » فقد أخرج مجلة جديدة تسمى « جاردان »<sup>(٤)</sup> ، وبعد عامين — أي في سنة ١٧١٥ — أشرف « أدسن » على مجلة أخرى ، هي « فريهولدر »<sup>(٥)</sup> . وهنا تزوج « أدسن » من نبيلة ثرية وعين وزيراً ، وسارت حياته سيرا هادئاً مطّرداً لولا أن نشبت معركة أدبية بينه وبين صديقه القديم « پوپ » مصدرها ما تأجج به صدر « پوپ » من حسد وغيرة ، وسنذكر طرفاً من هذه الخصومة الأدبية الطريفة حين نتناول « پوپ » بالعرض في الجزء الثاني من هذا الفصل .

وكذلك خاض « ستيل » ميدان السياسة وانتخب عضواً في البرلمان ثم فصل منه لنشره مقالة عنيفة عنوانها « الأزمة »<sup>(٦)</sup> ؛ وعلى كل حال فقد فرقت السياسة بين « ستيل » و « أدسن » اللذين لبثت بينهما الصداقة طوال هذه السنين .

(١) Sir Roger de Coverley .

(٢) مجموع المقالات الأدبية التي نشرتها « تانلر » ٢٧١ ، كُتب منها ستيل ١٨٨ وكتب « أدسن » ٤٢ واشترك الكتابان في ٣٦ ، والباقي لغيرهما ؛ ونشرت « سبكتيتير » ٥٥٥ مقالا كتب منها « أدسن » ٢٧٤ وكتب ستيل ٢٣٦ .

(٣) Cato . (٤) Guardian . (٥) Freeholder . (٦) The Crisis .



دانيال ديفو Daniel Defoe (١٦٦١ - ١٧٣١) :

هو البادئ الحقيقي للقصة في الأدب الإنجليزي ، ولد في لندن لأبٍ قصاب ، وقد أراد له أبوه أن يكون واعظاً دينياً ، لكن الفتى لم يقطع أباه فيما أراد ، وبدأ حياته صانعاً يصنع الجوارب ، ثم عاش بعد ذلك حياة شهدت من صنوف العيش ألواناً ، فهو تارة في رغد وطورا في ضنك وضيق ، ثم مات مفلساً لا يملك من حطام الدنيا شيئا .

ويخلده تاريخ الأدب لكتابه « رُوبِنْسَن كروزو »<sup>(١)</sup> ويكاد لا يعرف له الناس غير هذا الكتاب ، مع أنه ألف مائتين وخمسين كتاباً ؛ كتب قصصاً أقربها إلى نفوس القراء المحدثين : « كابتين جاك »<sup>(٢)</sup> و « مَوْلُ فِلَانْدَرْز »<sup>(٣)</sup> و « رُكْسَانَا »<sup>(٤)</sup> وكلها فياضة برائع الوصف للحياة في لندن إذ ذاك ؛ وكتب تاريخاً وسيراً ، وكتب رحلات وأنشد القصائد ؛ ونشر الرسائل يصف فيها السيد الكامل والتاجر الكامل ؛ وكتب دروساً نموذجية يرشد بها الآباء والعاشقين ، ودبج المقالات السياسية ، والرسائل الهجائية ؛ وأنشأ صحيفة تصدر ثلاث مرات كل أسبوع كان يكتبها كلها بنفسه !

ومع ذلك فكتابه الذي نعرفه به هو « رُوبِنْسَن كروزو » الذي نُشِرَ وله من العمر ستون عاماً ؛ ولا نحسب أن قارئاً واحداً يجمل مادة هذا الكتاب ، فلا تكاد تصادف بين الناس من لم يقرأ هذه القصة في صباه ؛ وفكرة القصة مستمدة من حادثة حقيقية وقعت سنة ١٧٠٤ لرجل يدعى « اسكندر سِلْكِيرِك »<sup>(٥)</sup> انقطع به الطريق في جزيرة موحشة أربعة أشهر ؛ فأوحت الحادثة بالقصة إلى « ديفو » ، وأما شخصية « رُوبِنْسَن كروزو » فهي شخصية الكاتب نفسه ، فُروبنسن رجل يفيض نشاطاً ويأبى أن يذعن لعقبات الحياة التي تعترض طريقه ، وهو مقدم لا يهاب شيئاً ويؤمن بالله إيماناً صادقاً ؛ فلو كان للقصة مغزى يريد الكاتب فهو الصبر الجميل على أفدح الكوارث وأشق الصعاب ؛ فأنت تعلم كيف حاول « رُوبِنْسَن كروزو » وهو وحيد في الجزيرة الموحشة أن يصنع لنفسه كل شيء ، فلم تحُلْ دون غايته الحوائل ، ولم ينهض في وجهه صعبٌ إلا ذلَّه ؛ وروعة القصة تنحصر في تصويرها

(١) Robinson Crusoe (٢) Captain Jack (٣) Moll Flanders (٤) Roscana (٥) Alexander Selkirk

لهذا الرجل الذى يعتمد على نفسه فى كل شىء ، يبنى بيتا يسكنه ، ويخبز خبزه ويطهى طعامه ويشعل ناره ثم لا ييأس ولا يبتئس مع كل هذه الصعاب لأنه يحمل بين جنبيه قلبا يعمره الإيمان ! إنها قصة فريدة فى بابها ، لأن سائر القصص تروى لنا حياة توشجت فيها روابط الجماعة وصلاتها ، وأما هى فتروى لنا حياة شخص تقطعت بينه وبين الجماعة الصلات ؛ إنها قصة للأطفال والرجال فى آن معا تقرأها فلا تجد فيها ما يضحك ولا تجد فيها ما يبكي ، فلا عجب أن تُرجمت هذه الآية الفريدة إلى لغات الأرض جميعا<sup>(١)</sup> .

وأهمية هذه القصة فى تاريخ الأدب أنها بدأت ضربا من القصص الواقعي ، يعتمد فيه الكاتب أن يومه قراءه بأن ما يطالعونه حقيقة لا خيال ؛ يقول « تشارلز لام » فى « روبنسن كروزو » : إنه يستحيل عليك أن تشك وأنت تقرأها فى أن شخصا حقيقيا يقص عليك ما حدث له فى حياته الواقعة .

وأبدى « دِفُو » قدرته هذه على الخيال الواقعي فى كتاب له آخر ، هو « يوميات فى سنة الطاعون »<sup>(٢)</sup> الذى كانت وقائعه كلها من خلق خياله ومع ذلك اتخذ معاصروه وظنوه تاريخا صحيحا لما حدث فى لندن حين فتك بها الطاعون .

والئن بدأ « دِفُو » بقصة « روبنسن كروزو » القصص الواقعي فقد أنشأ كذلك ضربا آخر من القصص ، هو القصص التاريخي الذى يمزج حقائق التاريخ بخلق الخيال ، وذلك بكتابه « مذكرات فارس »<sup>(٣)</sup> وهى طريقة سار على نهجه فيها « وولتر سكُت » و « اسكندر ديماس » فى القرن التاسع عشر .

صموئيل ريتشاردسون ( ١٦٨٩ — ١٧٦١ ) :

على الرغم مما لقيه رجال القصة الفرنسية من نجاح فى أوائل القرن الثامن عشر ، ونخص منهم « لى ساچ » فى قصته « جيل بلا » و « پريثو » فى قصته « مانون ليسكو » ؛ وعلى الرغم من ظهور مبادئ القصة فى انجلترا عند « دِفُو » فلما أن نقول إن أدب القصة لم تكامل نشأته إلا بين يدي « ريتشاردسون » فى قصة « پاملا أو الفضيلة تلقى جزاءها »<sup>(٤)</sup>

(١) وقد كتب بعض الباحثين فى المقارنة بين هذه القصة وقصة حى بن يقظان فى الأدب العربى وبحوثا فى إمكان استفادة « دِفُو » من هذه القصة العربية .

(٢) Memoirs of a Cavalier ( ٣ )

(٣) Journal of The Plague year ( ٢ )

(٤) Pamela, a Virtue Rewrded ( ٤ )



التي نشرت عام ١٧٤٠. ومما هو جدير بالذكر أن رجال الأخلاق كانوا قبل « باملا » يحرّمون قراءة القصة لأنها في رأيهم مباءة إفساد ، ثم جاءت هذه القصة على غير ما يظن بالقصص ، إذ جاءت درسا في الأخلاق ، تقى قراءتها ضعاف النفوس موارد الزلل ، فقد قصد « رتشردن » إلى تقويم الأخلاق قبل كل شيء ، وقال عنه جونسن الناقد الانجليزي المعروف في القرن الثامن عشر إنه علم العواطف الإنسانية كيف تضع زمامها في يد الفضيلة .

لسنا نعرف من طءولة السكاتب إلا قليلا ، فهو يتحدثنا عن نفسه أنه في سن الحادية عشرة أخذ على نفسه أن يكتب خطاباً يستشهد فيه بكثير من آيات الكتاب المقدس إلى سيدة في الخمسين من عمرها عرفت بالنيمة ليعظها ويهديها سواء السبيل ، وأنه في سن الثالثة عشرة كان يكتب خطابات غرامية لكثير من الفتيات اللاتي عرفن فيه القدرة على الإنشاء ، وأنه في سن السابعة عشرة التحق « صبيا » بمطبعة يمارس فيها فن الطباعة ، وفي سن الثلاثين أدار بنفسه عملا يرتزق منه ، وبعد عامين تزوج من ابنة « معلمه » الذي دربه على الطباعة ؛ ولم يبدأ كتابة قصته « باملا » إلا وهو في الخمسين من عمره ؛ وباملا فتاة ريفية عفيفة ساذجة ، حاول سيدها المستهتر العربي أن يغريها بالفجور لكنها قاومت إغراءه بكل ماله من شباب ومال ، وأخيرا « لقيت الفضيلة جزاءها » — كما يشير عنوان القصة — بأن اضطر السيد المتعقب إلى الزواج من الفتاة التي يشتهيها ، ويعلق المتزمتون في الأخلاق على هذه الخاتمة بقولهم إن زواج الفتاة الطاهرة ممن أراد بها الغواية ليس فضيلة من الطراز الممتاز ، إنما هي فضيلة « تجارية » تقاوم الرذيلة حتى تستفيد منها ثم تذعن لها وتستسلم ؛ فحقيق بنا أن نقول إن « رتشردن » في محاولته تقويم الأخلاق كان رجلا عمليا لا يحلق في سماء الخيال والتجريد ؛ ومهما يكن من شيء ، فقد كانت قصة « باملا » بداية قوية للسكاتب ، بل بداية قوية للقصة في الأدب الانجليزي ؛ وهي تجري في سلسلة من الرسائل التي يستشف القارى من ثناياها طبيعة المرأة على حقيقتها ، وهذه الناحية هي أظهر ما امتاز به السكاتب في فنه القصص .

ثم أخرج وهو في التاسعة والخمسين قصة « كلارسا أو مغامرات فتاة »<sup>(١)</sup> : يتقدم

شاب بغيض ممقوت لخطبة « كلاريسا هارلو » فترفض الفتاة ، وتضطهدها الأسر لهذا  
الرفض ، فيجلبك لها الخطيب الدنيء « لفلّيس »<sup>(١)</sup> أحبولة من الأكاذيب والدسائس  
وألوان الخداع حتى يتمكن بمعونته طائفة من بنات جنسها أن يخدرها فيفقدوها الوعى ثم  
يسلبها الشرف ؛ فتنسكرها أسرتها ، وتلاقى الفتاة من الحن ما تلاقى ؛ ويستيقظ الضمير  
فى الفاجر المعتدى فيعرض عليها الزواج . لكن كبرياء الفتاة تأبى عليها هذا الإذعان  
الدليل ؛ والفتاة مطمئنة فى أعماق نفسها إلى طهارة ذيلها وقوة إرادتها ، لكنها تعلم بغير  
شك أنها قد أوذيت وأثلم شرفها فتسلم نفسها إلى كروب النفس تذويها وتضنيها حتى تلفظ  
الروح ؛ فتتنبّه الأسرة إلى الجريرة التى اقترفتها فى ظلم الفتاة فيعذبها تأنيب الضمير ،  
ويلقى « لفلّيس » جزاءه الطبيعى بأن يقتل فى مبارزة مع ابن عم الفتاة .

هذه هى القصة التى لم تقتصر شهرتها على إنجلترا ، بل ذاعت فى أرجاء أوربا كلها ؛  
وترجمها « ديدرو » لينشر فيها القصص فى فرنسا ، وكذلك ترجم « بريشو » القصص  
الفرنسى آثار « رتشرdsn » فى حينها كما أسلفنا لك القول عند الكلام على الأدب  
الفرنسى فى القرن الثامن عشر ؛ وقد كان لقصة « كلاريسا » أثر قوى فى تنمية الروح  
الديمقراطية ؛ إذ لم يكن مألوفاً بين الكتّاب والقراء على السواء أن تختار فتاة من غمار  
الشعب بطله لقصة تثير اهتمام الناس جميعاً ، ولعل ذلك ما حدا بالفرنسيين فى القرن الثامن  
عشر إلى الإسراع فى نقلها إلى أدبهم لتكون عاملاً من العوامل التى أخذت تتجمع حتى  
انفجر بقوة ضغطها بركان الثورة الفرنسية ، وقد لقيت هذه القصة إعجاباً وتقديراً بين أعلام  
الفرنسيين إذ ذاك ، حتى وضع « ديدرو » كاتبها فى صف « هومر » و « يوربيد »  
و « سوفوكليس » واتخذ « جان چاك روسو » نموذجاً احتذاه فى قصة « جولى أو هلويز  
الجديدة » ثم جاء بعد ذلك « الفرد دى ميسيه »<sup>(٢)</sup> الشاعر الفرنسى فزعم أن « كلاريسا »  
أعظم قصة فى أدب العالمين إطلاقاً .

والقصة الثالثة والأخيرة لرتشرdsn هى « السير تشارلز جراندسن »<sup>(٣)</sup> ، والبطل فى  
هذه القصة — وهو الذى سميت القصة باسمه — رجل قويم الخلق لا يعرف الخطيئة ، وقد



قصد به الكاتب أن يمثل الرجولة في أكل صورها .

هنرى فيلدينج Henry Fielding (١٧٠٧ - ١٧٥٤) :

نشأ في كلية « إيتن » التي تنشئ أبناء الخاصة ، وجاء إلى لندن يعتمد في عيشه على رزق مضطرب تدره عليه مسرحياته ، إذ ماتت أمه وتزوج أبوه من غيرها ، فكان لا يأتيه المدد إلا لاما متقطعاً ؛ ولما بلغ الثالثة والثلاثين التحق بسلك القضاء ؛ وإنما يخلده الأدب بقصصه الرائع .

وأول ما نشر من قصصه « جوزيف أندروز »<sup>(١)</sup> ، وقد أراد بها أن يتهم بزميله « رتشردن » في قصته « پاملا » ، وطريقته في التهم أن يجعل « جوزيف » أخا لپاملا ، وكما أخذ سيد پاملا يغريها بالغواية عن نفسها ، فقد أخذت سيدة « جوزيف » تغريه بالغواية عن نفسه ، فيقاوم الفتى إغراء سيدته ، كما كانت تقاوم الفتاة في قصة رتشردن إغراء سيدها ؛ هكذا بدأ « فيلدينج » قصته بنيتة السخرية والتهم من الفضيلة كما تصورهما زميله ، لكنه سرعان ما توثقت العلائق النفسية بينه وبين شخصياته التي خلقها بقلمه ، فاطرح روح التهم وجعل يصور لنا في سائر القصة حياة عصره أصدق تصوير وأروع . ويقول « بيرون » عن « فيلدينج » بمناسبة هذه القصة « إنه هومر النثر في وصف الطبيعة البشرية » ذلك لأن قصة « جوزيف أندروز » صورة مزدجة بالأشخاص الذين يمثلون صنوف الناس جميعاً : ففيها الخوزية والرحالة ورجال الدين وسادة الريف والخدمات والزوجات والبائعون الجوالون وأصحاب الدكاكين ، كل هؤلاء وغيرهم يسوقهم لك في قصة جميلة السبك ممتعة السياق ؛ على أن أبداع ما في القصة قوة تصوير الأشخاص تصويراً صادقاً ناصعاً ، وروح الفكاهة اللطيفة التي تميل أحياناً نحو السخرية والهجاء .

وبين أشخاص هذه القصة شخصية كتب لها الخلود بين الشخصيات الأدبية الخالدة ، ونعني بها شخصية « القس آدمز »<sup>(٢)</sup> الذي اتخذ بطل القصة « جوزيف » زميلاً وصديقاً ؛ « والقس آدمز » يمثل المسيحي الصالح الذي يجتذب قلوب عارفيه ، لكن في سلوكه

(١) Joseph Andrews (٢) Parson Adams (٢)

شدوذاً وبعداً عما تقتضيه الحياة الدنيا بحث لا يسعنا إلا أن نضحك منه ، لكنه ضحك العطف الذى لا تشوبه شائبة من زراية واحتقار ؛ فهو رجل عالم بكل شيء إلا بما تنطوى عليه نفوس الناس من ضعة وخسة ، وجهله بهذه الناحية من النفس البشرية يؤدى به إلى كثير من المواقف المضحكة ، لكن ذلك كله لا يخدم من حرارة قلبه وإيمانه ، وحسبك أن تلم بصورة هذه الشخصية وحدها لتحدد موضع فيلدينج فى القصة ، فهو يحب أن يبعث الضحك فى قارئه ، لكنه الضحك الذى يزيد حبا فى الفضيلة وطيبة القلب ؛ وقد تأثر بهذه الشخصية قصصى إنجليزى آخر فى القرن الثامن عشر ، هو « جولدسميث » حين أنشأ قصته المشهورة « راعى ويكفيلد »<sup>(١)</sup> .

وفى سنة ١٧٤٩ ، نشرت قصته الثانية « توم جونز »<sup>(٢)</sup> ؛ وصفوة القصة أن السيد أولورذى<sup>(٣)</sup> يقوم على تربية ابن أخته ولقيط يسمى « توم جونز » كأنهما ولداه ؛ وكان الولدان مختلفين اختلاف النقيض عن نقيضه ، فابن الأخت « بلايفل »<sup>(٤)</sup> منافق لئيم حذر ، و « توم » طيب القلب ساذج سريع الغضب ؛ ويزل « توم » فى أخطاء كثيرة هى أخطاء الشباب المتحمس المحتدم العواطف ، وهو سرعان ما يندم على خطئه لأنه يحمل نفسا قوية ليس فيها عوج ؛ وما زال « بلايفل » بدائه ولؤم طبعه يوقع « بتوم » ويدس له الدسائس ، وما زال « توم » على حقه وطيش شبابه حتى ضاق « أولورذى » به ذرعا وأخرجه من كتفه ؛ ففاض الفتى مغامرات كلها صعبا ، ثم انتهى الأمر بأن كُشف عما ينطوى عليه « بلايفل » من خبث ، وما يضره « توم » من نفس خيرة ، فكان « توم » هو الظافر ، وتزوج من الفتاة الحسنة « صوفيا ومترن »<sup>(٥)</sup> — وهى بطلة القصة — وذهبت جهود « بلايفل » فى الايقاع بينهما أدراج الرياح .

وكل ما أراد الكاتب أن يؤكده هو أن طيبة القلب خير شفيع لما يزل فيه الانسان من أخطاء ؛ وأن من يحب اخوانه من بنى الانسان جدير أن تغفر له رذيلته ؛ فها هو ذا « توم جونز » يحمل قلبا طيبا لكن فضيلته ليست من القوة بحيث تستعصى على الاغراء فيزل فى الرذيلة آنا بعد آن ؛ فنجبه ونعطف عليه ونغفر له ذنوبه .

(١) Teh Vicar of Wakfield . (٢) Tom Jones

(٣) Squine Allworthy . (٤) Blifil . (٥) Sophia Western



وأخيرا نشر قصته الثالثة « أميليا »<sup>(١)</sup> ثم أصابته علة اضطر معها أن يقصد إلى لشبونه وقد قص أنباء رحلته الشاقة في يوميات نشرت بعد موته ، وجاءته المنية وهو في لشبونه حيث رقد جثمانه .

كان « رتشردسن » يكتب للنساء « فيلدينج » يكتب للرجال ، وكان « رتشردسن » يميل بخياله مع العاطفة و « فيلدينج » واقعي يشاهد ويكتب ؛ وعلى كل حال فآدب « فيلدينج » عند النقاد يرجح أدب زميله : يقول عنه « هازل »<sup>(٢)</sup> : إنه في ملاحظته للطبيعة البشرية يقل قليلا عن شيكسبير ، فلو عددت في الأدب الإنجليزي كله ست قصص وجدت « توم جونز » واحدة منها .

والقصة عند « فيلدينج » لها طابع خاص يميزها ؛ بحيث قال عنها « ثاكري »<sup>(٣)</sup> إنها « ملحمة تهمكية عظيمة » ، وقد رأينا « بيترن » يسمى فيلدينج « هومر النثر في وصف الطبيعة البشرية » فما الذي يقرب القصة عند هذا الكاتب من الملحمة ؟ يقول فيلدينج نفسه في مقدمة قصته « جوزيف أندروز » « إن الملحمة يمكن تأليفها نثرا كما يمكن انشادها شعرا ؛ إذ القصة التي تحمل كل خصائص الملحمة ما خلا الوزن جديرة أن تعد ملحمة تميزها لها من القصة التي لا تصور الواقع ؟ فقصة مثل « جوزيف أندروز » ملحمة هزلية نثرية ، تختلف عن الملهاة المسرحية بمقدار ما تختلف الملحمة الجادة عن المأساة المسرحية ، والفرق هو أن دائرة الفعل والحركة تمتد في نطاق أوسع مما تمتد فيه المسرحية ، وفيها عدد أكبر من الحوادث ومجموعة من الشخصيات أكثر تنوعا ؛ ومن أخص خصائص قصة فيلدينج التي — على حد قوله — لم تعرف لها اللغة الإنجليزية مثيلا قبلها ، أنها تعالج أشخاصا من طبقات المجتمع الدنيا ، وتصور ألوانا من السلوك الدنيء المرذول .

ويقول فيلدينج في مقدمة « توم جونز » إنه يتأثر خطأ أصحاب الملاحم الكبرى : هومر وفرجيل ، كما يقتص أثر القصص الأسباني سيرانتي في قصته ، « دون كيشوت » ويصرح بأن غايته من القصة أن يعكس الدنيا الحقيقية كما تجرى في عالم الواقع ، وأن يحصر نفسه في حدود الممكن المحتمل ، قائلا إن القصص لا ينبغي أن يكتب إلا فيما يعلمه حق العلم من صور الحياة .

توبياس سمولت Tobias Smollett (١٧٢١ — ١٧٧١) :

هو اسكتلندي تخرج في جامعة جلاسجو طبيبا ، ولما بلغ سن الثامنة عشرة ارتحل في أنحاء إنجلترا ، وأثبت ملاحظاته عن تلك الرحلة في الفصول الأولى من قصته «رودريك راندَمْ»<sup>(١)</sup> وزار مدينة لندن وهو لا يحمل في جعبته إلا مأساة «قتل الملك»<sup>(٢)</sup> ولكنه لم يستطع أن يلتصق لها سبيلا إلى المسرح ، ولم يجد في قلبه معينا له على كسب قوته ، فاشتغل جراحا في سفينة ، ولبث في البحر ستة أعوام أو سبعة ، شهد خلالها حصار قرطاجنة سنة ١٧٤١ ، ووصفه فيما بعد في قصته «رودريك راندَمْ» ، كما خبر البحارة وصورهم في بعض قصصه .

وترك البحار وعاد إلى إنجلترا وكانت سنة إذاك خمسة وعشرين عاما ، وعندئذ أنشد قصيدة «عبرات اسكتلنده»<sup>(٣)</sup> إذ تحركت نفسه لما كان يعانيه الاسكتلنديون بعد وقعة كالدون ، والقصيدة تتألف من سبع مقطوعات هذه أولها :

حداداً ، كالديونا التعيسة ، حداداً  
على إكليلك الممزق وأُمْنِكَ الذي بادا ؛  
فبنوك الذين عرفتهم الأيام بُسْلاً ميامين  
أراهم على أرض أوطانهم صرعى راقدين ؛  
وديارك السكريمة بعدئذ لن تعودا  
تدعو الغريب إلى أبوابها كرماء وجودا  
إذ اندكت آسامُها في خرائب واهنة  
ستظل أنصاها عن العسف مُعلنة

وأخذ بعدئذ يحاول ألواناً من فنون الأدب ، ثم تزوج سنة ١٧٤٧ فاضطره الفقر والإسراف أن يحترف الكتابة ، وأصدر في العام الذي تلا زواجه قصة «رودريك راندَمْ» فجاءته بالشهرة والمال معا ، وعقب عليها بقصة «برجرين بيكل»<sup>(٤)</sup> وهي شبيهة بقصة

. The Regicide (٢)

. Roderick Random (١)

. Peregrine Pickle (٤) . The Tears of Scotland (٣)



« رودريك راندَم » وفيها كثير من سيرة حياته ؛ وبعدئذ كَفَّ عن الكتابة قليلا إذ عاد إلى مهنة الطب ، ثم ما لبث أن أخرج قصة « مغامرات فردناند »<sup>(١)</sup> ؛ وبعدها نشر خير قصصه جميعا « همفري كلينكر »<sup>(٢)</sup> ومات غريبا عن بلاده في « مجهورن » في العام الذي صدرت فيه هذه القصة الأخيرة ؛ ومن آثاره الأدبية غير قصصه ترجمته لدون كيشوت ، وكتابة بعض الرسائل التاريخية عن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها .

في قصة « رودريك راندَم » يقص الكاتب سيرة حياته إلى حد كبير ، فهو لا يبتكر أحداثها إنما يستذكر ويستعيد ثم يسجل ، ويشيع في القصة روح الفكاهة التي يخرج بها أحيانا عن حد التهذيب ، فيجعل كثيرا من نكاته فاحشا غليظا ؛ وقد كان « سموات » في هذه القصة تلميذا للقصصى الفرنسى « لى ساج » ، فقرصته — كقصته « جيل بلا » — سلسلة من المغامرات يتلو بعضها بعضا في غير اتصال وثيق بين السابقة واللاحقة .

وأما « همفري كلينكر » فالقصة فيه تُروى في سلسلة من الرسائل كتبت عن رحلة في أرجاء اسكتلنده وإنجلترا ، بأقلام أشخاص عديدين ، أهمهم جميعا « ماثيو برامبل »<sup>(٣)</sup> وهو رجل كهل طيب القلب يقوم برحلته مستردا لصحته ، و« همفري كلينكر » وهو سائق في خدمة « برامبل » تقي ورع ، ثم يتبين آخر الأمر أنه ابن « برامبل » ، وغير هذين أشخاص كثيرون يبعثونك على الإعجاب الشديد بفن الكاتب في تصوير الأشخاص .

ومما يجدر ذكره عن « سموات » أنه كان ذا أثر قوى في قصصى إنجليزى عظيم في القرن التاسع عشر ، هو « دكنز » الذى قرأ « سموات » طفلا فتعلم منه فن القصة ؛ وكلا الكاتبين يتشابهان في الفكاهة الصارخة وفي التصوير « الكاريكاتورى » لأشخاصهم ، فتراهما يبرزان فيمن يصورانه جانبا ثم يبالغان في تصويره ، وكلاهما يحدد نفسه بالواقع فيما يصف فلا يشطح بخياله في أوهام ؛ على أن « سموات » امتاز عن كتاب عصره بقدرته العظيمة على وصف دخائل بعض الطبقات ، كوصفه لحياة البحارة في أدق تفصيلاتها .

(١) The Adventures of Ferdinand

(٣) Matthew Bramble

(٢) Humphrey Clinker

لورنس ستيرن Laurance Sterne (١٧١٣ — ١٧٦٨)

كان أبوه من رجال الجيش ، وكان يحكم عمله يتنقل من بلد إلى بلد وأسرته في صحبته . فلم يستقر « ستيرن » في مكان واحد إبان طفولته ، فكان لذلك أعظم الأثر فيه ، لأنه أتاح له الفرصة أن يجمع في سنه الباكرة تجارب الحياة ويخزنها حتى يحين الكتابة ؛ وهو في هذا شبّه « بسمولت » فكلاهما يتخذ من أسفاره وحوادث حياته مادة لقصصه ، فلما بلغ الفتى عامه العاشر عُهِدَ به إلى مدرسة استقر فيها نحو ثمانية أعوام ، ثم أُرسل إلى كمبردج حيث أتم علومه ؛ وبعد تخرجه انخرط في الوظائف الكنسية حيناً ؛ حتى إذا ما بلغ السابعة والأربعين من عمره طلع على الناس بأثر أدبي عظيم هو قصة « حياة ترسترام شاندى وأفكاره »<sup>(١)</sup> ، فكانت له ضجة هائلة بين جمهور القارئ على الرغم من أنه كتاب لكاتب مغمور لم يسمع به أحد من قبل ؛ حتى لقد زار الكاتب لندن عقب صدور الكتاب ، فألقى نفسه — على غير توقع منه — مشهوراً مذكوراً بين الناس ، وقد تلقى من الدعوات ما كان يكفي أن يُطعمه الأيام القليلة التي بقيت له من حياته ؛ ونفقت سوق الكتاب بحيث لم تسكد تخرج طبعته الأولى حتى بدى في الطبعة الثانية .

يقع « ترسترام شاندى » في تسعة أجزاء ، ومع ذلك لم يتركه الكاتب عند خاتمة تهميه ؛ ويستحيل علينا أن نوجز لك حبكة الحوادث في هذه القصة ، لأن أبرز ما يميز الكتاب أنه بغير حبكة ولا خطة ولا نظام ؛ فالمفروض أن تدور القصة حول حياة « ترسترام شاندى » وأفكاره ، لكنك تقرؤها فتصادف فيها كل ما وسع كاتبها من مشاعر وخواطر ؛ ومما يلفت النظر في الكتاب غرابة استعمال علامات الوقف وما إليها ، مما تعمده الكاتب وكان مصدراً للضحك عند القراء ، فقرأ مثلاً يترك مسافة خالية بغير مبرر أو يقطع مجرى الكلام بعلامة غريبة لا معنى لها ، أو يضع نجمة صغيرة على كلمة دون حاجة إليها ؛ وهكذا . وفي الكتاب كذلك استطراد كثير ، وعن هذا الاستطراد يقول الكاتب : « إنه حياة القراءة وروحها » ؛ وقد برع « ستيرن » براعة تسحق



الإعجاب في جودة تصوير الأشخاص مثل « العم توبي »<sup>(١)</sup> الضابط المتقاعد، « والجاويش ترنم »<sup>(٢)</sup> و « الأرملة وادم »<sup>(٣)</sup> وغيرهم ؛ ومن بين ما لجأ إليه الكاتب في تصويره للأشخاص ليزيدهم وضوحاً وتميزاً وصف حركاتهم التي تلازمهم .

و « لستيرن » كتاب آخر هو « رحلة عاطفية في فرنسا وإيطاليا »<sup>(٤)</sup> والقصة تجري على لسان « يوريك »<sup>(٥)</sup> الذي هو « ستيرن » بعينه ؛ وفي الكتاب كثير من تجارب الكاتب الشخصية أثناء ارتحاله في تلك البلاد ؛ وهو يحتوى على كثير من الصور الفايضة بالحياة للفنادق القديمة والرهبان والغلمان والخدم والحوذية والسائلين ، وأصحاب الفنادق والجنود والسيدات وما إلى ذلك .

وليس في هذا الكتاب قصة ، بل هو وصف لرحلة يسجل فيها الكاتب ما يعنُّ له من خواطر ، وهاك مثالا ذكره حين رأى زرزوراً في قفص وهو في فندق في باريس :

« أزعجني وأنا مستغرق في تأمل صوت ظمنته لطفل ، يقول شاكياً ، إنه لا يستطيع الخروج ، فصعدت بصري وصوبته على طول المشى ، ولما لم أجد رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً خرجت أنظر الأمر .

ولما عدتُ ماراً بالمشى سمعتُ الألفاظ بعينها تتردد مرتين ، فنظرت إلى أعلى ورأيت أنه زرزور معلق في قفص صغير ، فقال الزرزور « لا أستطيع الخروج ، لا أستطيع الخروج » .

وقفت أنظر إلى الطائر ، وكلما جاء إلى المشى قادمٌ ، طار يرف إلى الناحية التي يدنو منها القدام الجديد ، وفي كل مرة يرئى لأسره بالعبارة نفسها « لا أستطيع الخروج » ؛ فقلت : « كان الله في عونك لىكنى سأطلق سراحك ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! » فأخذت أدور حول القفص أتمس بابه ؛ لىكنى وجدته ملفوفا بالسلك في طيات مزدوجة ، بحيث يستحيل فتحه بغير تحطيم القفص ، فهمت أن أفعل بكلتا يدي .

وطار الطائر إلى حيث كنت أحاول خلاصه ، ودفع رأسه خلال القضبان وضغط

(١) Uncle Toby . (٢) Corporal Trim . (٣) Wadman

(٤) A Sentimental Journey Through France and Italy

(٥) Yorick

بصدده عليها كأنما أخذه القلق ؛ فقلت : « أَلَمْ أَخْشِ أَيْهَا الطَّائِرُ الْمُسْكِينُ أَلَا أَسْتَطِيعُ لَكَ فَسْكَكًا » ، فأجاب الزرور « كلا ، لا أستطيع الخروج ، لا أستطيع الخروج » .

وأُفْسِمُ أن مشاعري تحركت عندئذ بعطف ما أحسست له مثيلاً قبل ذلك ؛ واست أذكر في حياتي كلها حادثة أثارت في نفسي فجأة ثورة جامحة — وقفت قواي العقلية إلى جانبها فقاعة واهية — بمثل ما أثارت تلك الحادثة ؛ نعم كانت نبرات الطائر في شكاته آلية لكنها جاءت مطابقة في أنغامها لأنغام الطبيعة ، حتى لقد ارتدت قواي العقلية المنطقية في لحظة إلى الباستيل ، وصعدت السلم بخطوات ثقيلة ، منكرراً على نفسي كل لفظة نطقْتُ بها إذ كنت أهبطه قلت : « تَذَكَّرْ بما شئت من قناع أَيْهَا الرُّقْ » ، فما زلت جرعة مريرة ، ورغم ما شهدته العصور كلها من ألوف أُرْغمت على اجتراءك ، فلم تقل بذلك عما كنت مرارة » ؛ ثم توجهت بالخطاب إلى ( الحرية ) قائلاً : « إن الناس لا يعبدون إلاك في السر والعلن ، أيتها الإلهة الرحيمة الحبيبة إلى النفوس ، إن مذاذك حلوا ، وسيظل كذلك إلى أبد الأبدن حتى تتبدل الطبيعة غير الطبيعة ؛ إن ثوبك الأبيض الناصع لن تلونه شوائب الألفاظ ، كلا ولن تستطيع قوة أن ترد صولجانك إلى قضيب من حديد ؛ إنك إذا افترتْ ثغرك بابتسامة على القروى الساذج وهو يأكل خبزه القديد جعلته أسعد من ملك أنت عن قصره مُبْعَدَةٌ . . . »

وبعد ، فقد استطاع « ستيرن » بكتابيه — و « ترسترام شندي » على وجه أخص — أن يحرك أجيالاً متعاقبة إلى الضحك والبكاء في آن معاً ؛ وقلماً تجمد في الأدب الإنجليزي أديباً آخر كان في مقدوره أن ينال بمثل إنتاجه القليل ما ناله من أثر عميق ؛ فهما قلَّتْ مادته رأيت في مستطاعه أن ينسج من خيوطها نسيجاً فاتناً جذاباً حلوا الفكاهة ؛ وإن كان لنا أن نقسم الأدباء صنفين ، صنف كدودة القز تغزل غزلها لأنها مليئة ، وصنف كالعنكبوت يغزل غزله لأنه خاو ، كان أديبنا « ستيرن » بغير شك من دود القز الذي يُفْرَغُ في غزله مادة أترع بها جوفه ، ومهما جاءت خيوطه دقيقة رفيعة ، رأيتها قويةً محبوكة ؛ وهو — في رأي كارليل — ضريب لسيرفانتيز في طلاوة الفكاهة التي استحق بها أن يحتل مكانه في طليعة الأدباء .



أولفر جولدسميث Oliver Goldsmith (١٧٢٨ — ١٧٧٤) :

ستقرأ عن هذا الأديب العظيم في ثلاثة مواضع من هذا الكتاب ؛ ستقرأ عنه هنا نائراً ، وفي مكانين آخرين مسرحياً وشاعراً .

ولد ألكسيس فقير ؛ ولما كان في سنته الثامنة أصابه جدري ترك وسماته الشائبة على وجهه طول الحياة ؛ وأرسل حين بدأ عهد الطلب إلى مدرسة تديرها سيدة ، فقالت عنه « لم أصادف قط طفلاً في غياب هذا الطفل » ؛ ثم عهد به بعدئذ إلى معلم كان قبل جندياً في جيش « مولبرا » ؛ وكان هذا المعلم الجندى زاحراً بالقصص عن البر والبحر وعن مغامراته ومغامرات سواه ؛ كما كان يحفظ كثيراً من الأغاني الشعبية الإيرلندية القديمة والقصص الخرافية ، ولعل هذا المعلم أن يكون أول من وجه أديبنا في سن الصبا إلى كتابة القصة ؛ وأخذ ينتقل الفتى في المدارس الريفية حتى أكمل ثلاثة عشر عاماً من سنّه فالتحق بكلية في دبلن يتعلم فيها بالجمان لقاء خدمات يؤديها ، وكان « جولدسميث » في الكلية متراحياً لا يحافظ على موعد أو نظام ، تؤرقه حاجته إلى المال ، فكان يكتب الأغاني ويبيعها ؛ وحدث أن أشرف عليه في الكلية مربّب غليظ القلب طاغية فلقى منه صاحبنا عنقاً ، من ذلك أن زاره بعض أصدقائه يوماً ، فدخل عليهم المربّي محتدم العواطف نائر النقس وصفع جولدسميث وركله فأوقعه أمام رفاقه ؛ فما طلع الصباح حتى باع الطالب كتيبه وغادر الكلية ليضرب في فجاج الأرض هائماً على وجهه ، فصادفه أخوه وكساه بكساء جديد وأعادته إلى كليته حيث أقام حتى ظفر بدرجة العلمية وهو في عامه الحادى والعشرين . وما فرغ من الكلية حتى أرسل له عمه مبلغاً من المال يمكنه من دراسة القانون في « دبلن » لاسكن أديبنا أضع المال على مائدة القمار ، وسافر إلى أدنبره حيث شرع يدرس الطب ولبث عاماً ونصف عام ، ثم حفزه حافز أن يرحل عن أرض الوطن ، فميم شطر بوردو في سفينة تحمل طائفة من الجنود الخوارج على القانون ، فسيق راكبوها جميعاً إلى السجن ، وظل جولدسميث في ظلماته أربعة عشر يوماً ، ثم عاد فضم على الابحار مرة أخرى ، وكانت غايته هذه المرة مدينة « روتردام » ومنها واصل الرحلة إلى « لندن » حيث التحق بجامعة عاملاً يواظب مرة وينقطع أخرى .

وعندئذ بدأ جولدميث « الرحلة الكبرى » سائرا على قدميه ، لا يملك من حطام الدنيا إلا جنيتها واحدا ومزمارا ، فكان وهو يحول في فرنسا يزمر للزارعين في رقصهم لقاء نومه وطعامه ؛ وطوف بعد فرنسا في ألمانيا وسويسرا وإيطاليا ، ويقال إنه وهو في بادوا ظمر باجازه الطب ؛ ولكن كيف السبيل إلى الرزق في إيطاليا ؛ فالتن استطاع زمواره في فرنسا أن يكسب له قوتا ومخدعا ، فإذا هو صانع بمزمارة في بلاد كل زارع في حقولها يفضلها في العزف والموسيقى ؟

أسرع إلى العودة إلى إنجلترا مفلسا مهلهل الثياب بشع المنظر ، فتعذر عليه أن يجد عملا يفتات منه ؛ ثم بدأ ينتقل من عمل إلى عمل كيفما اتفق له ، فهو اليوم معين لصيدلى ، وهو غدا طبيب يعالج المرضى ؛ وهو تارة يصلح التجارب في مطبعة ( هو الذى أصلح تجارب قصص رتشرسن ) وهو طورا حاجب في مدرسة ، وأخيرا عين محررا لمجلة شهرية . هنا بدأ جولدميث حياة أدبية يعتمد فيها على قلمه ؛ وأخرج سلسلة خطابه المشهورة *مُنَجَّمَة* في إحدى المجلات ، وهى التى تعرف باسم « المواطن العالمى » <sup>(١)</sup> وتجربى هذه الخطابات على لسان فيلسوف صينى يرسلها إلى صديق له فى الصين وفيها يصف الحياة كما شهداها فى إنجلترا ؛ وآيته فى النثر قصة « راعى ويكفيلد » ؛ وسنترك الحديث عن قصائده ومسرحياته إلى موضع آخر .

أما مجموعة مقالاته — أوخطاباته — التى نشرت باسم « المواطن العالمى » فهى ترمى إلى تصوير الحياة الانجليزية كما يراها الأجنبى ، وبين هذه المجموعة مقالات هى من أجود ما جرى به فى الانجليزية قلم ، نذكر منها بصفة خاصة « صاحب الرداء الأسود » <sup>(٢)</sup> و « بُوتبز » <sup>(٣)</sup> فهاتان شخصيتان جديرتان أن توضعا إلى جانب « سير روجر دى كثرلى » الذى صورهُ ادسُنْ ، وقد سلف الحديث عنه ، فاقرا هذه المقالات تجد متاعا لا يعد له متاع ، فأسلوب رشيق رائق ، وفكاهة جيدة لطيفة ، وسخرية مستساغة رقيقة .

طارت هذه المقالات بشهرة جولدميث ، فتسابق عليه الناثرون ، وأجزلوا له العطاء ، فتدفق المال غزيرا فى جيوبه ، لكنه ظل على فقره ، وماذا يصنع المال الغزير أمام هذا

. The Citizen of the World (١)

. Beau Tibbs (٣) . man in Black (٢)



الإسراف الشديد ، فلباسٌ فاخر ، وميسر ، وإحسان في تبذير ! واتصل جولدميث باعلام الأدب ، فهو صديق حميم لأمام العصر « الدكتور جونسن » وهو مجلسُ لمعشر الأدباء في « الندوة الأدبية » المشهورة في تاريخ الأدب والتي سيرد ذكرها عند الكلام على « جونسن » .

أما قصة « راعي ويكفيلد » فهي — كما يقول ناقد — شبيهة بسفر أيوب ، تتناول رجلاً طيب القلب ، وتمتحنه بالسكوارث المتلاحقة ، فتظل شعلة نفسه صافية النور وسط ما يحيط به من ظلام ، وفي آخر الأمر تجزيه عما صبر ، فترده إلى السعادة التي سُلِمَها ؛ وليست تُمدح القصة لفنها القصصى ، فهي هنا ناقصة معيبة ، وهي كثيراً ما تتجاوز حدود المعقول الممكن في عالم الواقع ، وتجعل في مجرى الحوادث دخلاً المصادفة أكبر مما نشاهده في الحياة . ويظهر أن « جولدميث » حين بدأ كتابة هذه القصة لم يكن في ذهنه حبكة الحوادث في إطارها ؛ ولكننا لا نقرأ هذا الكتاب لحبكتته ، وإنما نقرؤه ونقرؤه العالم كله لهذه الشخصيات الإنسانية التي أجاد الكاتب تصويرها . إن هذا الكتاب وحده لدليل على تشابه النفوس الإنسانية أينما كان الإنسان ؛ وإلا فكيف تهتز قلوب القراء من كل أرض وفي كل زمن لهذه القصة التي تصف أسرة إنجليزية تعيش حياة هادئة في بيت ريفي متواضع ؟

صموئيل جونسن ( ١٧٠٩ — ١٧٨٤ )

هو من الأدباء القلائل الذين سيطروا على الحركة الأدبية في عصرهم ؛ ولم يُسلمه الأدباء قيادهم لكثرة ما أنتج من أدب أو لامتيازه فيما أنتجه ؛ إنما سأس له قيادهم لقوة خلقه ورجحان عقله ؛ فبمثل تلك الخلال الخلقية العالية والخصائص العقلية الممتازة تكون العظمة في الرجال ؛ ولقد كان « جونسن » طوال حياته يعاني العلل ، ويقاسى ما ينتج عن ذلك من نفس ضيقة ومزاج مكتئب ، لولا أنه سرعان ما وجد في قوة الإيمان الدينى ما كان يرجوه لنفسه من طمأنينة وهدوء ، ولا عجب ، فهو المسيحي الورع صاحب الخلق القوى القويم والإحسان المتصل الذي لا ينقطع ؛ وكان لا يدنو منه أحد من معاصريه في حدة فهمه وقدرته العجيبة على الإعراب عما في نفسه من خواطر ومشاعر ، مما جعله

محدثاً من الطراز الأول ، يجلس بين رفاقه في « الندوة الأدبية » ، فيصّب ذخيرة عقله في عبارات تأخذ بجمالها الأبواب ؛ ولقد قيص الله للأدب « بوزويل »<sup>(١)</sup> — صديقه الحميم — فكتب سيرته وسجّل حديثه في كتاب هو في ذاته آية أدبية فريدة نادرة .

ولد في لشفيلد ، وأبوه « ميخائيل جونسن » كان يبيع الكتب في ذلك البلد ، وقد عُرِفَ بسعة علمه وسلامة رأيه ، بعث بانه إلى مدارس لشفيلد ، ولبث بها الفتى حتى بلغ السادسة عشرة ، وعندئذ أقام في الدار عامين وضع فيها أساس علمه وثقافته ، إذ انصرف إلى الكتب التي في مكتبة أبيه ، وهي كثيرة متنوعة ، ووجّه عنايته بصفة خاصة إلى المؤلفات اللاتينية ، وبذلك اكتسب علماً واسعاً بالأدب اللاتيني ؛ وبعد ذلك التحق بجامعة أكسفورد التي لقي بها ماجرح عزته وكبريائه ، فقد كان فقيراً يلبس الثياب البالية أحياناً وكثيراً ما يلجأ على وجوه أصحابه نظرات الإشفاق تارة والازدراء طوراً ؛ وأخذت الرحمة قلب صديقٍ فوضع أمام غرفة صديقه « جونسن » — في الخفاء — خذاءً ليستبدله الطالب المسكين بمخائيل المزق العتيق ، فما أبصر به « جونسن » حتى طوح به من النافذة ، وترك أكسفورد بغير درجة علمية .

وظل الأديب ينتقل من عمل إلى عمل ، وكلها لا يتناسب مع ما كتب الله له من مكانة عظيمة في أيامه المقبلة ؛ وصادف في تنقله أرملة تسكبره بعشرين عاماً فأحبها ، مع أنها امرأة لا تفتن بجمالها ولا تجذب بحسن حديثها ، تلبس الثياب الزخرفة التي تتنافر ألوانها ، ولا تدل على ذوق سليم ، وتصبغ وجهها على هيئة زرية ، لكن « جونسن » — بعينيه الضعيفتين — لم يرها كل هذه النقائص ، فهم بها حباً لا يرجو منه مالا لأنها فقيرة ، لكنها كانت له في الحق زوجة صالحة ؛ وبعد ذلك بقليل فتح مدرسة لم يشأ لها الله نجاحاً ، فاعزم الأديب أن يأخذ سمته نحو لندن ليحترف الأدب ويكسب منه القوت ؛ فما انغمس في العاصمة الصخباء حتى أحسّ مرارة الفقر على أشدها وكاد يهلك جوعاً ؛ ثم هداه الله إلى عمل ينتفع فيه بموهبته الأدبية ، وذلك أن يعرض في إحدى الصحف مناقشات النواب ؛ وكان مثل هذا العرض لما يدور في مجلس النواب محرماً في ذلك الزمان ؛



فلجأ « جونسن » إلى الرمز والإيماء ، فللمناقشات يزعم أنها تجري في مجلس الشيوخ ببلاد ليليت<sup>(١)</sup> ، و « بليفسكو » وهي فرنسا<sup>(٢)</sup> ، وهكذا وهكذا ، فلكل مكان اسم ولكل شخص رمز ، لكي يفهم القراء ولا ينال منه القانون — على أن الرجل لم يُعترف له بالقدرة الأدبية حتى نشر قصيدة « لندن » وطبعت طبعتين في أسبوع واحد ، ولفت بها أنظار « بوب » فعرفه وكان « بوب » إذ ذاك في أوج عظيمته .

ذاع صوته وعرفه الناشرون ، فعرض عليه بعضهم أن يكتب « قاموساً » للغة الإنجليزية في مجلدين ، وكان الأجر المعروض ألفاً وخمسمائة جنيه ، لكن معظم هذا الأجر تسرّب إلى من عاونوه ولم يكسب من هذا العمل المضي إلا قليلاً ، وظهر « القاموس » فجاء دليلاً على دقة لغوية ممتازة وسعة اطلاع على الآداب بدّت فيما كان يسوقه من الشواهد .

وظهرت له بعد ذلك قصيدة ثانية عنوانها « شهوات الإنسان وعبثها »<sup>(٣)</sup> وفيها يعرض لبعض من صعد ثم سقط من العظماء ، ويسخر أمر السخرية بما نسميه العظمة والمجد وما إلى ذلك من عبث وغرور .

وأخرج مأساة « أيرين »<sup>(٤)</sup> ولم يكن فيها موفقاً ، ثم اتجهت نيته نحو إخراج صحيفة ينسج فيها على منوال صحيفة « سنكتيتز » — التي كان يحررها « أدسن » و « ستيل » — وأطلق على صحيفته « رامبلر »<sup>(٥)</sup> (الطواف) ودامت عامين ، وقد حكم لها « رتشر دسن » القصص الذي عرفته فيما مضى — بأنها تضارع صحيفة « أدسن » إن لم تفقها ؛ لكن أسلوبها كان ثقيلاً مسرفاً في غرارة العلم الذي يسوقه والوعظ الخلق الذي يرمى إليه ، فأعوزه ما كان يتحلى به أسلوب « أدسن » من خفة ورشاقة ، وطلاوة ساحرة نفذت به إلى قلوب القراء ؛ ومضت بعد ذلك ستة أعوام — من ١٧٥٢ إلى ١٧٥٨ . ثم أخرج جونسن مجلة أخرى أطلق عليها اسم « أيدلر »<sup>(٦)</sup> ودامت هي الأخرى عامين كزميلتها .

(١) هي بلاد الأقزام في « رحلات جلفر » راجع « سوفت » .

(٢) وهذا الاسم أيضاً مأخوذ من رحلات جلفر ، وكان سوفت يرمز به إلى فرنسا .

(٣) Vaniy of Human Wisbes .

(٤) Irene (٤) Rambeler (٥) Idler (٦)

ومات أمه وهو لم يزل فقيراً لا يملك المال الذى ينفقه على جنازة جدية بها ، فنشط نشاطاً يخالف تراخيه المعهود ، وصمم على أن يؤلف كتاباً يدر عليه ما يسد به نفقات الجنازة ؛ ولم يمض أسبوع واحد حتى فرغ من السكتاب وأرسل مسوداته إلى المطبعة بغير مراجعة . ودُفِعَتْ له فيه مائة جنية ؛ ذلك السكتاب هو « راسلاس أمير الحبشة »<sup>(١)</sup> ، وتروى القصة كيف ضاق « راسلاس أمير الحبشة » ذرعاً بعزلته فى قصره الذى يقع فى واد بعيد عن خضم الحياة ، فصمم على أن يلوذ بالفرار من ذلك القصر إلى حيث الحياة الزاخرة فيراها ؛ وهكذا يبدأ « راسلاس » رحلة طويلة يطوف بها أرجاء العالم ويمر خلالها بأنوام مختلفة . وأهمية القصة تنحصر فى الخواطر التى تستثيرها مشاهد الرحلة ، والمناقشات التى تدور بين الأمير وبين من يلاقىهم فى طريقه ؛ وإذن فالقصة فى حقيقة أمرها ذريعة يستخدمها جونسن لعرض فلسفته وآرائه ؛ فلا حوادث القصة ذاتها تثير انتباه القارى ولا تصوير الأشخاص يستحق أى ثناء ، ذلك على قلة ما فيها من حوادث وأشخاص . وأما موضوعات البحث والحديث والتعليق فكثيرة ؛ يرد ذكر العلم فيقول : « إن حياة خُصِّصَتْ للعلم تمضى هادئة ولا تُفزعُها الحوادث إلا قليلاً » ويذكر الشعر فيقول : « إن الشاعر لا يعدُّ خطوط السوسنة . ولا يصف الظلال المتباينة التى تغشى خُضرة الغابة ، إنما عليه أن يبرز فى تصويره للطبيعة المعالم الواضحة الرئيسية التى تستعيد صورة الأصل فى ذهن كل قارى » ويذكر الزواج فيقول : « فى الزواج آلام كثيرة ، لكن العزوبة ليس فيها من المباهج شئ » — وعلى الجملة فالفلسفة العامة التى تسمع فى السكتاب كله هى فلسفة المتشائم التى ترى الدنيا غروراً وعبثاً ليس وراءه من طائل . « الحياة البشرية — أينما كانت — فيها كثير من الألم وقليل من المتعة » . ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن « فولتير » نشر كتابه « كانديد » فى نفس السنة التى نشر فيها « جونسن » كتابه « راسلاس » والسكتابان — كما ترى — يشتركان فى النظرة المتشائمة إلى الحياة ، ولا شك أن « كانديد » أروع فنا من « راسلاس » .

كان « صموئيل جونسن » قد بلغ فى عالم الأدب عندئذ مكانة الإمام الذى يقول السكامة فإذا هى القول الفضل ، وهى نفس المكانة التى احتلها سمئيه « بن جونسن » فى القرن



السابع عشر . وتكونت في لندن ندوة أدبية يجتمع فيها قادة الأدب ، وكان « جونسن » في تلك الندوة رئيساً ، وسائر الأدباء إلى جانبه أتباعٌ ومريدون ؛ وبين أعضاء تلك الندوة « أولثر جولدسميث » الأديب المطبوع صاحب « راعي ويكفيلد » ، و « إدمنديرك » أعظم الساسة في عصره و « جين » المؤرخ العظيم وغيرهم كثيرون — في تلك الندوة نتج الشطر الأعظم من الحديث الأدبي الذي ورثناه عن « جونسن » ، فقد كان جونسن — كما ذكرنا — متحدثاً بارعاً يتحدر الأدب من بين شفقيه إذا ما تحدث ، فسجل صديقه « بوزويل » أحاديثه تلك في السيرة التي كتبها عنه ، ولعلها أعظم ما شهدت الآداب من أدب السير .

وحدث أن زار « جونسن » اسكتلندة في صحبة « بوزويل » وجاسا خلال نجاحها للهجرة ، وعرجا على جزائر « هبريدز » التي كاد الناس لا يعلمون عنها شيئاً ؛ وأنتجت هذه الرحلة كتاباً هو « رحلة إلى جزائر اسكتلندة الغربية » ، وكان ذلك سنة ١٧٧٥ ، وهي السنة التي منحته فيها جامعة أكسفورد درجة الدكتوراه ؛ وبعد ذلك بعامين طالب إليه كبار الناشرين في لندن أن يكتب مقدمات لمجموعة كاملة أرادوا نشرها عن الشعراء الإنجليز ؛ فرحب « جونسن » بهذه المهمة وأقبل على أدائها في شغف ولذة ، فقد كان إناءه طامحاً بالحصول الأدبي والآراء النقدية ، وظل يكتب ويكتب حتى بلغ ما كتبه أربعة مجلدات كاملة ، وكان المطلوب فقرات قصيرة يهد بها لكل شاعر ؛ فجاء « تراجم الشعراء »<sup>(١)</sup> خير إنتاجه ، واستحق به أن يوضع في الطليعة بين رجال النقد في الأدب الإنجليزى ؛ وكانت خطته أن يبدأ بترجمة لحياة الشاعر ثم يعقب بنقد شعره موضحاً ذلك بالأمثلة التي يظهر فيها حسن الاختيار ؛ وأسنأ ندرى أى الجزئين كان أروع : وصف السيرة أو النقد ؛ فهو في عرض السيرة فنان بارع يصور الشخصية تصويراً قوياً في أسلوب قصصى جذاب ؛ وهو في النقد قدير حاد الذهن نافذ البصيرة . على أننا لا نحب أن نذهب في مدحه إلى حد الإسراف الذي يجاوز الإنصاف ، فقد كانت لارجل عيوبه ونقائصه ؛ فهو في جانب السير متأثر بوجهة نظره السياسية ، إذ كان محافظاً جامداً متعصباً ، فإن كان الشاعر الذي يترجم له على غير مذهبه رأيته يحجف به ولا يزنه بميزان عادل ؛

وهو في جانب النقد متأثر أيضاً بشيعة الآداب القديمة ، ولذلك تراه ناقماً على كل أدب فيه نزوع نحو « الابتداع » ، أضف إلى ذلك عجزه أحياناً عن تقويم الشعر بقيمته الصحيحة ، إذ لم تكن له الأذن الموسيقية التي تميز الأنغام تمييز الخبير ؛ ومن أخطائه النقدية المشهورة أنه قلل من قيمة « المقطوعات الشعرية » لمثلثين ، لأنه كان يكره هذا اللون من الأدب ، وأنه لم يتذوق قصيدة « لِسَدَاس » التي رثى بها مِثْلَتَن صديقه كِنَج ، مع أنها من أجود الشعر ؛ وأنه قسا في الحكم على سوفت لا شيء سوى أنه ارتاب في إخلاصه الديني . . . أما إن خلا جونسن من دواعي التعصب ، رأيت أحكامه صادقة ؛ فنقده لدریدن و يوب بلغ حد الإعجاز ؛ خذ هذا المثال من « حياة يوب » :

« في المعرفة المكتسبة لا بد لنا أن نعتز بالتفوق لدریدن ، الذي جاء تعلّمه أكثر انطباقاً على النظم المدرسية ، والذي أتيح له — قبل أن يأخذ في التأليف — زمن أطول للدرس ، وموارد أفضل لنيل المعرفة ؛ وعقله أوسع أفقاً ، وهو يجمع صوره الذهنية من نطاق علمي أوسع محيطاً ؛ وكان « دریدن » أكثر معرفة بالإنسان في سلوكه الخاص ؛ والأفسار عند « دریدن » تتكون بعد تأمل شامل ، وهي تتكون عند « يوب » من توجيه الانتباه إلى الأجزاء ؛ والمعرفة عند « دریدن » أكثر اتزاناً وهي عند يوب أكثر دقة .

« لم يكن الشعر هو الحسنة الوحيدة فيهما ، فكلاهما ضرب في الفثر كذلك بسهم موفور ؛ غير أن « يوب » لم يستمد نثره من سلفه ؛ فالأسلوب عند « دریدن » متعاقب متنوع ، والأسلوب عند يوب متأنق مطرد ؛ فدریدن يستمع إلى خابجات عقله . أما يوب فيقيس عقله على التزام قواعده في الإنشاء ؛ ودریدن في بعض الأحيان قوى متدفع ، أما يوب فلا ينفك سلساً مطرداً رقيقاً ؛ والصفحة عند دریدن كالخقل الطبيعي ، فيها تفاوت ، وتنوع باختلاف الخصوبة حيث يكثر النبات ؛ أما الصفحة عند « يوب » فرقعة من الخمل شذبها المنجل وسواها المقرض .

\*\*\*

عُرف جونسن بالتفخيم في أسلوبه ، فهو يؤثر الألفاظ القوية الطويلة ، حتى ليوصف باسمه كل أسلوب يجري على هذا النسق . والحقيقة أن أسلوبه يختلف باختلاف الموضوع



الذى يكتب فيه ؛ فهو أحياناً يستخدم الألفاظ القصيرة إن اقتضتها طبيعة الموضوع ؛ وهو أجود ما يكون أسلوباً حين يكتب كما يتحدث ، غير أنه في حديثه كان يتوخى العبارة القوية ، وفي ذلك يقول لأحد أصدقائه من رواد الندوة الأدبية : « لقد اتخذتها قاعدة منذ بعيد أن أبذل قصارى فى كل مناسبة وبين أية صحبة من المجالسين فى أن أعبر عما أعلمه كائناً ما كان فى أقوى عبارة أستطيع أن أعبر بها عن المعنى الذى أريد ، حتى أصبح ذلك عادة بالمران المتصل وبالحرص الشديد على أن لا تغلت معنى عبارة واحدة أهمل تركيبها ، وألا أخرج أفكارى قبل ترتيبها ترتيباً يودى إلى توضيح المعنى إلى أقصى حد مستطاع » . وكتابه « راسلاس » مثال للأسلوب المتكلف الفخم . أما « تراجم الشعراء » ففيه القوة مع السلاسة ، وفيه التنوع الخصب فى الأسلوب ، وفيه مرونة الجرس وبراعة الفطنة وروعة الخيال ؛ غير أن « جونز » يميل إلى موازنة العبارة صدرها مع العجز ، وإلى المقابلة التى كثيراً ما تكون آلية لا تصدر عن طبع ؛ كما يميل إلى الجملة الثقيلة فى لفظها المثقلة بمعناها ؛ فهو مثلاً يجزى على لسان فتاة فى سن السادسة عشرة ، تحدث عن عمتها ، هذه العبارة : « لم تكن عواطفها سامقة التسامى ولا نظراتها رحيمة الأفق ، لكنها خيرة المبادئ خالصة النوايا ، فلئن جاز أن يكون بعض الناس أكثر منها فضيلة » فقل أن تجد مَنْ يقل عنها إنمّا » . وهو كذلك يميل أحياناً إلى استخدام الألفاظ التى تدل على العلم والثقافة ولو لم يقتض الموقف مثل هذه الألفاظ ، وفى ذلك يقول ما كولى : « إن كل كتيبه مكتوبة بلغة علمية ( المقصود باللغة العلمية هنا اللغة التى تم عن ثقافة عالية ) لغة لا يسمعها أحد من أمه أو مرضعته ، لغة لا يشتجر بها الناس ولا يعتقدون بها الصفقات ولا يغازلون بها ، لغة لا يفكر بها أحد » .

ادورد جيبون Edward Gibbon ( ١٧٣٧ — ١٧٩٤ ) :

هو صاحب الآية التاريخية العظيمة ، « تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » <sup>(١)</sup> ، وقد ظهر منه الجزء الأول سنة ١٧٧٦ ثم بلغ ختامه بعد ذلك باثني عشر عاماً .

أُرسل « جِبْن » إلى جامعة أكسفورد وهو في سن الخامسة عشرة ، حيث أقام عاما وبعض عام هي « أشد آياي خمو لا وأقلها نفعا » . ثم حدث له أن قرأ « بوسويه »<sup>(١)</sup> فتأثر به وارتد عن عقيدته الدينية البروتستنتية ليعتنق الكاثوليكية الرومانية ، فاقضى ذلك أن يُفصل عن الجامعة ، فأرسله أبوه إلى قسيس في لوزان ما زال به حتى رده إلى عقيدته الأولى من جديد ؛ وأقام جِبْن في لوزان خمسة أعوام أدام فيها اطلاعه على الأدب اللاتيني والأدب الفرنسي ؛ فكان لطول غيابه عن بلاده أثر في انعدام اللون الإقليمي في أدبه ، فهو في مزاجه وأحكامه وأسلوبه ليس بالانجليزى الصميم ، وبهذا الطابع امتاز من سائر أدباء الإنجليز . وعاد الكاتب إلى أرض الوطن حيث التحق بالجيش المربط أعواما عدة ، أفادته — كما يقول — حين أخذ فيما بعد يكتب عن الحملات الحربية والمعارك في مؤلفه التاريخى العظيم ؛ ولسكنه ما لبث أن عاد إلى القارة الأوروبية من جديد ، يطوف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا . فلما كان في مدينة روما فضجت في ذهنه الفكرة عن إخراج شيء في التاريخ . يقول جِبْن : « كنت في روما في الخامس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٧٦٤ ، جالسا أفكر بين آثار « الكابيتل » ، بينما كان القساوسة الحفاة يرتلون صلاة المساء في معبد جوبتر ، وعندئذ بزغت في ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة في تدهور روما وسقوطها » . ثم عاد إلى إنجلترا مرة ثانية ، وأخذ يُعيد مؤلفه التاريخى الذى اعتزم إخراجه ، وهنالك انخرط في جماعة « الندوة الأدبية » التى التف أعضاؤها حول « جونسن » .

صدر الجزء الأول من كتابه فتقبله الجمهور قبولا حسنا ، بل صادف المدح والإعجاب عند العلماء والناقدين ، حتى من عرف منهم بالتمزت والعنت . والحق أنه كتاب ما كان ليصدر لولا ما بذله فيه مؤلفه من جهود مضية متصلة وصبر جميل لا ينفد ، فهو في الواقع يؤرخ للعالم المتمدين كله . « فليس سقوط روما سقوطا لامبراطورية وكفى ، بل هو زوال للون من الفكر وطور من أطوار العقائد الدينية والأخلاق والسياسة وأوضاع الحضارة بوجه عام ؛ فسقوط روما فيه فناء الوثنية القديمة ومولد العالم المسيحى الجديد ، وهو أكبر تطور شهده التاريخ »<sup>(٢)</sup> . وقد عالج جِبْن هذا الموضوع المتشعب بقدرة لا تزال تثير إعجابا

(١) راجع فصل الأدب الفرنسى في القرن السابع عشر

(٢) كتر مورسن Cotter Morrison



عند العلماء ؛ فعلى الرغم من تفرّع الموضوع وتعدد الحوادث والأشخاص ، لم تفتته الدقة في موضوع من المواضيع — وأخذت تصدر أجزاء الكتاب تباعاً ، وقد كتب الأجزاء الأخيرة وهو في لوزان .

والكتاب يبدأ بعرض جميل للتاريخ الروماني منذ عهد أوغسطس ، ثم يبدأ التفصيل من تربّع كومودس على عرش البلاد ( ١٨٠ م ) ويتتبع في وصف جميل وعبرة واضحة تاريخ الرومان ، وانحلال الامبراطورية الغربية نتيجة لغارات القبائل الهمجية القادمة من أواسط أوروبا ، وتطور الكنيسة المسيحية ونموها ، وتوطيد الدولة البيزنطية ، حتى يصل إلى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

وهالك مثالا من هذا الكتاب :

« ... وعلى رأس هؤلاء الأنجاد وحد ابنه نور الدين قوى المسلمين رويداً رويداً ، فأضاف مملكة دمشق إلى مملكة حلب ، وشنّ حرباً طويلة موفقة على المسيحيين في سوريا ، فبسط سلطانه القوى من دجلة إلى النيل ، وكافأ العباسيون عاملهم الأمن بكل ما يتمتع به السلاطين من ألقاب وحقوق ؛ وقد اضطر اللاتينيون أنفسهم أن يعترفوا بما لهذا العدو العنيد من حكمة وشجاعة ، بل بما له من عدل وتقوى ، وكان هذا المجاهد الورع في حياته وحكومته قد أعاد ما عُرِفَتْ به عهود الخلفاء الأولين من حماسة وبساطة ، فأزال من قصره الذهب والحريير ، ومنع في أرجاء مملكته احتساء الخمر ، وأنفق دخل الدولة في خدمة الشعب ، لا يتهاون في ذلك قيد أنملة ، وأما نفقات بيته — وكان فيها كزاً — فقد اعتمد فيها على نصيبه المشروع من الغنائم ، الذي استثمره في ضيعة خاصة اشتراها ؛ وحدث أن تحرقت زوجته العزيزة « سلطانة » شوقاً إلى حلية ثمينة مما يتحلى به النساء ، فأجاب الملك : « وأسفاه ! إنى لأخشى الله ، فما أنا إلا خازن لمال المسلمين ، وليس في وسعى أن أتصرف في ملكهم ، لكن لي ثلاثة حوانيت لا أزال أملكها في مدينة حمص ، فلك أن تأخذها ، وليس لي أن أهب شيئاً سواها » وكانت ساحة عدله ملجأ للعظيم ومأوى للفقير . فلما مضت بضعة أعوام بعد موت السلطان ، صاح في شوارع دمشق رجل أصابه غبن : « نور الدين ! نور الدين ! أين أنت اليوم ؟ انهض ، انهض لترحمنا ونحمينا ! »

ادمند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ — ١٧٩٧) :

هو من أعظم من أنجبهم انجلترا من الخطباء والمفكرين السياسيين ، ولد في دبلان ، وكان زميلا لجولد سميث في الجامعة ، وقد أطل القراءة في الأدب الإنجليزي والشعراء الانجليز وهو طالب ، وأسس في الجامعة « جمعية تاريخية » ، فكانت أول حلبة تجلت فيها مواهبه الخطابية والأدبية .

وكان أول نتاجه الأدبي « دفاع عن المجتمع الطبيعي »<sup>(١)</sup> ، ثم نُشر له بعد ذلك « بحث فلسفي في نشأة آرائنا عن الجليل والجميل »<sup>(٢)</sup> .

وهو كتاب في علم الجمال استوقف الأنظار وأثار الاهتمام عند صدوره لجدة الموضوع وطرافته ، إذ لم يكن قبل ذلك موضوع الجمال مطروفاً مألوفاً ، غير أن الكاتب في هذا البحث ينقصه كثير من العلم الضروري بشئون الفن لكي يستطيع الاجادة ، ثم اتفق مع ناشر على إصدار مجلة تاريخية ، هي « السجل السنوي »<sup>(٣)</sup> ، وظل أمداً طويلاً من حياته يواصل المجلة ببحوثه .

ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره دخل البرلمان حيث لبث عضواً مدى ثلاثين عاماً ، وكان « بيرك » رغم فصاحته الخطابية عضواً برلمانياً فاشلاً ، فقد كان يلقي الخطاب الجيد البليغ فلا يصغى إليه أحد ، ثم ينشره في صحيفة فإذا هو مثير لاهتمام القراء جميعاً ، وهنا يجدر بنا أن نعيد ما قلناه في الخطابة في الجزء الأول من هذا الكتاب .

« والخطابة إنما تكون أدباً حين تحتفظ الأنماط المنطوقة بقوة فصاحتها إذا ما خُطت على الورق لتقرأ ، فما أكثر ما تفنى خطب الخطباء مع الهواء كما تفنى ألحان المنشدين وأصوات الممثلين . والخطب ثلاثة أنواع : « خطب تُسمع ولا تقرأ ، وخطب تُقرأ ولا تسمع ، وثلاثة تشمل بتأثيرها العيون والأذان ؛ فهذا هوذا « غلادستون » مثلاً حرك النفوس بخطبه ، ولكنّها حين صُبت في أحرف المطابع بردت نارها ، وذلك هو « إدمنند

(١) A Vindication of Natural Society

(٢) A Philosophical Inquiry into the Origin of our Ideas of the sublime and Beautiful

(٣) The Annual Register



بيرك» ، لم يكن له من القدرة الخطابية ما يقنع البرلمان الانجليزى ، ومع ذلك فخطبه — مكتوبة — ساحرة فاتنة ، وهى تحتل مكانة رفيعة فى الأدب الخالد ، وأما خطباء اليونان فقد بلغوا بهذا الفن حداً بعيداً من السكال ..... » .

كان « بيرك » يلقى الخطبة فيمنهت لها الأعضاء الحاضرون ، لسكنهم لا يتجهسون لها ولا يقتنعون بها إلا إن قرءوها مكتوبة فى صحيفة ؛ بل أطلق عليه فى أخريات سنيه كنية تصف وقع خطبه ، هى « جرس الغداء » لأن نهوضه للخطابة كان إيذاناً بانصراف الأعضاء ؛ والعجيب أن خطبه فى جوع الشعب كانت على النقيض من ذلك ، إذ حركت نفوس سامعيها وهزت قلوبهم هذا حاراً عنيفاً ؛ فقد وجه اتهام إلى « هيستينجز »<sup>(١)</sup> وقام « بيرك » يخطب فى اتهامه ، فاسمع ما تقوله أديبة كانت تناصر المتهم : « أثار اهتمامى ثم ملأ على شعاب قلبي ، ثم حطمت قواى فى نهاية الأمر تحطياً ؛ أحسست أن القضية التى أناصرها قد ضاعت ، فكذبت لا أستطيع القرار فى مجلسى ؛ ولم تقوَ عينائى على أن توجهها لمحمة واخذة إلى رجل بلغ اتهامه ما بلغه مستر هيستينجز ، ووددت لو ابتلعتنى الأرض حتى لا أكلت عيني مثل هذا المنظر الأليم » والحق أن خطبته فى اتهام هيستينجز بلغت من جودة الصناعة وروعة الفن ما يتعسر معه أن تجد لها شبيهاً .

ومن آياته الباقية « آراء فى حالة التبرم القائمة »<sup>(٢)</sup> و « خطاب فى الضرائب الأمريكية »<sup>(٣)</sup> و « خطاب إلى رؤساء الأقاليم فى برستل »<sup>(٤)</sup> وغيرها ، مما يعد نموذجاً للقول فى الشؤون السياسية ، فهى مترعة بالحكمة العميقة ، والحكم الصائب ، والتأمل الفلسفى ؛ ولم تشهد الكتابة السياسية قبل « بيرك » هذه الذخيرة الزاهرة الخصيبة من الشواهد تساق فى لغة تتألق بلمعات الخيال ، وتكتسب حرارة من الرأى الأصيل والشعور الدافق العياض ؛ ولا عجب ، فقد كان الرجل يشتعل حماسة للذود عن المظلوم ورفع السياسة الإنجليزية — فى الداخل والخارج — إلى مستوى رفيع ؛ ومما يميز كتابته السياسية كلها نفوره من النظريات المجردة وانتزاع القواعد العامة ؛ فقد كان من المحافظين عملياً لا يتعلق بالآراء النظرية ، وإن أراد الإصلاح فقد كره التجديد .

. Thoughts on the present Discontents (٢)

. Hastings (١)

. Letter to the Sheriffs of Bristol (٤)

. Speech on American Taxation (٣)

وإن كان ذلك كذلك ، فلا بد أن تكون الثورة الفرنسية قد ساءت به عنها ، فتصدى لها بوجه إليها أمر النقد ويقاوم عوامل الهدم التي خلفتها الثورة ، وعندئذ ألف كتابه الخالد « تأملات في الثورة الفرنسية »<sup>(١)</sup> سنة ١٧٩٠ ، وحسبك أن تعلم أنه قد طبع إحدى عشرة طبعة في عام واحد ، لقدرك منزلة من القراء ؛ وكان كتاب « تأملات في الثورة الفرنسية » من أقوى الحوافز التي استعجت ملوك أوروبا على مقاومة الحركة الثورية ؛ لكن الثورة الفرنسية مضت في طريقها تقوض كل بقاء للنظام والقانون ، فيتميز صاحبنا من الغيظ ويغلي صدره بالعواطف المشتعلة ، ويخرج غضبه الحامية في « آراء في الشؤون الفرنسية »<sup>(٢)</sup> .

واعزل « بيرك » معترك السياسة إذ مات وحيد الذي حل من قلبه في السويداء ، فتحطمت قواه وازور عن الدنيا وعيها ، فلم يعد له فيها مأرب ولا رجاء . ومن خصائص أسلوبه تلاحق الإشارات وكثرة الاستعارات ، وهو يمتاز بالقوة والطلاقة ؛ وكثيرا ما يستعير الشواهد من الكتاب المقدس ، فقد أدهن قراءته حتى كانت آياته على سنان قلمه وتوقيع أنعامه حاضرة في ذهنه وهو يكتب ؛ وكان يحب التعبير عن المعنى الواحد في عبارات مختلفة ، ويميل إلى التكرار أحيانا — شأن الخطيب المصقع الذي يقصد بكلامه إلى صميم القلوب ؛ وهو يؤثر الأمثلة العملية المحسوسة على الأقوال النظرية المجردة ، وتراه يجمع بين الجمل القصيرة الحادة والجمل الطويلة المديدة .

وهذا مثال من « تأملات في الثورة الفرنسية » :

« مضت ستة عشر أو سبعة عشر عاما منذ رأيت ملكة فرنسا في فرساي ، وكانت إذ ذاك ولية للعهد ؛ وإني لعلّ يقين أن هذا الفلك السماوي — الذي لم تكن قد مسسته إلا مسّا رفيقاً — ما شهد قط أبهج منها منظراً ؛ رأيتها وقد أشرقت في الأفق منذ قليل ، تزين ذلك العالم الرفيع الذي بدأت لتوها تتحرك في أرجائه فلاته مرحا وبهجة ، وهي تتألا كأنها نجمة الصبح ، تملؤها الحياة والجلال والغبطة . أواه ! يالها من ثورة ! ويا له من قلب لا بد أن أحمله بين أضلعي لأتخيل ذلك الارتفاع وذاك السقوط دون أن يهزني



انفعال ! . . . لم يَدُرْ بخلدى أنى سألها حتى أرى هذه السكوارث تنصب عليها فى أمة  
عُرِفَ بالشهامة رجالها ، فى أمة يتصف بالشرف أبناؤها ، فى أمة فى أهلها نخوة الفرسان ؛  
لقد حسبت أن ألوف السيوف ستسفل من أغمارها لتثار لها لتوجهت إليها نظرة واحدة  
تهددها بالهوان ؛ لكن عهد الفروسية انقضى ، وأعقبه عهد فيه رجال الجدل الزائف  
والاقتصاد والحساب ، فذهب عن أوربا مجدها إلى الأبد ؛ وإن نرى بعد ، لن نرى  
ذلك الولاء السَّميح لأبناء الطبقة النبيلة وبنات الجنس اللطيف ؛ إن نرى بعد ذلك  
الإذعان فى عزرة ، وتلك الطاعة فى كرامة ، وذلك الخضوع يصدر عن القاب ويُبقي روح  
الحرية الشائخة حيّة حتى فى العبودية نفسها .

#### (ب) الشعر :

كانت بوادر المذهب الاتباعى قد ظهرت فى الشعر الإنجليزى فى أواخر القرن  
السابع عشر ؛ ثم بلغ هذا المذهب نهاية شوطه فى النصف الأول من القرن الثامن عشر  
على يدى « بوب » — أو فيما يسمى بالعصر الأوغسطى ؛ وهنا نرى لزاما علينا أن نوضح  
العناصر الأساسية فى المذهب الاتباعى فى الأدب ونحاول التفرقة بينه وبين المذهب الابتداعى .  
لسنا نريد بلفظ الاتباع أن الأديب يستقى وحيه من الآداب اليونانية والرومانية  
القديمة فحسب ، فذلك وحده لا يكون اتباعا ، لأن الأدب فى عصر الإصابات كان يستوحى  
تلك الآداب القديمة ، ومع ذلك فهو أدب ابتداعى خالص ؛ وإنما نعى مجموعة من الخصائص  
مجتمعة ؛ فالأتباعيون يعنون كل العناية باللفظ قبل المعنى ، بالصورة قبل المادة ؛ هم يكثر  
من القيود التى يراعون فيها أن تكون مستمدة من الآداب القديمة ، ثم تكون البراعة  
عند الأديب أن يحافظ على تلك القيود ؛ والشاعر الابتداعى يهتم بالمعنى وبالمادة التى يريد  
أن يعبر عنها ، ثم لا يتقيد بشئ حين يختار لنفسه أداة التعبير ، لأنه حر يختار أنسب  
أداة تُخرج المعنى الذى يريد إخراجَه قويا سليما ؛ أما الشاعر الاتباعى فيبدأ بالتسليم  
بضرورة صور معينة للتعبير ، ثم يحاول أن يعرب عما فى نفسه فى حدود تلك الصور .

وقد يتشابه الاتباعى والابتداعى فى المعانى ، لكن هنالك سمات تميز أحدهما من

الآخر ؛ فالسكاتب الاتباعي يميل إلى السخرية والهجاء ، وإلى أن يكون أدبه تعليميا تهذيبيا ؛ ويحب أن يصف حياة المدينة لا حياة الريف ووصفه موضوعي يتعلق بالشيء الموصوف أكثر منه ذاتيا يعبر عما يحيش في نفس الأديب الواصف ؛ على نقبض السكاتب الابتداعي ، فهو يميل نحو الطبيعة كما تبدو في كافة صورها ، ومن بينها الحقول والأزهار والحياة الريفية ، ويميل كذلك إلى وصف الغريب دون المألوف ، والمغامرة دون الاستقرار ، ثم هو في وصفه ذاتي يدون خلجات نفسه إزاء ما يصف ؛ ولئن كان الأديب الاتباعي يريد أن يعلم قارئه درسا بما يكتبه فإن الأديب الابتداعي يكفيه أن يغنى بما في قلبه ولا يعنيه بعد ذلك أفاد القارئ شيئا أو لم يُفد ؛ والاتباعي يحتمكم إلى العقل ويلاجم العواطف الحادة ، أما الابتداعي فيرخي العنان لخياله ولا يكتب شيئا من عواطفه ، بل — على نقبض ذلك — لا يرى الأدب إلا أداة للتعبير عن تلك العواطف .

### اسكندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨ — ١٧٤٤)

ولد في لندن لأب كان يشتغل بالتجارة ، وقد نشأ على عقيدة أبيه كاثوليكيارومانيا ، ولبث يعتنق تلك العقيدة طوال حياته ؛ وأهم ما يلفت النظر في سيرة الشاعر حقيقتان : الأولى نضجه المبكر ؛ والثانية علة جسده ، فقد ورث الدوار من أمه والجسم الشائه عن أبيه ، وحيل بينه وبين الجامعات بسبب عقيدته الدينية ، لكن الله وهبه نبوغا يستغنى به عن الجامعات ؛ ففي سن الخامسة بدأت تظهر عليه بوادر الذكاء الوقاد ، فأوصت له عمته بكل كتبها وصورها ؛ وفي الثامنة ترجم بعض أشعار لاتينية ، وفي الثانية عشرة ترك المدرسة وبدأ في داره دراسة ينظمها لنفسه بنفسه ، انصرف بها نحو الأدب ، وكان أكثر قراءته منصبا على « سبنسر » و « دريدن » ، وفي سن الخامسة عشرة نظم ملحمة طويلة ألقي بها في النار بعد نظمها ؛ وفي الثامنة عشرة كتب مجموعة « الأشعار الريفية »<sup>(١)</sup> ، وقبل أن يتم عامه الخامس بعد العشرين بدأ بمجوده الشاق الطويل في ترجمة هومر ، وحسبك ذلك دليلا على نضجه الباكر . أما علة جسده فقد قال هو عن حياته في إحدى قصائده إنها



« علة واحدة طويلة » ؛ كان أصلع الرأس قزما لا يزيد طوله على أربع أقدام محدودب الظهر قميئاً يبدو عليه المرض ، فهو لم يستطع حتى بعد اكتمال نموه أن يلبس ثيابه أو ينضوها بنفسه ؛ ففي الصباح كانوا يلقون له جسده بأربطة من القماش السميك لتقيمه ، وكان يلبس تحت القميص صداراً من فراء ، ويلبس ثلاثة أزواج من الجوارب تزيد قليلاً من سُمك ساقيه ؛ فقد كان من ضالة الجسم بحيث يتطلب مقعداً عالياً كلما جالس إلى مائدة كما هي الحال مع صغار الأطفال ؛ لكن إلى جانب هذا كله كانت له عينان جميلتان وصوت رخيم حتى ليسمونه بالبلبل الصغير .

أول ما نشر من شعر « بوب » « الأشعار الريفية » وهي أربع قصائد : واحدة عن الربيع . وثانية عن الصيف ، وثالثة عن الخريف ، ورابعة عن الشتاء ، وهو يحاكي بها « أشعار الحقول » لثيرجيل ؛ ونستطيع أن نعدّ هذه الأشعار بمثابة مرحلة التدريب ، على الرغم مما فيها من حلاوة أنغام ومرونة سياق وصقل .

ثم نشر له بعد عامين (١٧١١) « مقالة في النقد »<sup>(١)</sup> أنشأها وهو في التاسعة عشرة من عمره ، وقد قرّظها « أدسن » وكانت صلة التعارف بين الأدبيين الكبارين ؛ ويلخص الشاعر في هذه القصيدة مبادئ النقد الأدبي التي وردت في قصائد نقدية سلفت ، مثل قصيدة « الفن الشعري » لهوراس الشاعر الروماني ، و « الفن الشعري » أيضاً لبوالو الناقد الفرنسي في القرن السابع عشر ؛ ويقسم الشاعر قصيدته هذه ثلاثة أقسام يبين في أولها ضرورة أن يدرس الأديب أصول الذوق السليم وقواعده ، وأن يكون عماده على الطبيعة وعلى دراسة الأقدمين ؛ ويبين في ثانيها الأسباب التي تعطلّ فينا ملكة النقد السليم والحكم الصائب ، ويحصرها في عشرة أسباب : الغرور ، والعلم الناقص ، والحكم على القصيدة جزءاً جزءاً دون أن يُنظر إليها كلاً واحداً ؛ والتطرف إما إلى ناحية التعنت الذي لا يعجبه العجب وإما إلى ناحية التسرع في المدح فيقرظ كل شيء ؛ والتحزب لقديم أو جديد ، والهوى ، والشذوذ ، والتذبذب ، والتعصب الحزبي ، والحسد ؛ وفي القسم الثالث من القصيدة يبين وظيفة الناقد وطريقة أدائها ، فالناقد لا بد أن يجمع إلى سلامة

ذوقه وصدق حكمه وسعة علمه ، صراحة وتواضعاً وأدباً ولباقة ؛ وهو يبين في هذا القسم أيضاً خصائص الشاعر الرديء والناقد المعيب ، ويقابل بينها وبين صفات الناقد الكامل ، ويستعرض تاريخ النقد الأدبي بادئاً من أرسطو حتى عصره ؛ والقصيدة مكتوبة بالقافية المزدوجة ، نقتبس منها ما يلي :

قلّة العلم خَطْبٌ بالغُ الخطر حتماً  
فاشرب من القاع أو لا تذق للشعر طعماً

... ..

من يكسُ الطبيعة بالثوب القشيب فذاك الشاعر الفطن الأريب  
قول ما قيل تـسـكـرأراً ، في صيغة لم يسميها في الجمل ضريب

... ..

فمـعـظـمـهم حُكـمـهُ على القريض بما للشعر من أوزان  
إن سَلُسْتُ ، كان الصوابُ ، أو خَشَنْتُ — في رأيهم — شالت كفة الميزان ؛  
إن ربه الشعر الساطعة فيها ألوف من ضروب السّحر تجتمع  
لـسـكـن حَقِّ الأنعام هؤلاء لا يعجبهم من مفاتها إلا الصوت يُسْتَمَع  
إن مَنْ يَرْتَدُّ دولة الشعر — لا إلى تهذيب العقل يقصد —  
بل لمتعة الآذان ، كمن إلى السكندسة يذهب  
لا من أجل العقيدة ، لكن العزف إليه مُحَبَّب

وأنشأ الشاعر بعد ذلك قصيدة « اغتصاب الخُصْلة »<sup>(١)</sup> ، وهي قصيدة تهكمية تعالج موضوعاتاً فيها بالأسلوب الذي عالج به شعراء الملاحم العظمى موضوعاتهم الجادة الهامة ؛ فقد حدث أن غافل أحد اللوردات سيّدة جميلة فجزّ من شعرها خُصْلة ، فاختصمت من أجل ذلك الأمرتان ، فاتخذ الشاعر هذا الحادث موضوعاً لقصيدته ، أو ملحمته التهكمية ؛ ولما كان لا بد لكل ملحمة من عدّة خارقة للطبيعة تسيّر حوادثها — كالآرباب والآلهة في الملاحم القديمة — فقد اتخذ بوب من عرائس الجن والشياطين عدّة لملحمته ، وهو يبدأ



القصيدة — كما تبدأ الملاحم الكبرى — بتوجيه الخطاب إلى ربة الشعر أن تنشده :

أتى عدوان مخيفٍ من أسباب الغرام ينشأ

وأى عراكٍ عتّى عن التوافه يطرأ

وما « العدوان الخفيف » هنا إلا اغتصاب خُصلةٍ من شعر مَنْ أطلق عليها في قصيدته « بلندا »<sup>(١)</sup> (وهي في حقيقتها من فيرمز)<sup>(٢)</sup> ، ثم أخذ الشاعر يقص في أبدع تهكم وأروع سخرية كيف تم ذلك الاغتصاب وماذا كانت نتائجه ، وهو يجرى القول في نعمة الجدل على نحو يستثير فيك العجب والإعجاب ، انظر كيف يصف أدوات الزينة التي وقفت عندها « بلندا » تزين نفسها قبيل خروجها إلى ذلك الحادث المشؤم :

فهذا وعاء عن لآلى الهند الوضأة يُفتح

« وبلاد العرب » تنفست من ذلك الصندوق طيباً ينفج

السلحفاة هنا والفيل متحذان

تحولاً أمشاطاً : منها البيض ومنها أرقط الألوان ؛

ههنا خطوط من المشابك امتدت صفوفا صفوفا تتالق ،

أريجٌ ومسحوقٌ وزينةٌ ، وإنجيلٌ وخطابٌ مغرمٌ يتحرق ؛

وبعدئذ هم الشاعر بعمل جليل استغرق من سنيه ستماً ملأها بالمجهود المتصل ، فقد

أخذ ينقل الإلياذة والأوديسية شعراً إنجليزياً ؛ وكان « سيوفت » عندئذ يروج له في القصر

وفي طبقات المجتمع الراقية ، فيذيع بينهم أن « أنبغ شاعر في إنجلترا » يترجم هومر ، ويستحشهم

بقوله : « أريدكم جميعاً أن تساهموا في ترجمته لهومر ، لأنه لن يبدأ الطبع إلا إن جمعت له

ألف جنيه » ، وما أنتم « بوب » إخراج الملحمتين حتى كان له منهما تسعة آلاف ضمنت

له العيش الرغيد بقية حياته .

لم يترجم « بوب » عن اليونانية رأساً ، إنما نقل عن ترجمة فرنسية « لمدام داسيه »<sup>(٣)</sup>

. Miss Fermor (٢)

. Belinda (١)

. (١٧٢٠ — ١٦٥٤) Madame Dacier (٣)

وكان يرجع أحيانا إلى ترجمة « تشايمان » . وقد انشق النقاد في الحكم على ترجمة « بوب » ، فمنهم من رفعها حتى جعلها أروع ما يستطيعه مترجم — مثل بيرون — ومنهم من اتهمها بالعجز والقصور ، فقد قال عنها « بنتلي »<sup>(١)</sup> الناقد العالم : « إنها — يا مستر بوب — قصيدة جميلة ، ولكن لا يجوز لك أن تسميها هومر » . وقال عنها « جين » : « إن فيها كل ما يستحق المدح إلا أنها ترجمة أمينة ؛ ولعل أجمل ما قيل فيها إنها تشبه تمثالا خزفيا مزخرفا نُقِلَ عن تمثال يوناني من المرمر القوى في بساطة .

وبينا كان « بوب » مشغلا بترجمته للالياذة ، أخرج بضع قصائد صغيرة بلغ فيها غاية ما يستطيعه جودة وإتقاناً ؛ منها قصيدة « رسالة إلويزا إلى أبلارد »<sup>(٢)</sup> وهي تدور حول قصة مشهورة لحبيبين حلت بهما الكوارث ، فلجأ كل منهما إلى دير يقضى فيه ما بقي له من حياته ؛ وكتب « أبلارد » خطابا إلى صديق فوقع في يدي « إلويزا » وأيقظ في قلبها سالف حبها ، فأشدت هذه الرسالة ، وفي ختامها تخيلت الراهبة نفسها متكئة على قبر وأنها تسمع أصوات الموتى في القبور :

في كل نسيم يرفح حسبتُ روحا يناديني  
وجوار الجدار ظننتُ صوتاً — لم يكن بالصدى — يناديني ؛  
وههنا — وكنتُ في المصابيح الخالية من حولي أحدهج —  
من ذلك الضريح هناك سمعتُ صوتاً يتهدج :  
« تعالى — أختاه — تعالى » ( هكذا قال أو خيل لي )  
« مكانك ههنا — أختاه الحزينة — تعالى لا تمهلي ؛  
فيوماً رجفتُ كما ترجمين ، وكان مني بكاء ودعاء  
كنتُ آنئذ ضحية الحب وبث اليوم قديسةً عذراء ؛  
فسكون شامل ههنا في هذا النوم الدائم  
نسيتُ الأسى أناني ولا بكاء من الحب الهائم . . . »

فرغ « بوب » من ترجمة هومر ، وتدفع عليه الأرباح ، فأتخذ مسكنا هادئا على



ضفاف « التيمز » حيث كان يستضيف أعلام الأدباء في عصره وعلى رأسهم « سوفت » ،  
وههنا أنشأ « وب » ملحمة تهكمية أطلق عليها « دَنَسِياد »<sup>(١)</sup> — أو قصة الأغبياء —  
وفيها هجاء مرّ للأدباء الذين نابصوه العداء .

ثم أخرج « مقالة في الإنسان »<sup>(٢)</sup> وهي تتألف من أربع رسائل موجهة إلى « اللورد  
بولنجبروك »<sup>(٣)</sup> الذي أوحى إليه بفكرة القصيدة ، وهي محاولة — كالتى حاولها ملّتن — ؛  
فهو يسلط عتله الخالص على ما تحتويه الحياة البشرية من ألوان الشقاء وضروب  
التناقض ، ويبين أن الشر إن هو إلا نقيجة عجز الإنسان أن يرى السكون في مجموعه ،  
فينظر إلى أجزائه جزءا جزءا ، فيخيل إليه أن هذا الجزء شر في ذاته ، مع أنه مع غيره  
من الأجزاء يكون خيرا .

يزعم الشاعر في الرسالة الأولى من الرسائل الأربع أن الإنسان مخلوق كامل ، غير أن  
سعادته في الحاضر تعتمد على جهله بالمستقبل وعلى أمله في أن يتاح له عالم أكمل وظروف  
أصلح من العالم القائم والظروف الراهنة ؛ والغرور هو أس شقاء الإنسان لأنه يعميه عن  
حدوده التى يجب أن يقف عندها لا يجاوزها ؛ ويشير الشاعر إلى حماقة الإنسان في اعتبار  
نفسه علة الخلق وفي شكاته من أن الله لم يخلقه كاملا ، ويبين تسلسل الكائنات من الأنواع  
الدنيا إلى الإنسان فالملائكة فالله ، قائلا إنه إذا تحطمت حلقة واحدة في هذه السلسلة  
المتدرجة انهار بناء الكون كله ، ومن هنا كان من دلائل الفوضى والخروج على النظام  
أن يطمح نوع من الكائنات أن يكون أعلى مما خلق له ؛ وأن يتألم مما فرضه عليه الله  
من واجبات ؛ وهو يختم الرسالة الأولى بهذه الأبيات :

رويدك لا تقل عن نظام الكون إنه نقص ذميم

فنعيم الحياة الصحيح معتمد على هذا الذى تلوم ؛

اعرف من السكون موضعك : هذا الضرب وهذا النصيب

من العمى والضعف ، إرادةُ الله إياك تُصيبُ ؛

... ..

ما « الطبيعة » إلا « فنٌّ » جهلتَ مداه ؛

ما « الصدقةُ العمياء » إلا « قضاة » ولست تراه ؛

ما « الذئاز » إلا « تناغم » لم يُفهم ؛

ما « الشر في الجزء » إلا « الخير للكون » ولم يُعلم !

فرغم الغرور ورغم العقل الخطي ،

حقٌّ واضحٌ « أن كل ما في الكون صوابٌ » لم يخطئ ،

وفي الرسالة الثانية من « مقالة في الإنسان » يوضح « بوب » فلسفته ويبحث في الإنسان باعتباره فردا ، وهنا ينصح الإنسان أن يعرف نفسه — كما أوصى بذلك سقراط منذ قرون — وألا يحاول توجيه بحثه نحو الله ، لأن الدراسة التي يجدر بالبشرية أن تنهض بها هي دراسة الإنسان نفسه ؛ وبعدئذ ينتقل في الرسالة الثالثة إلى بحث الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع ، ثم يبين في الرسالة الختامية عناصر السعادة ومقدماتها .

والقصيدة — كساتر شعره — قوية الديباجة رصينة الأسلوب مزدوجة القافية ؛ أما من حيث المعاني ، فقد قال عنها ناقد حديث إنها مضطربة متناقضة صبيانية في كثير من مواضعها ؛ ومهما يكن من أمر فهي القصيدة التي طارت بشهرته في أوروبا ، إذ ترجمت إلى الألمانية والفرنسية بُعيدَ صدورها .

وكان ما أخرجه « بوب » بعد قصيدته « مقالة في الإنسان » مجموعتان من الشعر هما : « مجائيات »<sup>(١)</sup> و « رسائل »<sup>(٢)</sup> و « مقدمة الهجائيات » قصيدة مشهورة عنوانها « رسالة إلى الدكتور أربثنوت »<sup>(٣)</sup> ، وترجع أهمية هذه القصيدة التي تتألف من أربعائة بيت ، إلى أنها نموذج صادق لكل ما يتصف به الشاعر من خصائص ، فضلا عن أنها تنبئ عن كثير من سيرته كأنما هي ترجمة لحياته ؛ وتعدُّ الهجائيات — من حيث الألفاظ وجودة النظم — آية الشاعر .



كان في شخصية «بوب» كثير من المتناقضات — ولعل تناقض الشخصية من سمات الإنسان — فهو نحيل هزيل عليل لسنه وهب عقلاً دائماً الحركة دائب النشاط ، لا يهن ولا يفتر ؛ وهو مبتدع مبتكر ، لسنه في الوقت نفسه يحب أن يهتدى في أدبه بمن هو أعلى منه موهبةً ونموً ؛ وهو عدو قاس عُنُيف ، ومع ذلك فقد كان له أصدقاء حميمون يحبونه حباً نادراً بين الأصدقاء .

وإن أردت أن تعرف لبوب فضله على الأدب الإنجليزي فذاك هو ارتفاعه «بالقافية المزدوجة الحاسية»<sup>(١)</sup> إلى ذروة السكّال ؛ وقد أضحي هذا الوزن الشعري منذ «بوب» و«دریدن» خير أداة يستخدمها الشاعر في الشعر التهذيبي والشعر الهجائي ؛ فلئن كان «بوب» تلميذاً لسلفه «دریدن» فقد تفوق التلميذ على أستاذه في إتقان هذه «القافية المزدوجة» تفوقاً جعله أستاذاً لها غير مدافع ؛ ومما عُرف به بوب عنايته الشديدة بصقل شعره ، فكان لا يني يهذب البيت ويشذب أطرافه هنا وهناك ، حتى يجعل منه بيتاً سليماً واضحاً محكماً ؛ تراه جالساً في بيته أو في حديقته يحجول لفظاً ويثبت لفظاً ليبلغ بقصيدته ما أراد لشعره كله من جودة الصقل ومتانة التركيب وإحكام المعنى ؛ ولم يستهن في سبيل ذلك شيئاً مهما كان تافهاً لأنه يوقن «أن التوافه تصنع السكّال» ولم يكن يأخذه الملل من تغيير ما كتب وتحويره وإصلاحه وتهذيبه ، حتى ليقال إن كل بيت من نتاجه الفخم كتب مرتين على الأقل ، فلئن كانت شاعريته موضع ريبة من بعض الناقدين ، فحسبه هذه الصناعة التي بلغ بها أوج السكّال .

جيمس تومسون James Thomson (١٧٠٠ — ١٧٤٨) :

لم تمض روحُ الاتباع التي سادت في العصر الأوغسطيني والتي تزعمها «بوب» بغير مقاومة ومعارضة ورد فعل ؛ بل بدأ هذا الردّ وتلك المقاومة و«بوب» لم يزل حياً يقرض الشعر ، إذ اتجه بعض الشعراء إلى الطبيعة يستوحونها ، ثم أخذت الحركة الجديدة تتسع وتزداد حتى بلغت أوجها في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ؛ وقلة ضئيلة من الشعراء هي التي تابعت «بوب» في أتباعيته وصناعته ، ولعل ذلك راجع إلى اليأس من

(١) شرحنا هذه القافية بالتفصيل في «دریدن» فراجع .

مجاراته في صنعة القريض على مذهبه ، إذ لم يدعُ يوب في ذلك الفن زيادةً لمستزيد ؛ وكان « جيمس تومسن » بطل الشعر الطبيعي في عهد الصنعة والاتباع إبان العصر الأوغسطيني .

بدأ أول بواذر الشعر في « تومسن » حين نظم الذئيد التاسع عشر من المزامير ، فكان توفيقه في نظمه أقوى ما أوحى إليه أن ينصرف إلى الأدب ، فقصده إلى لندن حيث التحق بإحدى الأُمَر النبيلة سرياً لأبنائها ، وهناك وجد الفراغ الذي مكنه أن ينشئ قصيدة « الشتاء » التي نشرها وعمره ستة وعشرون عاماً ، والتي عقبَ عليها « بالصيف » « فالربيع » « فالخريف » ، وكان من مجموعة هذه القصائد الأربع ديوانه « الفصول » .

من هذا الاتجاه نحو الطبيعة يتبين لك الوجهة الجديدة التي خرج بها تومسن على يوب ومدرسته ، فقد عصى زعيم الشعر في القاعدة التي استنّها للناس وهي « أن ما يجب على الإنسان درسه هو الإنسان » ؛ وأجال « تومسن » بصره في أرجاء الطبيعة التي أحبّها وهام بها ، فكان الشتاء أول ما ظفر منه بالشعر ؛ يصف لك عاصفة مطيرة عاتية ؛ فالسما متجهمةً اختلط في أديمها الضباب والمطر ، والسهل مغمور بسيل أدكن طامٍ ، وقم الجبال وأشجار الغابات اضطربت أمام العين فلا تراها في وضوح وجلاء ؛ والمشيّة تدلّت أغناقها وهي تغوص في السهل كساه الوحل ، والدجاج اجتمع زرافاتٍ في أركان الحظائر فوتف سأكناً لا حراك به تنساقط من ريشه قطرات الماء ؛ لسكن ذلك لم يكن كل شيء في الشتاء ، فهناك الحراث يمرح وهو يصطلي مدفاته الوهاجة في بيته الصغير ، يتحدث ويضحك غير عابئ بهذه العاصفة التي تقع فوق سطح البيت ؛ ثم يخرج بك الشاعر صرة أخرى إلى الطبيعة ليطلعك على الأنهار وقد فاضت بمائها وعلى سيول الماء الدافقة وقد جرفت أمامها كل شيء ، فجسور محطمة وطواحين مهشمة ، وهيهات أن يقف سيل الماء شيء ، فهو بصدد السدود ويحتاز جلاميد الصخر في الطريق . . . ثم يغيّر الشاعر المنظر كأنما تبدل بفعل السحر ، فإذا أنت في سكون رائق صافي أعقب العاصفة ؛ وها هو ذا العصفور الصغير ينقر الزجاج في نافذة غرفتك ويضرب بصدرة الأحمر كسف الثاج التي جددت على الزجاج ، فيسُمُك حفيفاً لطيفاً ، ويراها الأطفال داخل الغرفة فيجتمعون له وراء الزجاج وينظر إليهم الطائر بعينيه الدقيقتين يلوى عنقه ذات اليمين وذات اليسار ؛



لكن هذا السكون لا يطول ، فينقلك الشاعر من جديد إلى مراعى الأغنام فى السهل الطليق ، فإذا الشتاء يستجمع قواه فى الهواء الذى أخذ يزداد برداً وظلاماً ، والناج يساقط ويكثف ، فيوجس الراعى خيفة ، لأن الثلج الكثيف قين أن يخفى عنه معالم الطريق ، فتبدو الأماكن المألوفة غريبة أمام عينيه ، فالوديان الجوفاء تظهر له مليئةً والكان الجبلى الوعر يتخذ صورة السهل البسيط ؛ وذلك ما حدث للراعى ، فقد غشيت الغاشية ووقف المسكين حائراً ضالاً وبدا السهل كله كأنما يدور من حوله إذ أخذت هبات الريح تعلو بطبقات من الثلج وتدور بها فى الهواء كأنها تدير ملاءة بيضاء ، وتمت المأصاة ومات الراعى ، ويأخذك الشاعر إلى بيته فترى الأطفال تجمعوا عند النافذة أو الباب يرقبون أباهم ، ولكن أباهم لن يؤوب .

ولست كل أيام الشتاء بهذا السواد الحالك ، ففي الشتاء أيام بهيجة صافية لا ينساها الشاعر . انظر إلى هذا القروي الساذج وهو يمشي فرحا فوق الثلج الجامد كأنه يخطو على أرض من البلور الشفاف !

هكذا تجرى الصور في قصيدة « الشتاء » وتعاقب ؛ وحسبك هذا لتعلم كيف انحرف « تومسن » بالشعر إلى الطبيعة بعد أن كان يحصره « بوب » في المدينة وآهلها .

وللشاعر غير « الفصول » قصيدة « حصن التراخي »<sup>(١)</sup> وهي قصيدة رمزية نظمها في البحر السُّبُنْسِرِيّ — ذات المقطوعات التساعية التي تجرى قوافيها ١ - ب - ١ - ب -- ب - ح - ح - ب - ح على أن يكون البيت في الثمانية الأولى مركباً من عشرة مقاطع ، والبيت التاسع من البحر الإسكندري ، أى مركباً من اثني عشر مقطعاً — وقصيدة « حصن التراخي » قسمان ، في أولها يصف الشاعر مباحج الحصن ، وفي ثانيهما يسوق ما أبدعه رجال الفن والصناعة .

نومسوس برای Thomas Gray (۱۷۱۶ - ۱۷۷۱):

بلغ الشعر في منتصف القرن الثامن عشر قصاره على يدي «جراي» الذي كانت له جودة الصقل التي ألفتها في «بوب» ثم أضاف إليها الاتجاه نحو الطبيعة الذي رأيناه عند

1. The Castle of Indolence (1)

« تومسن » والذي سيمهد السبيل إلى الحركة الابتداعية العظمى ممثلة في « وِرْدِزُورْث » ولد في لندن ونُشئ في « إيتن » وهي التي أهدى إليها قصيدته « نشيد الذكري البعيدة لـكلية إيتن »<sup>(١)</sup> ، وبعدئذ أتى عضاه في كيمبردج حيث استقر طيلة حياته إلا فترات قصيرة ؛ وكان منذ الصبا الباكر قد أبدى قدرة على الشعر اللاتيني ، فترجم إلى الشعر الإنجليزي طائفة من شعراء اللاتين الصغار ؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين قام برحلة في أنحاء فرنسا وإيطاليا وقد تركت فيه جبال الألباين الإيطالية أعمق الأثر ؛ ومات أبوه فعاد حيث استقر في كيمبردج سنة ١٧٤٢ ، وهي من أخصب سنياه إنتاجا ، ففيها أخرج « نشيد إلى الربيع »<sup>(٢)</sup> وهي مقطوعة شعرية (أربع عشرية) قالها رثاء لصديق له ، وأخرج نشيداً وجهه إلى كلية إيتن أسلفنا لك ذكره ، كما أنتج « ترنيمة الحنة »<sup>(٣)</sup> ثم بدأ في ذلك العام نفسه ينشئ قصيدته المشهورة التي خلده في صفحات الأدب ، وهي « مرثية كتبت في فناء كنيسة »<sup>(٤)</sup> وبعدئذ لم ينتج الشاعر إلا عدداً قليلاً من الأناشيد والقصائد ، أهمها « تقدم الشعر » .

هذا مثال نادر في تاريخ الأدب ، فانتاجه — كما ترى — ضئيل جداً ، فلم يكدر « جراي » يزيد على ثلاثين بيتاً من الشعر في كل عام ، ومع ذلك له مكانة عالية لا يدانيه فيها إلا أعظم الأدباء ؛ وأبرز ما يطبعه عنايته بالصقل عناية لا تجد لها مثيلاً عند أديب آخر ، فهو يكتب القصيدة القصيرة في عامين كاملين ! ولا يفتأ طوال العامين يراجع ما كتب ويعدل ويبدل ، ومن هنا كانت قصيدته الكبرى « مرثية كتبت في فناء كنيسة ريفية » درة لامعة برئت من كل النقائص والعيوب ، ولعل هذا الكمال في « السكيف » هو الذي عوض الشاعر عن النقص في « السكم » فسلكه التاريخ بين الخالدين ، وسنقتبس من هذه القصيدة الرائعة المقطوعات التالية خجلين إذ ننقل هذا البناء المحكم والأسلوب الرصين :

ربما يرقد في هذا المكان المغمور

قلبٌ كان يوماً يعمره قيسُ سماوي

(١) Ode on a Distant Prospect of Eton College .

(٢) Ode to Spring .

(٣) Hymn to Adveesity .

(٤) Elegy Written in a Centry Churchyard .



ويدان كانتا تحملان صولجان الملك

أو توقظان إلى نشوة قيثارة شجوية

لسكن العرفان لم ينشر أمام أبصارهم صحائفه المترعة

المليئة بما خلقته الدهور من آثار

وألجم الفقر المدقع فيهم غصبة شريفة

وجحد في أنفسهم تيار النبوغ

كم من لؤلؤة وضأة أنقى ما تكون شعاعا

تحملها كهوف البحر الملهمة البعيدة الأغوار

وكم من زهرة نبتت ليحمر وجهها خفية

فيذهب عنها الشذا في ريح البوادي مبددا

ربما يرقد « هامدين »<sup>(١)</sup> ربنى ذو قلب جرى

قاوم الطاغية الصغير في مزارعه

أو ربما يرقد « ملن » صامت في غير مجد

أو « كرمول » لم تدنس يديه دماء مواطنيه

وليم كوبر William Cowper (١٧٣١ — ١٨٠٠) :

هو سليل أسرة كريمة خلقه الله مرهف الحس حبيبا ، وقد عانى من حياته وحسه

المرهف ماعانى أيام كان يطلب العلم في مدرسة داخلية فيحرجه صغار الشياطين من زملاء

الدراسة ويوغرون صدره حتى يضيق بحمائه ذرعاً ؛ وبَدَتْ له قدرة بارعة وهو طالب في

نظم الشعر اللاتيني ؛ وخرج من معاهد العلم ولم يكد يخوض خضم الحياة حتى مات أبوه ،

وتعاورته بعد ذلك حالات نفسية غريبة ، مازالت تزداد خطراً حتى أصبحت مرضاً نفسياً

(١) Humpden صاحب ثورة مشهورة في تاريخ إنجلترا ؛ والمعنى أنه وبما رقد في هذه القبور

الرفيعة من لا يقل موهبة عن هؤلاء جميعا لكنهم لم يجدوا فرصة الظهور .

عضالاً دفعه مرة أن يزحق روحه بيده ؛ ويظهر أن قد نشأت علقته من العزلة والبطالة واليأس ؛ وعهد به إلى مصحة خاصة ردت إليه العافية بعد قليل ، لكنه فقد عملاً كان يرتزق منه وبدد ما كان معه من مال مُدَّخِر ، فامتدت إليه أيادي الإحسان من أصدقائه وذوى قريبه ، وانتظم له دَخْلٌ ضئيل ركن إليه وأوى إلى مكان « ادى » فى الريف .

وكانت الحركة الإصلاحية فى الدين ، التى قام بها « وزلى » <sup>(١)</sup> قد أثرت فى كوبر تأثيراً أوشك أن يكون ثورة وانقلاباً ، فعمله على شىء من التصوف الهادى الذى يبعث الطمانينة فى النفس القلقة الحيرى ؛ وسرعان ما وُحِّدَتْ وجهة النظر المشتركة بينه وبين رجل من رجال الدين فى عيشة واحدة ومسكن واحد ، هو « أليم أنون » <sup>(٢)</sup> لكن « أنون » فاجأته المنية ، فارتحلت أسرته واستصحبته كوبر ، وهنا عاود شاعرنا هوسه المرضى وتجهمت نفسه من جديد وحاول الانتحار المرة الثانية ؛ ثم تعهده الأطباء واسترد العافية ؛ وأشفت عليه زوجة أنون من الفراغ فاستحسنته أن ينشئ سلسلة من القصائد التى تعرف الآن باسم « حديث المائدة » <sup>(٣)</sup> وعندئذ توثقت صلة الود بينه وبين صديقة أخرى هى « ليدى أوستين » <sup>(٤)</sup> أرملة نبيل ، فكانت هذه السيدة مصدر وحي قوى لشعره ، من ذلك أنها قصت عليه ذات ليلة قصة « جون جيلين » <sup>(٥)</sup> فحولها كوبر فى الصباح التالى « حكاية منظومة » .

وأوحت إليه الصديقة الجديدة بموضوع قصيدة جديدة هى أطول قصائده ، أطلق عليها أول الأمر « الأريكة » ثم بدّل عنوانها فجعله « الواجب » <sup>(٦)</sup> ليشير بذلك إلى أنه واجب أداه تبعاً لأمر صديقه ؛ وفى هذه القصيدة الجديدة عثر الشاعر على ميدانه الذى خلق له ، فان كان الله قد وهب « يوب » قدرة بارعة فى تصوير الحياة فى الحضر المتأنق فقد كتب لكوبر أن يصور الحياة فى الريف الساذج ؛ ولم تسكد قصيدة « الواجب » تجد سبيلها إلى النشر حتى جاء فى إثره الصوت البعيد والشهرة الواسعة ؛ وبعد ذلك نشر « ترجمة لهومر » فى شعر مرسل ، لكن الترجمة لم تصادف قبولاً حسناً على الرغم من أنها

. William Unwin (٢)

. Wesley (١)

. Lady Austesn (٤)

. Table Talk (٣)

. The Task (١)

. John Gilpin (٥)



لا تخلو من الإجابة في بعض المواضع ؛ ولم تمض أيام حتى نشأت خصومة بينه وبين صديقه « ليدى أوستن » فتركته ، وشهد نفس العام موت صديقه الأولى زوجة « أنون » وهي التي توجه إليها الشاعر أثناء مرضها بقصيدته المشهورة « إلى ماري » ؛ ولم يفتج الشاعر بعد ذلك قصائد طويلاً . وكل ما أنشأه في أخريات أعوامه مجموعة من القصائد القصار مثل « فقد رويال جورج »<sup>(١)</sup> و « اسكندر سيلكيرك »<sup>(٢)</sup> ، وعلى هذه القصائد القصيرة الأخيرة تتركز شهرته اليوم .

وقصيدة « الواجب » هي أروع آثار الشاعر ، وهي شعر مرسل ومقسمة ستة أجزاء : « الأريكة » و « الساعة » و « الحديقة » و « المساء في الشتاء » و « مشية الصباح في الشتاء » و « مشية الظهر في الشتاء » ؛ وستعرض عليك موجزاً لأحد هذه الأقسام نموذجاً لبقيتها ، وليكن ذلك « مشية الصباح في الشتاء » . يستهل الشاعر بهذه الأبيات :

إنه الصبح ؛ والشمس في فلكها الوردى

صاعدة ، فأشعلت الأفق بفارها ؛ والسحاب

— الذي يفر في جموع أمام الرياح الطاردة —

يزداد إسراعاً كلما ازداد قرص الشمس صعوداً ،

فما أشد ما يشبه مدينة اندلع لهيبها

نظراً لها خلال غابة تعرت أوراقها ؛ وشعاع الشمس

ينحدر في غير أثر إلى جوف الوادي كسسته الثلوج ،

ملوئاً بصبغته الوردية كل شيء ،

من العُشْبَةِ إلى النَّبْتَةِ اللولبية

ثم يمضي الشاعر فيصف ما يصادفه في « مشية الصباح » — يصف المشية كسفة في أركان الحقل والحظائر ، والحطاب يسرع الخطى ، والدجاج يختال إلى طعامه ، وآثار الثلج والجليد على المياه الساقطة ، وما ينتج عن ذلك من أشكال جميلة ورشاش يستوقف

(١) The Loss of the Royal George ( رويال جورج اسم سفينة أغرقت ) .

(٢) Alexander Selkirk هو الذي انقطع في جزيرة موحشة فأوحى إلى « دفو » روبنسن كروزو

النظر ؛ فيدعوه هذا إلى حكاية قصر من الثلج شيدته أميرة ، ثم يستدعى ذلك إلى ذهنه الحروب ونشأتها ونمو الملكية وما يترتب عليها من شر ؛ ثم يقارن بين ولاء الشعب للملك في فرنسا وفي إنجلترا ، ويعرج على الكلام في الحرية فيوجه إليها خطاباً غاية في البلاغة ؛ ويذكر استبداد الحكم المطلق في فرنسا فيستنكره ، ويتجه بخطابه إلى سجن الباستيل فيتمنى الأمانى التى لم تلبث أن حققتها الأيام ، ويمتدح الحرية السياسية والاجتماعية التى تتمتع بها إنجلترا وتكون نغارها ومجدها ، ثم يذكر الحرية الروحية فى الدين فيثنى عليها ويعدها الخير الأسمى .

لم يكن « كوبر » من أعظم الشعراء الإنجليز ، ولكنه يمثل بشعره خير تمثيل تطور العناصر الجديدة التى دخلت على الشعر ، وهى العناصر التى انتهت فى فرنسا بالثورة الفرنسية ، وفى إنجلترا بثورة أدبية نهض بها « وردزورث » ، ونعنى بها عناصر الحرية وتحطيم القيود .

### أولفر جولدسميث :

قدمناه إليك نائراً ، وهانحن أولاء نعرضه أمامك شاعراً ، وإنما حشر جولدسميث بين الشعراء لقصيدتين مشهورتين هما « الرحالة » <sup>(١)</sup> و « القرية المهجورة » <sup>(٢)</sup> . أما « الرحالة » فقصيدة تهذيبية يقصد بها الشاعر إلى تلقين مبادئه ، تلمس فيها الروح الجديدة التى دخلت الشعر منذ منتصف القرن الثامن عشر ، إذ تراه يصف المناظر الطبيعية وصفاً صادقاً ، وهو فى هذه القصيدة وفى « القرية المهجورة » أيضاً ينفر من عناصر المدنية الدخيلة على الإنسان ، ويتمنى أن تعود الحياة إلى أحضان الريف ورحاب الطبيعة .

إن الطبيعة لاتنى — وهى للناس جميعاً أم رءوم —

تعطى خيراتها إن دعا داعٍ بحجاء العمل .

تُطعم بالقوت الزارع . . . أينما كان ؛

ولئن تجهمت قمم الجبال التى تتوجها الصخور



فتلك الصخور — بحكم العادة — انقلبت فراشاً وثيراً ؛

ولاصناعة أُنعم — بالقياس إلى الطبيعة — كثيرة مختلفات ،

ثروة ، وتجارة ، وكرامة ، وحرية ، ورضى ،

لكن هذه يقاثل بعضها بعضاً آخر قتال ،

فكأنما كل لكل فاتك هدام ؛

فحيثما سادت الحرية والثراء ، ضاع الرضى ؛

وغاضت السكرامة إذا امتدّ بازدهار التجارة الأمد ؛

فهو لهذا يؤثر خيرات الطبيعة على أُنعم الحضارة الصناعية ؛ وفي « القرية المهجورة »

كذلك يستدر إشفاق القارىء على قرية هجرها أهلها وقصدوا إلى المدينة ليعملوا في

صناعاتها ، وعجيب أن يؤثر الإنسان المدينة على الريف ، والريف من صنع الله والمدينة من

صناعة الإنسان ! هو في هذه القصيدة يصور لك القرية وهي عامرة بأهلها ثم يصورها وقد

خلفها أبناؤها ؛ وفي القصيدة كذلك شخصيات أبدعت ريشة الشاعر تصويرها ، منها

واعظ القرية ومنها معلم القرية :

هنالك إلى جوار السياج المتعرج الذى يتخذ الطريق

بأشجار من الزم الزاهر البهيج بلائير ؛

هنالك — فى بيته اللجج — على بسط النفوذ قد مهر ،

كان معلم القرية فى مدرسته الصغيرة يعلم صغاره ؛

إنه رجل عنيف ، عبوس فى مرأى النظر ،

عركته فمرفته ، كما كل طفل شرود قد عرف ؛

والراجعون من الصغار قد مروا أن يتنبأوا

من وجهه عند الصبح أى خطر خلال اليوم يُنتظر ،

وفى مروح زائف يتصنعون لقوله الضحكات

إن قال نكات ، وما أكثر ما كان له من نكات

وسرعان ما ترى كل جار لجاره قد همس

ليُفشروا أنباء المصيبة بينهم إن عَبَسَ ؛

لكنه كان — رغم هذا — ذا قلبٍ رحيم ، فإن قسا

كان حُبّه للعالم إلى قسوته حافظاً ؛

لم يَخَفْ عن كل أهل القرية علمه الغزيرُ

فهو على الكتابة — لا شك — قادر ، وعلى الحساب كذلك قدير ؛

يقبس الأراضى ، وينبئ بالفصول ومدّ البحار وجزرها

بل أشاعَ عنه الناس علماً بالمسكايل ومعيّارها ؛

وكان كذلك يُبْدَى في النقاش مهارته

تراه في الجدال هزيمًا ، لكنه ماضٍ يواصل حُجَّتَه ؛

ينطق باللفظ الطويل العميق الأجزل الرنان

فيدهش الحضور السذج الرامقيه بنظرة الحيران ؛

وما ينفكّون في دهش ، تزداد حيرتهم وتعظم

أن يحمل رأسٌ واحدٌ صغيرٌ كلَّ هذا الذي يعلم

روبرت بيرنر Robert Burns (١٧٥٩ — ١٧٩٦) :

إن نجد خيراً من هذا الشاعر مثلاً نسوقه لما طرأ على الشعر الإنجليزي من تغير بين

أول القرن — في بوب — وآخره — في الحركة الابتداعية التي تتجه إلى الطبيعة بأنظارها ؛

وهو — بعد — شاعر اسكتلنديّ أعظم من أنجبهم اسكتلندة في تاريخها من العشاء ؛

ولد في مكان قريب من « أير »<sup>(١)</sup> حيث كان أبوه يعمل عند صاحب ضيعة صغيرة

بستانياً ومشرفاً على ضيعته ؛ ولما بلغ الوليد سابعته ، استأجر أبوه مزرعة وانتقل إليها

بصحبة أسرته ، فكانت حياتهم عندئذ — كما وصفها بيرنر فيما بعد — « حياة راهب

مكتب ، لا يعرف المرح ، يملؤها عمل شاق متصل ، كأنهم العبيد الأرقاء » ؛ وتعلّم الصبي

كما يتعلّم سائر الصبيان في القرى ؛ لكن والديه كانا مشغوفين بالقراءة فخرى الابن على

غرار الأبوين ، وواصل القراءة في غير انقطاع ، لا يدّخر لحظة واحدة من فراغه إلا أنفقها



يطالع في الكتب — ولم تكن لحظات الفراغ طوبىة مواتية — فالتقى في مطالعته بخيرة الأدباء الإنجليز من شعراء ونائرين؛ ثم لم يكفِه هذا مع ما كان يبذله في المزرعة من جهود مضية تبدأ عند الشروق، ولا تنتهى إلا مع المساء، بل استطاع كذلك أن يتعلم الفرنسية وقليلًا من اللاتينية وبعض الرياضة؛ ومات أبوه فانتقل شاعرنا مع أخيه إلى مزرعة أخرى، وكان إذ ذاك في عامه السادس والعشرين، فأنفق أربعة أعوام أخرى في عمل متصل بمزرعته الجديدة، لكن المزرعة لم تغل شيئًا يقيم الأود؛ وفي هذه السنوات التي أضنته بمجهودها أخذت تنضج شاعريته وتفتتح، فقد كان أنشد قبل ذاك أغاني غرامية وأناشيد. أما اليوم فقد استنبطت ظروف حياته نبوغه الدفين، وأخرجت كل ما تطوى عليه نفسه من قوة في الهجاء لا يجاريه في مضمارها قرين؛ وازدهر أمام عينيه الأمل في أن يكون شاعر العصر في أمته جميعًا.

كانت روح الثورة تملأ الآفاق في أرجاء أوروبا جميعًا، فشرّب الشاعر تلك الروح الثائرة، وجاء شعره متأرججًا بالثورة على الأوضاع العتيقة القائمة؛ واشتد به العنف أحيانًا حتى جاوز به حدود الرصانة العقلية وأدب السلوك مما دعا الكنيسة أن تضعه موضع اللوم والتأنيب؛ وكانت اسكتلندة تضطرب إذ ذاك بانشقاق ديني قامت فيه الخصومة بين حزبين، أطلق على أحدهما حزب «الأضواء الجديدة» وأطلق على الآخر حزب «الأضواء القديمة»؛ فأما الحزب الأول فيأخذ بالافسكار الجديدة الحرة، وبضرورة التخفيف من قواعد الكنيسة الكاثنتية السائدة في اسكتلندة، ومع هذا الفريق المجدد وقف «بيرنز» وكتب سلسلة من القصائد الهجائية اللاذعة يهاجم بها مساوئ الكنيسة ونفاق القائمين عليها مهاجمة لم يعرف فيها هوادة ولا رحمة، فكانت قصائده تلك بمثابة السيّاط أثقلت أطرافها بالرصاص، وأخذ يهوى بها على جلودهم يمزقها شرممزمق، وأشهر هجائياته «السوق المقدسة»<sup>(١)</sup> و «دعوات (ويلي) للمتدين»<sup>(٢)</sup> و «خطاب لذي الخلق القويم الصارم»<sup>(٣)</sup>؛ وقد أراد بتلك القصائد الهجائية أن يطهر الكنيسة من أدرانها؛ وأن ينزع عن رجال الدين مسوح النفاق التي لم يرتدوها إلا ليخفوا نفاقهم تحت سترها، ولكنه في الحق

(١) The Hoily Fair (١) . Holy Willie's Prayer (٢)

(٣) Address to the Rigidly Riligeoves

ليُنشروا أنباء المصيبة بينهم إن عَبَسَ ؛  
 لكنه كان — رغم هذا — ذا قلبٍ رحيم ، فإن قسا  
 كان حُبّه للعالم إلى قسوته حافظاً ؛  
 لم يَخَفْ عن كل أهل القرية علمه العزيزُ ؛  
 فهو على الكتابة — لا شك — قادر ، وعلى الحساب كذلك قدير ؛  
 يقيس الأراضى ، وينبئ بالفصول ومدّ البحار وجزرها  
 بل أشاعَ عنه الناس علماً بالمكاييل ومعياريها ؛  
 وكان كذلك يُمدى في النقاش مهارته  
 تراه في الجدال هزيمًا ، لكنه ماضٍ يواصل حُجَّتَه ؛  
 ينطق باللفظ الطويل العميق الأجزل الرنان  
 فيدهش الحضور السذج الرامقيه بنظرة الخيران ؛  
 وما ينفكّون في دهَشٍ ، تزداد حيرتهم وتعظم  
 أن يحمل رأسٌ واحدٌ صغيرٌ كلَّ هذا الذي يعلم

روبرت بيرنر Robert Burns (١٧٥٩ — ١٧٩٦) :

إن نجد خيراً من هذا الشاعر مثلاً نسوقه لما طرأ على الشعر الإنجليزي من تغير بين  
 أول القرن — في يوب — وآخره — في الحركة الابتداعية التي تتجه إلى الطبيعة بأنظارها ؛  
 وهو — بعد — شاعر اسكتلنديّ أعظم من أنجيتهم اسكتلندية في تاريخها من العشاء ؛  
 ولد في مكان قريب من « أير »<sup>(١)</sup> حيث كان أبوه يعمل عند صاحب ضيعة صغيرة  
 بستانياً ومشرفاً على ضيعته ؛ ولما بلغ الوليد سابعته ، استأجر أبوه مزرعة وانتقل إليها  
 بصحبة أسرته ، فكانت حياتهم عندئذ — كما وصفها بيرنر فيما بعد — « حياة رهاب  
 مكتئب ، لا يعرف المرح ، يملأها عمل شاق متصل ، كأنهم العبيد الأرقاء » ؛ وتعلم الصبي  
 كما يتعلم سائر الصبيان في القرى ؛ لكن والديه كانا مشغوفين بالقراءة فحرق الابن على  
 غرار الأبوين ، وواصل القراءة في غير انقطاع ، لا يدخر لحظة واحدة من فراغه إلا أنفقها



يطالع في الكتب — ولم تكن لحظات الفراغ طوبلة مواتية — فالتقى في مطالعته بخيرة الأدباء الإنجليز من شعراء ونائرين ؛ ثم لم يكفهم هذا مع ما كان يبذله في المزرعة من جهود مضيئة تبدأ عفد الشروق ، ولا تنتهى إلا مع المساء ، بل استطاع كذلك أن يتعلم الفرنسية وقليل من اللاتينية وبعض الرياضة ؛ ومات أبوه فانتقل شاعرنا مع أخيه إلى مزرعة أخرى ، وكان إذ ذاك في عامه السادس والعشرين ، فأنفق أربعة أعوام أخرى في عمل متصل بمزرعته الجديدة ، سكن المزرعة لم تغل شيئاً يقيم الأود ؛ وفي هذه السنوات التي أضنته بمجهودها أخذت تفضج شاعر يته وتفتتح ، فقد كان أنشد قبل ذلك أغاني غرامية وأناشيد . أما اليوم فقد استنبطت ظروف حياته نبوغه الدفين ، وأخرجت كل ما تظوى عليه نفسه من قوة في الهجاء لا يجاريه في مضمارها قرين ؛ وازدهر أمام عينيه الأمل في أن يكون شاعر العصر في أمته جميعاً .

كانت روح الثورة تملأ الآفاق في أرجاء أوربا جميعاً ، فتشرب الشاعر تلك الروح الثائرة ، وجاء شعره متأججاً بالثورة على الأوضاع العتيقة القائمة ؛ واشتد به العنف أحياناً حتى جاوز به حدود الرصانة العقلية وأدب السلوك مما دعا الكنيسة أن تضعه موضع اللوم والتأنيب ؛ وكانت اسكتلندة تضطرب إذ ذاك بانشقاق ديني قامت فيه الخصومة بين حزبين ، أطلق على أحدهما حزب «الأضواء الجديدة» وأطلق على الآخر حزب «الأضواء القديمة» ؛ فأما الحزب الأول فيأخذ بالأفكار الجديدة الحرة ، وبضرورة التخفيف من قواعد الكنيسة الكاثنتية السائدة في اسكتلندة ، ومع هذا الفريق المجدد وقف «بيرنز» وكتب سلسلة من القصائد الهجائية اللاذعة يهاجم بها مساوى الكنيسة ونفاق القاعين عليها مهاجمة لم يعرف فيها هوادة ولا رحمة ، فكانت قصائده تلك بمثابة السيّاط أثقلت أطرافها بالرصاص ، وأخذ يهوى بها على جلودهم يمزقها شرمزق ، وأشهر هجائياته «السوق المقدسة»<sup>(١)</sup> و «دعوات (ويلي) المتدين»<sup>(٢)</sup> و «خطاب لذي الخلق القويم الصارم»<sup>(٣)</sup> ؛ وقد أراد بتلك القصائد الهجائية أن يطهر الكنيسة من أدرانها ؛ وأن ينزع عن رجال الدين مسوح النفاق التي لم يرتدوها إلا ليخفوا نفاقهم تحت سترها ، ولكنه في الحق

(١) The Hoiy Fair . (٢) Holy Willie's Prayer .

(٣) Address to the Rigidly Riligeoves .

قد جاوز في هجائه حدود اللياقة وحسن الخطاب ؛ وأشد في الوقت نفسه قصيدة عنوانها « مساء السبت عند ساكن البيت الصغير »<sup>(١)</sup> عرض فيها صورة جميلة للعقيدة الدينية السليمة في بيت زارع متواضع فقير ، وكان الشاعر أخصب ما يكون إنتاجاً بين عاميّه الخامس والعشرين والسابع والعشرين ، ففي هذه الفترة أنتج هذه القصائد وغيرها . ونشر الشاعر قصائده ، لكن صعاب الحياة أحاطت به فلم يصبر على المقام في أرض الوطن ، واعتزم الرحيل إلى « جامايكا » واحتجز مكانه في السفينة ، لولا أن السفينة لم تقلع في الموعد المضروب ، فاستطاع بعض رفاقه أن يحملوه على البقاء ، وشجعه على ذلك ما لقي ديوانه من نجاح ؛ فظل يطوف باسكتلندا ويقضى الشهور في أدنبرة ، ثم عاد فاستأجر مزرعة وتزوج من فتاة أحبها ، ثم عين في منصب متواضع فترك المزرعة ، وعندئذ أنشد بعض الأغاني ، ونظم إحدى قصائده الجياد وهي « تام أوشانتز »<sup>(٢)</sup> وأخذت قصائده الغنائية تقرأ حتى كون منها مجموعة هي أشجى ما يعرفه الأدب الانجائيزي من قصائد الغناء . عندئذ هم أديب اسكتلندي بنشر مجموعة من الأغاني الاسكتلندية أطلق عليها « المتحف الموسيقي » فساهم « بيرنز » في هذه المجموعة بأربع وثلاثين ومائة قصيدة معظمها جديد مبتكر ؛ واضطلع آخر بعد ذلك بقليل بنشر مختارات من الشعر الاسكتلندي كذلك ، فساهم شاعرنا في تلك المختارات بستين أغنية ، وكانت مساهمته في كلتا الحالتين بغير أجر ، وفي ذلك قال حين أرسل قصائده : « أما عن الأجر فلك أن تعد قصائدي فوق أن تؤجر أو دون أن تؤجر ، لأنها ستكون بغير شك إما هذه وإما تلك » فلا عجب أن عاش « بيرنز » في فقر شديد ، فقد كانت قصائده غالية القدر عظيمة الثمن ، ولو أراد بها الربح لكفا نفسه مؤونة الغناء للمادى الذي لاحقه طيلة حياته .

كان هذا الأديب القوي الفانيغ نائر النفس — كما أسلفنا — فلم يتوان في إعلان عطنه على الثورة الفرنسية ، حتى لقد أرسل إلى « حكومة الإدارة » في فرنسا بأربعة مدافع بحرية ومعها خطاب يفيض بالعطف والتأييد ، لكن المدافع لم يؤذن لها بالخروج من دوفر وورطه هذا الجماس الأحق في مشكلات مع أولى الأمر ، ومع ذلك فقد كان « بيرنز »



وطنيا يلتهب بالشعور القومي ، حرك الأمة كلها بقصائده الوطنية ومس بسحره صميم فؤادها ، ولما هدد نابليون البلاد بالغزو ، نظم نشيدا يتغنى به المتطوعون — وكان واحدا منهم — فحُرت به السنة القوم من أقصى البلاد إلى أقصاها .

لم يكن « بيرنز » مكثارا في شعره ؛ ولكن قليله كثير غزير إذا قست به هذه الظروف التي نشأ فيها ، وهذا الصراع العنيف المضى الذي لم ينقطع طول حياته يوما في سبيل القوت ، بحيث لم تمكنه الحياة من الانصراف إلى القريض في أمن ودعة ؛ ومن هنا استحال عليه أن يكتب القصائد الطوال لأنه إذا ما أمسك القلم أسرعت ضرورات الحياة فاضطرته للعمل ، فجاء شعره نفحات خاطفة ولمعات سريعة بارقة تستثيرها أعراض الحياة العابرة في نفسه الشاعرة ؛ ولما كان زارعا يفلح الأرض بيديه كان أصدق من يعبر عن خواطر الزارعين من أهل بلاده ، يخفف من عنائهم بحلو فكاهته ، ويفيض عليهم عطفاً لأنه واحد منهم ؛ وما نظن أن حياة الفقير وجدت من بصورها في وضوح وقوة كما صورها « بيرنز » في قصيدة « مساء السبت عند ساكن البيت الصغير » وهو فيها إنما يصور حياة أبيه وأسرته :

فما إن فرغوا من عشاء بهيج ، حتى نهضوا بوجه واجم ؛

والتفوا في حلقة كبيرة حول دفع النار

وتناول رب الأسرة في وقار الوالد الحازم

إنجيلا ضحما كان عند أبيه موضع اعتزاز وافتخار ؛

ونحى عن رأسه القبعة في إجلال وإكبار ،

وبدا عارضاه الأشتبان في نحول الذابل ؛

ومن أسطر سرت يوماً على « صهيون » في حلاوة الأوتار

انتقى جزءاً في عناية البصير الأمثل

ثم صاح « هيا نعبد الله » في لهجة الوقور الأكمل

وفي قصيدة « الكلبيين »<sup>(١)</sup> — قيصر ولواث ، فهكذا يسميها — يقارن بين

الغنى والفقير أيهما أسعد ، وهو موضوع طالما تناوله الأدباء ، لكن جدته لا تبلى لأنه

يمس النفس الإنسانية من قريب ؛ وهو يدير الحوار فيها بين السكابين في قوة وبراعة  
واتزان ، وإن لم يكن إلى جانب الفقير أميل ، يقول « لُوث » :  
هلاً أنباتنى ، سيدى قيصر ،  
إن كانت حياة الأغنياء سعادةً خالصة ؟  
فلا ينال منهم بردٌ ولا جوعٌ ؟  
فيجيب كلب الغنى :

لو أقمّت ، سيدى ، ساعةً حيث أقيمُ  
ما غَبَطَتِ السادةُ الأغنياء على نعمي  
نعم هم لا يتضورون من جوع ولا يجهدون  
إن قرّ الشتاء ببرده أو اشتدّ قىظ الصيف ،  
وليس يهرى عظامهم عمل منك شاق  
ولا هم يعرفون في الشيخوخة العلل والآلام  
لكن بنى الإنسان أفدّامٌ وحقى . . . .

فإذا لم يكن ثمة ما يضيّقون به من المتاعب والصعاب  
عمدوا إلى خلق ما يعكّر صفوهم من حق ومن غباء  
وأعظم ما ورثه « بيرنز » للأدب الإنجليزي من ثراء هو أغانيه ، فهو منشد القصائد  
الفنائية الذى لا يدنو منه شاعر آخر في ذلك الأدب ، فكأنما كانت روحه معيناً تنبثق  
منه الأنغام انبثاقاً متداركاً متلاحقاً ؛ وهو عجيب في سرعة تفجر ينبوع الشعر في نفسه كلما  
عرض لقول الشعر عارض ، تراه في مثل لمح البصر يلتف المعانى الشاردة ويسوقها في  
عبارة مُحسِن اختيار ألفاظها بحيث يستحيل أن تبدل بلفظه لفظاً آخر خيراً منه ، فهو يختار  
الألفاظ التى تفتن الآذان بسحر أنغامها وهو وإن يكن قومياً في أغانيه إلا أنه يمس بها  
العواطف الإنسانية العامة بين البشر ، فهو — مثلاً — فى أغنيته « قبلة حارة » يعبر  
— كما قيل — « عن أبجدية الشعور ، وهو يضمنها جوهر هذا الوجود الذى تتجاوز فيه  
اللذة والألم ، فيخرج ذلك الجوهر في قطرة واحدة محترقة » وهذه الأسطر الأربعة  
ختم الأغنية :



لو لم نُحِبَّ بكلِّ قلبينَا  
لو لم يُعَمِّمِ الحبُّ عينينَا  
لو كنا أبدأ لم نلتق — أو كنا أبدأ لم نفتق  
لما أحسنا قط بهذا القلب المحترق

### ( ح ) المسرح :

ذهب القرن السابع عشر فذهبت معه المأساة بموت « دريدن » ، والمهارة الفطنة الفكهة بعد « كونيغريث » ، ولبثتا في ركود حيناً طويلاً من الدهر ، إذ لم تجدوا في القرن الثامن عشر إلا قليلاً من الفواغ يسعفونهما

فالنظارة الذين أيدوا المسرحية في عصر عودة الملكية ( النصف الثاني من القرن السابع عشر ) كانوا من رجال القصر وطبقة النبلاء وعلى رأس هؤلاء وأولئك الملك نفسه ؛ ولما جاء القرن الثامن عشر ذهب عن المسرح تأييد القصر ، فلم يكن ولیم الثالث ولا الملكة آن من رواده ؛ ثم اتسعت الهوة بين القصر والمسرح حين تولى ملك البلاد جورج الأول الذي لم يكن يفهم الإنجليزية ، وتلاه جورج الثاني الذي كانت إنجليزيتة مصبوغة بصبغة ألمانية — فلم يعد المسرح أملٌ في تلك الطبقات الرفيعة ؛ وإن لم يوفق إلى اجتذاب الطبقتين الوسطى والدنيا إليه فلا رجاء له في حياة أو بقاء ، لكن الطبقة الوسطى أخذت تعود إلى المسرح رويداً رويداً وذلك بفضل ما طرأ على المسرحية نفسها من تطور وتغير في وجهة النظر ؛ ففي عصر عودة الملكية ، كان تفكُّه المهارة كله يدور حول أخلاق تلك الطبقة الوسطى ليضحك النبلاء والسادة ، وكان من الطبيعي أن ينفر أبناء تلك الطبقة من المسرح فلا يخلطون إليه ، فلما تبدل أساس المهارة في القرن الثامن عشر ، وقام على أساس خلق يرضى عنه الناس من تلك الطبقة ، أقبلوا على التمثيل يشاهدونه ويستمتعون به ، وتسمى هذه المهارة الجديدة « بالمهارة العاطفية » <sup>(١)</sup> والأساس فيها عرض مشكلات الأسرة التي تنشأ كل يوم ، فليست ترمي إلى مجرد الهزل والإغصاك ، إنما تريد

التقويم الخلقى وإصلاح السلوك المعوج ، حتى لينفر النظارة من كل منظر أو حديث فيه خروج عن حدود العفة اللفظية والاحتشام في السلوك ، والملمهة من هذا النوع قد تستدر الدمع أكثر مما تستدر الضحك<sup>(١)</sup>.

وأشهر من ذكره من كتّاب الملمهة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر «رتشرد كبرلاند»<sup>(٢)</sup> (١٧٣٢ — ١٨١١) الذي كتب ما يربى على ثلاثين مسرحية — بعضها مأس — وأشهر ملامه «رجل من أهل الهند الغربية» وتتمثل فيها النزعة العاطفية التي أسلفنا عنها الحديث ، كما تظهر فيها الغاية الخلقية وملخصها أن رجلا من جزائر الهند الغربية يدعى «بلكور» يشتغل بالتجارة وأثرى عن طريقها ، تبني طفلا أطلق عليه اسم «بلكور» أيضا ، وجعله وارثا له بعد موته ؛ وورث الفتى ثروة مُتَبَنِّيه ورحل إلى إنجلترا ، فسرعان ما أحب فتاة للنظرة الأولى هي «لويزا ددلى» رآها بين حشد من الناس في متجر ، وتعقبها في الطريق لكنه فقدتها في الزحام ، وخيل إليه أنها دخلت منزلا معينا ، فطرقه وصادف فيه زوجين يميلان إلى الشر ، وتصادف أن والد فتاته لويزا يساكنهما في نفس الدار ؛ ولمح هؤلاء في الأجنبي الغريب سداجة وكرما ، فعرفوا أنهم وقعوا فيه على مورد للسكسب ؛ ووعدوه أن يقدموا إليه فتاته المنشودة ، بعد أن أفهموه أنها تخدم شابا يدعى «ددلى» تدعى أنه أخوها (والحقيقة أنه أخوها) وفي ضوء هذا التضليل حاول «بلكور» أن يغازل الفتاة ، وأدى ذلك إلى مبارزة بين الأخ والحبيب ، وعلم «بلكور» أن «ددلى» هو أخ لفتاته فاعتذر عن خطئه وغفر له ؛ وسارت الأمور كلها في طريق الخير ، فورث «ددلى» ضيعة كان أوصى له بها وأخفت خالته الوصية لتحول دون إتمام الإرث ، لكنها فشلت وانتهت الضيعة إليه ، وقبلت لويزا أن تتزوج من بلكور ، وأخيرا ظهر رجل كان يتابع بلكور عن كثب منذ وصوله إلى إنجلترا ، وكشف عن نفسه وإذا به والد بلكور وتنتهى الرواية والأشياء كلها في وضعها المستقيم .

ثم جاء «جولدسميث» — وقد أسلفنا عنه الحديث ناثرا وشاعرا — فرأى

(١) لاحظ الشبه بين الملمهة العاطفية والملمهة الباكية التي شاعت في فرنسا في نفس الوقت .

(٢) Richard Cumberland .



تكلفا في الملهاة العاطفية وخرج عليها ، وكان أول خروجه في ملهاة « الرجل الطيب بفطرتة »<sup>(١)</sup> لكنها فشلت لأنها تعارض الذوق العام ، فهي مهزلة ورواد المسرح لا يحبون المهازل ، إنما يريدون ملهاة رصينة لا تنحرف عن تحليل العواطف الجادة المحزنة أحيانا ؛ ثم ظهرت له ملهاته الثانية « تَمَسَّكَنْتَ فتمَكَّنْتَ »<sup>(٢)</sup> وهي كذلك مهزلة من نوع سالفاتها ، لكنه كان فيها رائعا بارعا فاجتذب إليه النظارة رغم أنفها .

وتابعه في هذا اللون الجديد « شريدان »<sup>(٣)</sup> (١٧٥١ - ١٨١٦) وكانت أولى مهازله « المتنافسون »<sup>(٤)</sup> وفيها يبعد عن روح الجد التي سادت الملهاة العاطفية ، ويقصد إلى التسلية لا إلى التحليل ، وأعظم مهازله « مدرسة الفضائح »<sup>(٥)</sup> ، و « الناقد »<sup>(٦)</sup> ولا يجدى في مثل هذه المسرحيات تلخيص لأنها تعتمد على المواقف المضحكة والفكات البارة ، فلا بد لمن شاء أن يستمتع بها من قراءتها أو مشاهدتها وهي مما يعود إليه رجال المسارح آنا بعد آن .

وأما المأساة في القرن الثامن عشر فضعيفة لا تكاد تجد لها مكانا في هذا الكتاب ، وحسبنا أن نشير من رجالها إلى « لالو » (١٦٩٣ - ١٧٣٩) بمأساته « التاجر اللندني أو تاريخ جورج بازنول » و « مؤز » بمأساته « المقامر » وقد ذكرنا لك كلتا المأساتين ونحن نحدثك عن المسرحية في فرنسا في القرن الثامن عشر لما كان لها من أثر في توجيه المسرحية إلى مشكلات الطبقة الوسطى التي تنشأ في الحياة اليومية .

(١) Good-Natered Man (٢) She Stoops to Conquer (٣) Sheridan (٤) The Rivals (٥) The School for Scandal (٦) The Critie

## الفصل الثالث عشر

### الأدب الألماني في القرن الثامن عشر

لقد قيل إن في الأدب الأوروبي فترتين خَفَقَتْ فيهما أوروبا بقلب واحد كأنهما أمة واحدة ؛ إحداهما عصر الحروب الصليبية والأخرى هي القرن الثامن عشر ، ففي الأولى اتجهت جهود الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أوطانهم نحو غاية واحدة وشخصت أبصارهم جميعا إلى أمل واحد ، هو استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ؛ فكان إذاً عصرَ جهاد ونضال ، وكان المثل الأعلى هو الفحولة في البطولة والمهارة في القتال ، فجاء الأدب الأوروبي كله ناطقا بالفروسية في شتى أوضاعها ؛ وأما القرن الثامن عشر فهو عصر التنوير والتحرير ، فأوروبا كلها ساعية نحو حرية الفرد والجماعة . فأما نصيب إنجلترا في هذا السعى فهو الصناعة والاستعمار ، إذ من شأن الاستعمار والصناعة أن يخلقوا طبقة عاملة كاسبة مستثمرة ، هي الطبقة الوسطى ، فإن أثرت هذه الطبقة كان لا بد لها أن تتوسع في حقوقها السياسية ، ومن ثم تقلُّ الفوارق بين الطبقات أو تزول ، وكانت النغمة السائدة في الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر هي هذه الطبقة الوسطى : تُسَكِّبُ القصة من أجلها . وتمثل المسرحية لتشبع حاجتها ، وينشد الشعراء ما ينشدون عن رجالها ؛ ومن هنا جاء الأدب الإنجليزي في ذلك العهد عمليا واقعيا لا يشطح مع الخيال الشارد ؛ وأما نصيب الأدب الفرنسي في هذا التحرير فهو وضع الأصول والقواعد ، فهو لا يزال في المرحلة النظرية الخالصة ، ولم يكن يسعه غير هذا قبل انفجار الثورة الفرنسية الكبرى ؛ فبينما كان الإنجليزي قد أَلِفَ الحرية في حياته ، كان الفرنسي يتأمل نظرياتها ويفكر في قواعدها ؛ ففولتير وروسو وديدرو ومنتسكيو وغيرهم من رجال الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر لم يريدوا بما كتبوا إلا نَحْوَ القديم وإنشاء الجديد على أساس الحرية العقلية والسياسية ؛ وهنا نقلت إلى ألمانيا لنرى نصيبها في بناء هذا الصرح الذي ساهمت في بنائه أوروبا كلها ، فنراها أمة لا كالأمم ، بل مجموعة من دولات قام على كل منها أمير



يطمح أن يضارع يملكه الصغير أبهة فرساي ! لم يكن الألمان في القرن الثامن عشر شعبا سياسيا واحدا ، فبديهي ألا يكون الأدب سياسى الصبغة كالأدب الفرنسى في ذلك العهد مثلا ؛ ولم يكن الأدباء الألمان قد ذاقوا طعم القومية ، فبديهي كذلك ألا ينجى أديبهم الكبير أو شاعرهم العظيم ناطقا بالعزة القومية والفخر الوطنى ، فانطوى الأدباء على أنفسهم يحرقونها !

الأدب الألماني في القرن الثامن عشر يهتم بالفرد لا بالجماعة ، والغاية التى ينشدها هى تحرير النفس الإنسانية من قيودها حتى تخلق صاعدة فى أجواز السماء ، فهو لم يُرِدْ للفرد حرية سياسية واجتماعية كزميليه فى إنجلترا وفرنسا ، بل أراد له حرية روحية ؛ وليس يحيط من قدره أنه لم يعالج الأغلال المادية ليطلق سراح الناس من أصفادها ، لأنه وهو يحاول تحرير الروح وفكّ أسارها ، علم الناس كيف يحررون أنفسهم من طغيان العوامل الخارجية التى تعطل النموّ وتحول دون التقدم ، علمهم أن يروضوا الإرادة على أن تسير المثل العليا فى تناغم واتساق ؛ وألا تستعبدوا الشهوات والرغبات ؛ وإنما يكون ذلك التحرير الروحى بتربية النفس على تقدير الجمال ، وتلك هى مهمة الأدب ، بل مهمة الفنون على اختلاف ضروبها .

لقد كان نصيب الأدباء الفرنسيين الذين جاهدوا فى سبيل الحرية فى عصر التحرير — القرن الثامن عشر — أن زُجُّوا فى ظلمات الباستيل ، بينما كان زملاؤهم الألمان على صلة من الود والتفاهم مع أولى الأمر فى بلادهم ، لماذا ؛ لأن الأديب الفرنسى يحارب أوضاعا سياسية قائمة ، أما الأديب الألماني فيعمل على تحرير نفسه ورياضتها ، بحيث تعلو على العوائق المادية القائمة فى وجهها ؛ فلئن كسبت فرنسا حريتها بدماء الثورة الفرنسية ، ولئن كسبت إنجلترا حريتها فى سكون وهدوء عن طريق التشريع لها فى مجاس النواب ، فقد كسبت المانيا حريتها فى معركة باطنية نشبت فى نفوس الأفراد ؛ وهاهنا قامت رسالة الأدب الألماني فى القرن الثامن عشر ، فلن تجدد روح الفرد مصورة فى غيره من الآداب — إبان ذلك القرن — بمثل الدقة والأمانة التى صوّرت بها فى الأدب الألماني ؛ ولم يواجه أدب غير الأدب الألماني مشكلات الفرد وحياته النفسية بمثل ما واجهها ذلك الأدب فى جدِّ وعزم وبصيرة نافذة ، فمن ضلّت نفسه فى متاهة الحياة ، وأراد لها سواء السبيل ، ومن

تخطمت سفينته على موج نفسه المضطربة ، فلن يجد العون والعزاء في أدب غير هذا الأدب ، ومن هنا كانت « فاوست » — آية جيته الخالدة — أعمق وأعظم ما شهدت الآداب الحديثة في حياة الفرد ، فهي العزاء الذى لا تبلى جدته ولا تبرد حرارته « لسكل من أكل خبزه تحيط به الهموم ، وأنفق طوال الليالى يسفح الدموع » — وقل في الأدب الألماني كله في القرن الثامن عشر ما تقوله في « فاوست » .

وسنختار لك من ذلك الأدب فحوله الثلاثة : جيته ، وشيلر<sup>(١)</sup> ، وليننج<sup>(٢)</sup> .

جوهان وفغانج جيته Johann Wolfgang Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢) :

ذلك رجل كان أخص ما يميزه صحة العقل وصحة البدن ، فأما صحة بدنه فوهبة من الله الذى بسط له في قوة الجسم وسلامته ، وأما صحة عقله فكذلك ونتيجة لجهود طويل ما فتىء خلاله يتخفف من الأثقال التى تقعد بالروح فلا تسمو : فطرده المخاوف ونزعه عن الهوى وأطراح لتركته نفسية مثقلة بالأوصار خلقتها خرافة العصور الوسطى والتمست سبيلها إلى نفسه أيام الصبا ؛ أحاطت به الكروب فهم أن ينتحر ، لكنه سارع إلى كتابة « فتر » لينجو بنفسه من هذه الظلمة الغاشية فجعل بطله يزهر روحه ليجد في انتحاره متنفساً لسكروبه ، وبذلك ألقى عن نفسه وسواساً كان يشوب صحة عقله التى امتاز بها ؛ وشاءت الأقدار لقصة « آلام فتر » أن تنشر ، فكان من نتائجها العجيبة أن أخذ الشباب في أوروبا الذين كانوا يعانون مثل ما عاناه « فتر » ينتحرون كما انتحر ! وهكذا قد تبلغ قوة الإيحاء في الأثر الفنى ؛ أراد به الأديب لنفسه تطهيراً من أدرانها فإذا بهذه الأدران تصيب القارئ !

وتستطيع أن تقول فى كل ما أنتجه « جيته » من آثار أدبية ما قلناه فى « فتر » ، فهى وسائل أريد بها تطهير الروح من شوائبها لتصفو ، فإذا لم تستطع أن تقرأ جيته لتنفذ بأدبه عن نفسك ما نفذه الكاتب به عن نفسه ، فخير لك ألا تقرأه .

ولد « جيته » فى فرانكفورت على نهر مان فى الثامن والعشرين من أغسطس لأب يشتغل بالقانون كان سليل أسلاف مهنتهم الحدادة أو الحياكة ، وأم هبطت من أسرة



نبيلة ؛ وكان أبوه متعصباً متعلماً ضيق الأفق ، وقد صمم أن يهيئ لابنه من التعليم ما يواجه به خضم الحياة العنيف ، وأخذَه أخذاً شديداً — وهو ما يزال طفلاً — بدراسة تستغرق ساعات طوالاً في اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وفي العلوم الطبيعية وفن العروض ! بل استحث ولده أن يكتب عما يرى ويسمع وألا يحاول قرض الشعر ، فكان لهذا التدريب الصارم أثره في عقل الناشئ من غير شك ، لسكنه نَفَر الابن من أبيه ولم يعد يضمن له من الحب ما يضمن الأبناء للآباء ، ولعلنا إذ نقرأ في « فاوست » كيف اعتزم فاوست هجر كتبه ليغامر في الحياة مغامرة تستثير فيه العاطفة الحية نلمس صدى لثورة تأججت في نفس جيته الطفل نفورا من الدراسة المسرفة البغيضة .

أرسل جيته إلى جامعة ليمبرج ليدرس القانون ، فكان فسكا كه من أئمر أبيه أول فرصة سنحت يمس فيها الحياة عن كُثْب مَسًا مباشراً ، فلم ينصرف إلى كتب القانون كما أريد له ؛ بل راح يشاطر الطلاب في نشاطهم ، وأحب فتاة يشتغل أبوها بتجارة الخمر ، وأنفق وقتاً غير قصير في قرض الشعر والتصوير وقراءة الأدب ، فكان أن قرأ كتاب « لِسْنَج » « لاو كُون »<sup>(١)</sup> ، فكان له بمثابة الوحي الملهم ؛ ولعله أسرف في حريته وأطلق العنان لشهوته أكثر مما ينبغي ، فأصابته العلة في رثيته وعاد إلى فرانكفورت ولم يظهر بدرجة علمية .

وذهب جيته بعد عامين — وقد استرد العافية — إلى ستراسبورج يدرس القانون في جامعتها ، فظفر فيه بالامتدنية ، وأنشأ إلى جانب دراسته مجموعة من القصائد الغنائية ، وكتب « جيتس ذو اليد الحديدية »<sup>(٢)</sup> متأثراً فيها بشيكسبير ، واختمرت في ذهنه فكرة « فاوست » ؛ وكذلك حدث له وهو في ستراسبورج أن تأثر بالناقد الشاعر الفيلسوف « هيردَر »<sup>(٣)</sup> الذي كان إمام الفكر في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، كما حدث أن أحب فتاة هي « فردريكا براون »<sup>(٤)</sup> ، فأوحى له حُبُّه إياها عدداً من أجمل قصائده الغنائية .

(٢) . Götz von Berlichingen

(١) . Laokoön

(٤) . Frederike Brion

(٣) . Johann Gottfried Herder

عاد جيته بعد ذلك إلى فرانكفورت ليشغل بالصحافة ، وليبدأ سيرته الأدبية ، وذاعت شهرته في الشعر بحيث لم يُكْمَل عامه السادس والعشرين حتى أصبح في طليعة الشعراء ، ثم ازدادت شهرته اتساعاً حين أخرج « فتر » ونشر « جينس » التي صادفت عند أعلام النقد الأدبي كل إعجاب ؛ وهنا في فرانكفورت كانت له مغامراتان جديرتان في الحب ، منهما غرامه « شارلوت بَف » <sup>(١)</sup> (وهي شارلوت التي تراها مذكورة في فتر ) وأما الأخرى فهي « ليلي » <sup>(٢)</sup> التي كان حبه إياها مضطرباً يشتمل بالغيرة ، وقد كانت « ليلي » هذه امرأة لعوباً قلباً ، وخطبها لسن الخطبة لم تدم طويلاً وافترق الخطيبان وجاءته بعد ذلك دعوة من « كارل أوجست » <sup>(٣)</sup> دوق فيمار ، وكان الدوق الشاب قد أنشأ مركزاً أدبياً في قصره ، وأراد أن يضيف إليه هذا الأديب النابغ ، فأغراه بمرتب كبير ومنصب عظيم في دوقيته ؛ فلبى الدعوة جيته ، وابتاع له داراً في فيمار حيث أقام طيلة حياته إلا فتراتٍ قصاراً .

جَدَّ الأديبُ في منصبه فارتقى وزاد راتبه وأنعم عليه بألقاب النبلاء ، وما أ كثر ما وجهَ النقاد إلى الأديب اللوم على الإذعان للألقاب والمناصب ، لسن فلسفة جيته لم تكن إلا هذا : قبولاً للحياة كما هي ، واضطلاعاً بما تفرضه واجبات العيش من أعباء ، ولم يكن ذلك ليمنع سميل إنتاجه الدافق حتى أسلم الروح في الثاني والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٣٢ .

ذهب جيته إلى فيمار شاباً طويلاً القامة جميل الطلعة رشيقاً تجرى فيه حرارة العاطفة حتى شهوه بأدونيس الذي أغرمت به فينوس في أساطير اليونان ، وعاش عيش المتعة من شراب وغرام ، وكانت « فراوفون شتاين » <sup>(٤)</sup> ممن مَلَكَنَ عليه فؤاده ، وهي متزوجة وتكبره بسبعة أعوام ؛ وقد قيل ما قيل في علاقته بهذه المرأة ، والأرجح أن الحب دام بينهما عذرياً بضعة أعوام ، وما إن دنسته الشهوة حتى طار الخيال ودب الخلاف ، وازدادت الهوة بين القلبين حين انفصلت الروابط بين الأديب وبين امرأة أخرى ،

. Lili (٢)

. Charlotte Buff (١)

. Frau von Stein (٤)

. Karl August (٣)



فاستشاطت « فراو » غيرة وكادت له ، حتى لم يسعه إلا السفر إلى إيطاليا حيث أنفق عاما وبعض عام .

أما تلك الحبيبة الجديدة فهي « كرستيانه »<sup>(٢)</sup> ، وكانت فتاة ريفية ساذجة لكنها بارعة الجمال ؛ جاءت إلى فيمار حيث عملت صانعة في معمل ؛ وحدث أن تقدمت إلى جيته — وهي في الثالثة والعشرين وهو في الأربعين — بطالب تلمس أن يُعينَ أخاها في عمل ؛ ففتن بها أديبنا . واتصل بها في طي الخفاء حينما ، وذاعت بين الناس الأقاويل ، وافتضح الأمر ؛ ولم يكن ذلك بذى خطر عند عامة الشعب الذين لم تخف عليهم خافية من شئونه الغرامية ، لكن الأمر خطير في دائرة القصر ورجال البلاط ، فما كان لنبييل — فقد خلعت على جيته ألقاب النبلاء — أن يتصل بفتاة من غمار الناس ، فما هو إلا أن زاد الأديب الطين بلة وأعلن زواجه من « كرستيانه » وكان قد أسكنها منزله قبل ذاك زاعماً روابط القرى بينه وبينها .

وأبت سيدات فيمار أن تكون هذه الريفية ندًا لمن في المجتمع ، فإذا ما انعقد حفل في بيت جيته عاملها الزوج والأضياف جميعا معاملة الخادمة ، فلم تجلس إلى مائدة بين الحضور ، ولبت الأمر قائما على هذا النحو حتى بدّله « مدام جوهانا شوبنهاور » — أم الفيلسوف المعروف ، وهي أديبة لها في الأدب قسط موفور — وذلك أن وجهت إليها الدعوة كما توجّه إلى سيدات الطبقة الراقية ، لكن هيات أن تنحطم الفوارق الاجتماعية بمثل هذا اليسر ، فقد لبثت « كرستيانه » طريفة المجتمع الرفيع في فيمار حتى ماتت ، مع أنها أنجبت ولداً شبّ وتزوج من نبيلة ، ونجّل لها ولجيته من تلك النبيلة ثلاثة أحفاد .

ونعود إلى آيته الأديسة الخالدة بشيء من التفصيل : اسطورة فاوست قديمة قدم العصور الوسطى ، وقد أتينا لك على طرف من أخبارها إذ حدثناك عن الأدب الألماني في عصر النهضة ؛ لكن جيته تناولها على أساس جديد ؛ ولُبّ الأسطورة أن الدكتور فاوست رجل عاش في وتنبرج بألمانيا في أوائل القرن السادس عشر ، وكان يشتغل بالسحر والتنجيم ويزعم لنفسه القدرة على استحضار الأرواح واستعادة ما بدّدته الأيام من صحائف القدماء ،

وكان ما كرا مخادعا يستخدم ذكاهه في ابتزاز أموال السذج الغافلين ؛ وشاع عنه أنه باع روحه للشيطان ، وتفصيل الأمر أنه ورث من عمه ثروة عريضة بددها في عربدته ومجونه ، فلما أفلس عزّ عليه أن يكسب القوت بالعمل الشريف ، فاتفق مع الشيطان أن يمد له في حياة المتعة أربعة وعشرين عاما ، للشيطان الحق بعدها أن يتصرف في جسده وروحه كيفما شاء .

تلك هي الأسطورة التي بنى عليها جيته قصيدته الكبرى ؛ وهي من جزئين الأول مأساة غنائية ، والثاني حوار فلسفي شاق يفتنى بكها هنا وينهرج هناك ليدلك على كل ما يدور في نفس الأديب من خواطر وآراء ؛ فأما الجزء الأول ففيه المتعة الخالصة لكل من يطالعها ، وأما الثاني فلا يستمره إلا من له جلدٌ وصبر على متابعة الرأي العميق الجاف للمتلوى وإنما أراد جيته أن يبين في فاوست اضطراع العواطف في قلب الإنسان : أنْقدِم على الحياة فنغمس فيها أم نحجم عنها فلا نأخذ منها بنصيب ؟ وليس المقصود بالأحجام عن الحياة ونبذها أن نلجأ إلى دير نعيش فيه عيشة الرهبان ، ولكن للأحجام عن الحياة صورا وألوانا ؛ فمن يحدد نفسه بقيود الأخلاق وتقاليد المجتمع فقد نبذ جانبا من حياته ، ومن يغلق من دونه الأبواب ليشطح في تأملاته الفلسفية فقد نبذ الحياة ؛ ومن يعيش في أوهامه وأحلامه ولا يأبه بالواقع من حوله فقد نبذ الحياة كما هي في حقيقتها ؛ ورسالة « فاوست » أن يهيب الأديبُ بالناس أن واجهوا الحياة وغامروا في معمعانها وانتقوا بصعابها ؛ وأن أبرزوا من أنفسهم وجوهها وجوانبها ولا تقنعوا بجانب واحد ووجه بعينه ، فهكذا أراد لنا جيته أن نعيش حياة مليئة لا حياة خاوية جوفاء ، وليس من الخير أن نقتطف من الكتاب مثالا يوضحه ، فقد نقل إلى العربية والخير كل الخير أن يُقرأ<sup>(١)</sup> .

وأعظم قصصه « ولهم ميستر »<sup>(٢)</sup> وهي في أهميتها بالنسبة إلى أدبه كله تملو « فاوست » وفيها معظم فلسفته في الحياة ، ولعلها أن تكون أول قصة في الآداب قصد بها كاتبها إلى غرض خلقي وتهذيب ثقافي ، وموضوعها ضرورة أن يُحسِّن كلُّ شخص اختيار مهنته ليختار ما هيأته له مواهبه ؛ وهي تصور الحياة الألمانية أدق تصوير .

(١) ترجمها إلى العربية الدكتور محمد عوض ونشرتها لجنة التأليف .

(٢) Wilhelm Meister .



أما إن أردت ما لجيتته من حكمة خالصة لا تجرى في مأساة كفاوست ولا في قصة كولهلم ميبستر فعليك بمجموعة له تسمى « حِكْمٌ وتأملات » وهي أربعة أقسام : قسم يدور حول الحياة والأخلاق — وقسم حول الآداب والفنون ، وثالث حول العلم ورابع حول الطبيعة ؛ وليست حِكْمُهُ مصقولة محبوكة قصيرة كعهدنا بهذا اللون من فنون القول لسكرها خواطر تتميز بعمق المعنى وصدق الرأى ، خذ منها هذه الأمثلة القليلة :

« كيف يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه ؟ إنه لن يعرفها بالتفكير ولكن بالعمل ؛ فحاول أن تؤدى واجبك وستعلم من فورك قدر نفسك » .

« إن أقل الناس شأنًا يمكنه أن يكملَ إذا عمل في حدود قدرته وقواه الموهوبة والمكسوبة على السواء ؛ وخير المملكات قد ترين عليها غشاوةٌ ويصيبها الجود والفساد إذا أعوزتها صفة لا مناص من وجودها ، هي صفة التوازن ؛ وذلك شر سيعاود الناس كثيرا في العصر الحديث ، إذ من ذا يستطيع أن يسدَّ حاجات عصر بلغ هذا المبلغ من الامتلاء والعمق ثم هو فوق ذلك عصر مسرعٌ في خطاه ؟ »

« خطأ فاحش من المرء أن يعلو بنفسه عن قدرها ، أو أن ينزل بها عما هي جديرة به » .

« ليست التقوى غاية في ذاتها ، لسكرها وسيلة ؛ هي وسيلة يبلغ بها المرء ذروة الثقافة إذ يهيئ لنفسه أخلص ما يستطيع لها من سكون » .

ولجيتته عدا ما ذكرناه انتاج غزير ، فله مسرحيات منها : « افجينيا » <sup>(١)</sup> و « إجمنت » <sup>(٢)</sup> و « هرمن ودروتيه » <sup>(٣)</sup> و « توركوأتو تاسو » <sup>(٤)</sup> ، وله غير ذلك كثير من ضروب الأدب الأخرى .

ذلك هو جيتته الذى يعادل في عظمته شيكسبير ، أو قل إنه من ذلك القبيل السامق الجبار ؛ فإذا قصرَ باعاً عن زميله الإنجليزى فلنذكر له أنه أسسَ الأدب الألمانى مما يشبه العدم على حين كان شيكسبيرُ لجهود السابقين زهرة وتاجاً ؛ فن ورائه « تشوسر » و « سبنسر » وإلى جانبه « مازلو » و « بن جونسن » وسائر هذا الرعيل الذى عاصره في

(١) Iphigenie . (٢) Egmont .

(٣) Hermann und Dorothea ترجمت إلى العربية بقلم الدكتور محمد عوض أيضاً .

(٤) Torquato Tasso وهو شاعر رومانى في عصر النهضة صاحب قصيدة « انقاذ بيت المقدس »

عهد اليصابات ، أما جيته فن ورائه خواء وإلى جانبه ما يشبه الخلاء .

\*\*\*

هنا جدير بنا أن نلقى بعض الضوء على موضوع قد يثير فيك الحيرة والتساؤل ؛ فقد عرضنا لك الأدب الأوربي في القرن السابع عشر ولم نذكر الأدب الألماني إذ ذاك بكلمة واحدة ، وذلك لسبب بسيط هو أن القرن السابع عشر لم يشهد للألمان أدبا ؛ ثم ها نحن أولاء نعرض عليك أدبهم في القرن الثامن عشر ، فمنجناز النصف الأول من هذا القرن لنلتقي بجيته في نصفه الثاني ، ثم نزع لك أنه يطاول شيكسبير ! فكيف يمكن أن تخلوامة من ثمار الأدب قرنا ونصف قرن ، ثم تقفز بفتة إلى الأوج بقفزة واحدة وفي رجُل واحد لم يجد من يعبد له الطريق ويمهد أمامه السبيل ؟

نسبت في النصف الأول من القرن السابع عشر حرب طويلة فتاة تعرف باسم حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) كانت ألمانية أول الأمر ثم أخذت تتسع حتى أوشكت أن تشترك فيها الدول الأوروبية جميعا ، فلما وضعت تلك الحرب الضروس أوزارها كانت ألمانيا قد بلغت من الضعف حدا بعيدا يعجزها عن التفكير والعمل ؛ ثم حدث سنة ١٦٨٥ أن ألغى لويس الرابع عشر في فرنسا مرسوم نانث ، فصودرت بمقتضى هذا الإلغاء العقيدة البروتستنتية في فرنسا وفقد الهيجونوت حرية العبادة والمساواة أمام القانون ، فهاجر سراً عدد كبير منهم ، إذ بلغت الأسر الراحلة خمسين ألفا ، ولجأوا إلى هولندا وإنجلترا وبروسيا وأمريكا ، فكانت خسارة فرنسا عظيمة بفقد هذه الطائفة الفنية الشيعة التي كان لها أوفر قسط في الحركة الثقافية ؛ فكان أن لجأ كثيرون من هؤلاء في مهاجرهم إلى أعلامهم ، وأنسوا المطابع وأصدروا الصحف ، وأخذوا في كل بلد هاجروا إليه يترجمون ويكتبون وينشرون ؛ وكانوا يستخدمون في ذلك كله لغتهم الفرنسية التي كان لها في أوربا إذ ذاك السيرة والمقام الأول ، وبذلك جعلوا الفكر الفرنسي والأدب الفرنسي سائدا شائعا ، وأصبحت الموازين الأدبية الفرنسية هي المسيطرة في مراكز الثقافة الأوروبية جميعا ، فكانما كان إلغاء مرسوم نانث حادثا ساقته الطبيعة لتتعاون أوروبا على حركة التنوير التي تعد طابعا يميز الأدب الأوربي في القرن الثامن عشر ، كما أسلفنا لك القول في أول هذا الفصل .



فلما دنا القرن السابع عشر من ختامه لم يكن في ألمانيا من الأدب إلا صورٌ منقولةٌ عن الأدب الفرنسي ، والصورة لا بد أن تكون ضعيفة هزيلة إذا قيست بأصلها ومثالها الذى استمدت منه الوحي واحتذته اعتداء التلميذ المعلم ، والأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر — كما تعلم — اتباعى صارم يلتزم قيود المذهب الاتباعى فلا يحيد عنه فلم تكذ ترجم من الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر بعض روائعه مثل مقالات « أدسن » و « روبسن كروزو » لدانيال دفو ؛ وأخيراً قصص « ردتشردسن » وقصائد « تومسن » حتى هبت نسائم الحرية على الأدباء الألمان ، وأزاحوا عن كواهلهم نير المذهب الاتباعى الفرنسى ، ومهما يكن من أمر فقد أخذت ألمانيا تستقى الأدب الفرنسى حيناً والأدب الإنجليزى حيناً آخر ، وهى جامدة لا تنتج شيئاً ؛ ولكنها فى فترة النقل كانت تهضم ما تنقله حتى اختمر فى نفوس أدبائها ، وخرج رحيقاً مستساغاً دفعة واحدة فى « جيته » و « شلر » و « لسنج » .

جون هولم افر ايم لسنج ( ١٧٢٩ — ١٧٨١ ) :

ولد « لسنج » فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٧٢٩ فى بلد قريب من « درزدين » بمقاطعة سكسونيا بألمانيا ، فتهيأت له بهذا المولد فرصة كانت تتاح لأبناء سكسونيا دون سواهم من شباب ألمانيا ، وهى فرصة التعلم فى مدرسة تشبه المدارس الخاصة فى إنجلترا ، هى مدرسة « سنت أفرأ » بمدينة « ميسن »<sup>(١)</sup> ؛ ومن ثمّ انتقل إلى جامعة ليبزج ليعبد نفسه لوظائف الدين كأبيه ، لكنه وهو فى الجامعة انعرج به الطريق ، وذلك أن « جوتشد »<sup>(٢)</sup> الذى كان فى دولة الأدب فى ألمانيا حاكماً يأمر وينهى ، كان قد أغرى شباب الجامعة الذين بدرت فيهم بوادر النبوغ الأدبى بالآمال العريضة والمستقبل العظيم ، إذا هم أعدوا عدتهم لاستخدام أقلامهم ، فما لبث « لسنج » أن أطاع « جوتشد » إذ وجدت دعوته صدقاً فى نفسه التى خلقها الله للأدب ، فانصرف عن الدراسة الدينية التى أريدت له أول الأمر ، وعن دراسة الطب التى كان قد تحول إليها بعدئذ ؛ وأقبل على المسرح يكتب له ، فذلك عنده خير من قاعة المحاضرة يستمع فيها إلى مالا يحيل إليه

بفطرته ؛ وطمع ساعة فاض عليه فيها الوحي أن يكون لألمانيا ما كان موليير لفرنسا ؛ لـسـكـنـه كان بطبعه إلى النقد الأدبي أميل منه إلى كتابة الملاحى ، فسرعان ما نراه فى برلين ، حيث يتربع فردريك الأكبر على عرش الملك ، يجاهد — لافى سبيل أن يكون «موليير» — بل أن يسمو إلى نجم أعلى وأسطق فى ذلك الزمان ، هو «فولتير» ؛ ولم يكن الجهاد الأدبى هيناً يسيراً فى بلد يؤمن فيه الملك أن ينبوع الأدب لن يتفجّر فى أحد من أفراد شعبه بمثل ما تفجّر فى نابغة عصره «فولتير» ؛ وها هو ذا فولتير فى قصر فردريك له الخطوة الكبرى ، فأين الرجاء أن يلتمس أديب ألماني طريقه إلى رعاية فردريك ؟ لـسـكـن ذلك لم يفتّ فى عضد الأديب الشاب ، وأخذ «لـسـنـج» يكتب كتابة المأجور ، فيعرض الكتب عرضاً نقدياً فى الصحف ، ويترجم ويكتب كل ما يجد السبيل إلى كتابته ، لا يفرق بين شئ وشئ ، ومع ذلك فلم يحز قلمه بسطر واحد يحتاج إلى محو أو تعديل .

فى هذه الحياة الأدبية الشاقة التى عصفت به إبّانها الأعاصير العاتية ، صلب عوده ، وأخذت موهبته فى النقد تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . حتى بات ناقدًا يؤتمّ برأيه ويخشى بأسه فى الهجوم ، وصادقه قومٌ وخاصته أقوام ؛ وأصدر صحيفة أدبية مع بعض أصدقائه ، حل فيها على القواعد الاتباعية الجامدة وأخذ يبسط رأيه فى كيف يكون الاتباع فى الأدب بحيث يحتفظ الأدب بنصارته ورونقه ، فالمذهب الاتباعى كما أخذت به أوروبا فى القرن الثامن عشر زائف يشبه الاتباع وليس منه ؛ وهنا أتيج للأديب العظيم أن يردّ حياض اليونان ويتملى من جلالها وسحرها ، فارتسمت فى ذهنه صورة جديدة للاتباع الأدبى ، وأنشأ فى النقد كتابه الجليل «لاؤكون» فهد هذا الكتاب بما فيه من توضيح جلى للفوارق بين ألوان الفنون ، مهّد الفريق لأديب جديد وفن جديد .

نُشر «لاؤكون» سنة ١٧٦٦ وكان أعظم كتاب فى النقد الأدبى مما أنتجته قرائح الأدباء فى القرن الثامن عشر ؛ فهو بحث مبتكر مطبوعٌ باصالة الرأى حول مبادئ النقد ، وليس من الإسراف فى شئ أن نزع أن هذا الكتاب الخالد هو الذى مكّن لجيئة وشلر من التكوّن والظهور ؛ ومجمل ما فى هذا الكتاب تفرقة واضحة بين مهمة الشعر ومهمة النحت والتصوير ؛ وقد أطلق على كتابه هذا اسم «لاؤكون» لأنه وهو يعرض للتمييز



بين الذئب والشعر ، اختار نموذجاً للنحت تمثال « لاوكون » الذى يمثل لاوكون وابنتيه وقد التفت بهم الأفاعى التى أرسلها جوف عندما حذر لاوكون أهل طروادة من قبول الحصان الخشبى ؛ والتمثال يمثل جزع الوالد وولديه وهم فريسة الأفاعى ، واختار « فرجيل » نموذجاً لتصوير الجزع فى ألفاظ الشعر ، ليبين الفرق بين اللونين من التعبير ؛ وعلى أساس فكرته بأن النحت والتصوير لا يمكنهما أن يقوموا بما يؤديه الشعر بحث لسنج كل ما يريد بحثه من مبادئ النقد .

كانت الحياة عندئذ لم تُيسَّرْ لأديبنا بعد ، فهو حيناً فى رغبة من العيش ، وأحياناً فى شظف وعسر ؛ حتى لقد بلغ عامه السابع والثلاثين ولم يوفق بعد لكسب قوته بقله ، ثم صادفه ما أزاح عن كاهله عبء العيش وهمومه حيناً ، وذلك أنه عُيِّنَ كاتباً لسر الحاكم فى مدينة « برسلاو » ؛ فاستطاع أن يخرج خيراً ملهاة عرفها الأدب الألمانى وهى « مِنَا ثُون بارنهم »<sup>(١)</sup> .

لكن ملهاته هذه لم تفتح أمامه طريق المجد عن طريق الأدب : « وقفت فى ساحة السوق لا أدرى ماذا أصنع ، فما استأجرتى أحد ، لأن أحداً بغير شك لم يعرف كيف يفتع بى » وأخيراً مَدَّ إليه المسرح يده من جديد ، فاستخدمه « المسرح القومى الألمانى » فى هامبرج ، ليعلق له عن مسرحياته فى صحيفة تُنشر مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ، فيكون له بتعليقه ذاك أداة دعاية بين الناس ، فلم يؤدِّ لسنج واجبه كما طُلب إليه ، إذ أبى أن يمتدح ما كان يعرض من مسرحيات ، لأن العروض ضعيف لم يعجبه ، وكانت هذه فرصة أخرج فيها كتاباً عن المسرح فى القرن الثامن عشر ، له أعظم الشأن فى موضوعه وهو « الفن المسرحى فى هامبورج »<sup>(٢)</sup> .

فلما انتهى مسرح هامبرج إلى الفشل والإفلاس ، تعطلَّ لسنج من جديد ، حتى عُيِّنَ آخر الأمر أميناً لمكتبة فى بلد صغير ، وفى هذا المنصب المتواضع لبث حتى وافته منيته فى الخامس عشر من فبراير سنة ١٧٨١ .

فى ذلك البلد الصغير لم يجد الحياة الهادئة ، فسرعان ما أثارت خصومة عنيفة بينه وبين

قسيس جبار ، وخرج أديبنا من الخصومة هزيمًا خامسًا ، لكنه من هذه الحنة المظلمة أمَدنا بقبسٍ من الضوء ، فمن حَرِّ القتال المستعر أخرج لنا « ناثان الحكيم »<sup>(١)</sup> ، وهى صرخة داوية فى سبيل التسامح وحرية الفكر أضافت نعمةً إلى ما كانت تَصِرُ به الأقلام فى مختلف الأمم إذ ذاك سعيًا وراء الحرية .

واجلوسكت أيام « لسنج » وعاش من شقائه فى ليل داج ؛ فهو فى معركة متصلة تعود عليه بالآلام ، ثم ازداد ليله البهيم سواداً حين تزوج من أرملة صديق له فى هامبورج ، فما لبثت الزوجة « إيثا كينج »<sup>(٢)</sup> أن ماتت بعد عام من زواجها وهى تضع للأديب وليداً ، ومات معها وليدها بعد أن لمح فيه « لسنج » دليلاً ملموساً للخلود ، وبهذا انسدل الستار إلى الأبد على كل أملٍ فى أن يعيش الرجل سعيداً بأسرته كما يعيش سائر الناس . من هذا الذى عرضناه عليك من حياة « لسنج » تستطيع أن تلمس فى الرجل ثلاث نواحٍ بارزة : الأولى أنه أمدَّ المسرح فى بلاده بالدعائم التى جعلت بناءه منذ ذلك الحين ثابت الأركان ، والثانية أنه ناقد وضع القواعد والأصول فى الشعر والفن ، والثالثة أنه مجاهد كافح رجال الدين ليظفر للناس بحرية الرأى والتسامح .

كان « لسنج » فى مسرحياته يستمد الوحي من الآداب الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، ولكنه كان يطبعها بطابعه ، وهو فى الحوار المسرحى بارع لا يدنو منه مسرحى آخر فى القرن الثامن عشر ؛ ومن أشهر مآسيه « مِسْ سارا سامسن »<sup>(٣)</sup> التى نقل بها عن الأدب الإنجليزى فن المأساة التى تعالج الحياة المألوفة فى أوساط الناس ، وهو ضرب من المأساة لم يذسأ إلا منتصف القرن الثامن عشر ، وظلت ألمانيا منذ عرفت ذلك الفن بفضل « لسنج » لا تنفك مخلصه له فى أدبها المسرحى ، فإن كانت قد ساهمت فى ذخيرة الأدب المسرحى فى العالم ، فإنما كان قسطها هو البلوغ بهذا الضرب من المأساة حد السكالم ؛ كان « لسنج » فى مأساة « مِسْ سارا سامسن » ناقلًا عن الأدب الإنجليزى متأثراً إلى أبعد الحدود بكتآب المسرحية من الإنجليز المعاصرين له ، فالرواية مناظرها انجليزية وأشخاصها إنجليز ، استعارهم من القصة الإنجليزية ومن « رتشردن » بصفة خاصة ، وفى

(١) Nathan der Weise (٢) Eva Konig

(٣) Miss Sara Sampson



« سارا » تلمح شبهاً قويا بينها وبين « كلارسا » ، بل إنه استعار أسماء أشخاصه من المسرحى الإنجليزي « كونيغريث » ؛ فلما تلفت « لسنج » إلى إنجلترا ليستمد من أدبها المسرحى لم ينظر إلا إلى إنجلترا المعاصرة ، وما علم أن هنالك فى إنجلترا التى سلفت كاتباً مسرحياً هو بالقياس إلى من أخذ عنهم عملاق جبار ، لكن شيكسبير لم يكن عند لسنج إلا ما صورّه به فولتير : شاعراً ضعيفاً ليس بذى شأن يذكر .

وفى سنة ١٧٦٧ — بعد « مس سارا سامسن » باثنى عشر عاماً — ظهرت مسرحيته الثانية وهى ملهاة « مناقون بارنهم » التى تدب الحياة الصحيحة فى أشخاصها ؛ وهى كذلك مدينة للأدب الإنجليزي بدين ، فهاهنا للمرة الأولى والأخيرة يتأثر الكاتب بشيكسبير ، إذ لا يسعك وأنت تصوّر لنفسك « منا » إلا أن تذكر شخصية « بورشيا » عند شيكسبير فى رواية تاجر البندقية ، بل إن « لسنج » سار على نهج شيكسبير فى حل العقدة كما جاءت فى رواية تاجر البندقية ، لكنه لم يفس أن يستعير بعض العناصر — أو قل معظم العناصر — من مسرحى إنجليزي معاصر هو « فاكر »<sup>(١)</sup> ، فأنت إذا أردت أن تضيف ملهاة « منا » إلى أشباهها وضعتها إلى جانب الملاهى الإنجليزية التى شهدتها القرن الثامن عشر : « خطّة الشاب الأنيق » لفاكر ، « تمسكت فتتمكت » لجولدسمث ، و « مدرسة الفضاء » لشريدان وأمثالها ، فهى إلى هذه أقرب جداً منها إلى ملاهى ذلك العصر فى فرنسا .

وله كذلك مسرحيتان عظيمتان غير ما ذكرنا : هما « إميليا جالوتى »<sup>(٢)</sup> و « ناتان الحكيم » ؛ أما الأولى فهى خطوة فسيحة نحو تثبيت فن المأساة الذى يعالج الحياة المألوفة ، والذى أشرنا إليه فى حديثنا عن رواية « مس سارا سامسن » ، وهى تعدّ من أحجار الأساس فى بناء المسرحية الألمانية الحديثة ؛ وأما الثانية فقد أخرجها — كما أنبأناك — لتكون سهماً يسدّد إلى رجال الرجعية والجمود ، ولينشد بها الحرية والتسامح ، وهى من حيث فيها تبشّر بعهد جديد فى كتابة المسرحية ، لأنها غنيت بالتجارب النفسى لأشخاصها أكثر من عنايتها بأى جانب آخر ؟ ومع ذلك فهى نادرة الظهور على المسارح ، لأنها تعالج موضوعاً كان يسيغه أهل القرن الثامن عشر ولكننا نمتجّه اليوم ، ونعنى به الحب ياشأ

بين أخ وأخته ؟ ومما يعيها أيضاً أنها ضحّت بما يقتضيه البناء الفني للمسرحية في سبيل نشر الآراء التي يريد الكاتب أن يذيعها عن التسامح الديني : ومما هو جدير بالذكر في صدد هذه الرواية كذلك ، أن الكاتب عاد فأنحرف عن شيكسبير ، وجثا على ركبتيه خضوعاً أمام عدوه الأدبي اللدود : فولتير ، إذ جاءت هذه المسرحية شبيهة أشد الشبه بمسرحيات فولتير الذي كانت حياته — كحياة لسنج — معركةً طويلة متصلة في سبيل تحرير الإنسانية المستعبدة .

وأما لسنج الناقد فحسبك أن تعلم ما قاله عنه ما كولى من أنه « أعظم ناقد في أوربا » . وقد ذكرنا لك كتابيه في النقد « لاوكون » و « الفن المسرحي في هامبرج » ؛ أما أولهما فيحدد مرحلة من مراحل التطور الفكري في القرن الثامن عشر ، فهو أول من فرق بين الفنون المختلفة على أساس اختلاف غاياتها ؛ وقد فقد الكتاب شيئاً من أهميته التي كانت له عند صدوره ، لأنه جاء عندئذ احتجاجاً قوياً على الشعراء الذين يطغون بفهمهم على ما ينبغي أن يترك للنحت والتصوير . أما نحن اليوم فلا نشاطر الناقد وجهة نظره ، وبحاول أن نوحّد بين الفنون ونزيل ما بينها من فواصل وفوارق ، لا أن نباعد بينها بالحدود الفاصلة كما أراد لسنج . وأما كتابه الثاني عن الفن المسرحي فهو — كما رأينا — نقد صحفي لروايات يومه وممثليها ، ولم تكن الروايات والممثلون مما يستحق التقدير والتعريض ، فكان في هذا الركود المسرحي نفسه فرصة سانحة لسنج أن يملأ صحيفته النقدية بالقواعد العامة في المسرحية ما دام المسرح القائم وممثله لا يمدونه بالمادة الكافية . والمحور الرئيسي الذي يدور حوله الناقد في بحوثه هو فولتير — لا كتاب الشعر لأرسطو كما يذهب بعض الناقلين — إذ كتاب « الفن المسرحي » في صميمه نقد لفولتير وللأسس التي بنى عليها أشباه الاتباعيين في فرنسا ففهم ، هو نقد شديد يهاجم به القيود الخائفة التي فرضتها « المأساة الاتباعية » على نفسها فضيقت بها على نفسها الخناق . نعم إن لسنج يعرض لكتاب أرسطو فيعمل من شأنه ويرفع من قدر مبادئه النقدية ، لكنه إنما فعل ذلك ابتغاء غاية يرجوها ، هي أن يحطّم المأساة الاتباعية التي كانت تسود فرنسا ، بأن يبين أنها تنحرف عن تلك المبادئ إذا فسرت بمعناها الصحيحة ، وتحقيق بفا أن نذكر في هذا الصدد أنه يرى شيكسبير أقرب إلى القواعد الأرسطية في المأساة من هؤلاء الذين يفاخرون



ويتشددون بحرصهم على اتباع تلك القواعد في فنهم ، ولم يقل لسنج ما قاله عن شيكسبير إكباراً له ، فقد ذكرنا لك فيما سلف أنه لا يقف موقف الإجلال من شيكسبير ، إنما قاله استثارة لغيظ عدوه الأكبر فولتير . وعلى كل حال فاست ترى شيكسبير مذكوراً في هذا الكتاب إلا لماماً ، لأن المسرح في هامبرج لم يكن يمثل من رواياته شيئاً يذكر ، فلم يجد لسنج الفرصة للتعليق الكثير والقول المستفيض حول شيكسبير . ونحن امتدحنا في لسنج صدق النظر في إدراكه أن شيكسبير أكثر انطباقاً على قواعد أرسطو من كورنى — مثلاً — مخالفاً بذلك ما يبدو للوهلة الأولى ؛ فإننا لا شك نعد هذا القول وضعافاً مقولوا ، فكان أولى بالناقد البارع أن يعلى من شأن أرسطو في نقده الأدبي ، لأنه جاء من المرونة واتساع الأفق بحيث اتسع لفن شيكسبير ؛ لسكننا لا نتوقع مثل هذا القول من رجل يؤمن بالانبعاية في الأدب ، غير أنه لا يرضى عن الانبعاية كما أخذ بها الفرنسيون ، ويريدها كما يراها في فن اليونان الأقدمين ، فهو إن رأى في شيكسبير شيئاً يستحق المدح فذلك أنه يطبق قواعد أرسطو وأنه أخ « لسوفوكليس » ! كان لسنج ناقدًا اتباعياً لا تجرى في عروقه قطرة واحدة من النظرة الابتداعية التي وجدت طريقها أول ما وجدت في قلب شيكسبير ؛ غير أنه — كما قلنا — يمتاز من سائر الاتباعيين إذ ذاك في أنه لا يأخذ المذهب كما فسره الإيطاليون والفرنسيون ، بل يعود في الطريق بنفسه حتى يواجه فن اليونان عن كثب فينقل منه رأساً بغير وسيط . . . . . وسواء أخذنا بوجهة نظره في نقد المأساة أو لم نأخذ بها ، فقد كان كتابه في « الفن المسرحي » أعظم كتاب أنتجه القرن الثامن عشر في ذلك الفن .

شيلر Schiller (١٧٥٩ — ١٨٠٥) :

ولد شيلر في « مارباخ »<sup>(١)</sup> عام ١٧٥٩ ، فهو يصغر جيته بعشر سنوات ؛ وقد عاش حياةً يشقى الفقر والمرض ، ولكنه احتمل صاعباتها يصدر رجب وجأش رابط : يشتغل جراحاً مرة ، ومحرراً في الصحف مرة ، ومديراً للمسرح نارة وأستاذًا للتاريخ في جامعة

بيننا طوراً ؛ وقد حدث أن طارده الدوق كارل يوجين ليقتذف به في ظلمات السجن ، لكنه اختفى وفرّ ، وكان إذ ذاك في عامه الخامس والثلاثين ، فكان فراره ذاك فرصة التقائه بجيمته .

في ظل هذه الصداقة الأدبية أنجز شلر روايةً يُعَدُّها « كارليل » أعظم آية في الأدب المسرحي حقيقةً أن يفاخر بها القرن الثامن عشر « على الرغم من علته الشديدة التي كانت تقتضيه ساعات من الألم كلما جلس إلى مكتبه ساعة واحدة ، وتلك هي رواية « والنشتين »<sup>(٢)</sup> وهي ثلاثية ، أي أنها تتألف من ثلاث روايات يكمل بعضها بعضاً .

بدأ شلر أدبه المسرحي بروايات نثرية مثل « اللصوص » و « أكلة البشر والحب » وهي كلها مسرحيات تعالج شئون الحياة المألوفة في حياة الطبقة الوسطى ، وهو النوع الجديد الذي ظهر في أدب القرن الثامن عشر نتيجة لارتفاع تلك الطبقة الوسطى وشعورها بوجود نفسها ؛ ويمتاز شلر في رواياته بقوة « الحبكة » وبراعة التصوير للشخصيات ، ولك فوق ذلك أن تعدده واضع الأساس لفن الحوار النثري في مآسى العصر الحديث ؛ وإن كانت تلك المسرحيات الأولى معيبةً في شيء فذلك إسرانها في العنف والتهويل ، وهو أمر طبيعى من شاب يضطرم صدره بالعواطف الجياشة ، فلما أن نضج واكتمل وتعمق في التاريخ والفلسفة ، أخذ يكتب المسرحية التاريخية الرصينة والمأساة القوية شعراً ، فأنجج وهو في « بينا » و « فيمار » مجموعة من المسرحيات تعد بين الروائع ، منها « دون كارلوس » و « عزراء أورليان » و « ماري ستيورت » و « وليم تيل »<sup>(٣)</sup> والمسرحية الثلاثية « والنشتين » والأخيرتان هما أنجل ما كتب .

كانت « وليم تيل » آخر ما جادت به قريحته ؛ فقد حدث أن همّ جيمته بكتابة ملحمة تدور حول هذا البطل السويسرى الذى تتألف سيرته من التاريخ الصحيح وأوهام الأساطير في مزيج واحد ؛ ومن أخباره أن « جيسلر »<sup>(٤)</sup> الطاغية أمره أن يضرب بسهمه تفاحةً توضع على رأس ابنه ، فإن أخطأ الهدف كان جزاؤه القتل ؛ لكن جيمته لم يفتته في مشروع ملحمة إلى شيء ، فصمم شلر أن يخرج الموضوع في مأساة مسرحية ، إذ كان



الأديبان الصديقان قد تحدثنا في الأمر ملياً فلأ الموضوع نفس شلر واعتزم أن يخرج به ؛ وجاءت المأساة رائعة بارعة ، تقبلها الناس أحسن القبول ، لأنها رمز حتى قوى لما يشدونه من حرية لأنفسهم ، وقد عمل جيته على تمثيلها في « فيمار » . ومن مواقف الرواية التي تملك على النظارة الأفئدة والقلوب ساعة ينتصر « تل » في تصويب سهمه إلى التفاحة ، فيخلص بهذا من المحنة القاسية التي تعرض لها بأمر من المستبد الطاغية ، وهنا لحظ المستبد « جيسلر » سهمها آخر في منطقة « تل » فاستوضحه الأمر .

تل : ( مضطرباً ) إنها عادة اعتادها رماة السهام يا مولاي  
جيسلر : كلا يا « تل » لا أستطيع أن أغضى عن هذا الجواب  
إني لموقن أن قد دفعتك إلى ذلك دافع آخر

خبرني الحق في صراحة وصدق

وأعدك بالنجاة كأننا ما كان الأمر ،

فيم هذا السهم الثاني ؟

تل : إذن فاسمع يا مولاي

فما دمت قد وعدت ألا تورطني موارد الهلاك

فسأعلن الحق في غير خفاء

( يجذب السهم من منطقتة ، وينظر إلى الحاكم نظرة مخيفة )

لو كنت أصبت ولدى العزيز بيدي

لوجهت هذا السهم الثاني إلى قلبك

وثق أني ما كنت عندئذ لأخطئ الهدف

ومات شلر سنة ١٨٠٥ فاتته بموته الفترة الاتباعية في الأدب الألماني ، فلئن بقي

جيته بعد ذلك حياً حتى سنة ١٨٣٢ فقد كان المذهب الابتداعي الجديد الذي استهل به

القرن التاسع عشر قد ذاع وانتشر .

## الفصل الرابع عشر

### في الأدب العربي

من سقوط بغداد إلى نهاية القرن الثامن عشر

بلغ الأدب العربي ذروته قبل سقوط بغداد ، أى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، أو النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد تغلب الفرس أولاً والترك ثانياً ولسكنهم حافظوا على السيادة العربية ولو ظاهراً بالبقاء على الخلافة ، وانتقلهم إلى اللغة العربية يتأدبون بها ، ويظهرون بها نتائج أفكارهم وعقولهم ، وعلى كل حال فلم تكن سلطة الفرس والأترك سلطة تدمير وتخريب ، وظلت الحركة العلمية والأدبية فى عهدهما نامية زاهرة ، ولم يترك المتكلمون باللغة العربية ناحية من نواحي العلم والأدب إلا عاجلواها وبحشوا عنها وألفوا فيها ، فكانت ثروتهم إذا قيست بثروة الأمم الأخرى فى عصرهم من أغنى الثروات ، وعقليتهم وتفكيرهم وأدبهم من خير ما فى العالم إن لم يكن خيره .

حتى جاء هجوم التتر فأفسد كل شىء ، إذ كان اعتداء مخرباً مدمراً ، من قوم متبررين لا ثقافة عندهم ولا مبادئ ولا عدل ولا دعوة ولا غرض إلا التسلط والإبادة والإخضاع . فقد تحرك المغول من التتار الذين يسكنون جنوبى سيبيريا ، وهم قوم شداد غلاظ كانوا يعيشون على الغارة والصيد ، وكان بأسهم بينهم شديداً ، حتى رأسهم جنكيزخان فوحد كلمتهم . وبعد أن أتم فتوحه فى الشرق الأقصى اتجه نحو الغرب فهجم على المملكة الإسلامية فيما وراء النهر ، واستولى على مملكة شاه خوارزم ، ثم اكتسح بجيوشه خراسان وفارس . يذبح أهلها ، ويخرب حضارتها .

ثم جاء هولاكو حفيد جنكيزخان فصمم على الاستيلاء على الدولة العباسية سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ وعمرّج على قلعة ألموت ففتحها وأخذها من الإسماعيلية وقتل من فيها واستولى على الرى ، ثم قصد بغداد سنة ٦٥٥ = ١٢٥٧ وكان أهلها فى خلاف بين سنين وشيعيين ، وقد خدع الخليفة المستعصم وفتحها وأعيانها حتى حضروا إلى هولاكو



في معسكره فأمر بذبحهم ، ثم هجم على دار الخلافة فاستولى على ما بها وأباح بغداد أربعين يوماً وقتل من أهلها — كما يقول بعض المؤرخين — أكثر من مليون وثمانمائة ألف ، وخرّب عمرانها ورمى كتبها في دجلة ؛ وبذلك قضى على حضارة ونتاج عقول ظلت تعمل قروناً . وأصبحت بغداد — التي كانت ملجأ العلماء والأدباء ومضرب المثل في المدنية والحضارة — تنعى من بناها .

وقد أثرت هذه الغزوات في العالم العربي أسوأ الأثر ، فهذه المنطقة التي اكتسحتها التتار كانت أنضر وأنضج بقعة في الحياة العقلية والأدبية ، يقلدها ويحذو حذوها سائر الممالك العربية ، فلما فقدت فقد المتعلمون أسانديهم . وقد استمر هذا الإفساد والتخريب مدة طويلة اجتثت فيها الأشجار من جذورها ، فقد ظل هؤلاء المغول من ٦٥٤ — ٧٥٠ أي نحو قرن وهم يحكمون المسلمين بقسوتهم وجهالتهم ووثنيهم إلى أن بدأوا يتحضرّون ويقومون العلم ويسلمون .

قال الديار بكري في تاريخه « الخمس » :

« وفي سنة أربع وخمسين وستمائة خرج الطاغية العنيد مبيدُ الأمم هولاكو ، فأخذ قلعة الموت من الإسماعيلية وقتلهم ، وأخرّب نواحي الرى ، وبذلت السيوف على عوائدهم فتوجه الكامل محمد — صاحب ميافارقين — إلى خدمة هولاكو ، فأعطاه الفرمان ، ثم رل هولاكو بأذر بيجان وأخذها .

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنيّة والرافضة أدّت إلى نهب عظيم وخراب ، وقتل عدّة من الرافضة ، فغضب لها وتنفّر ابن العلقمي الوزير ، وجسّر التتار على العراق ليشتفي من السنيّة .

وفي أول سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولاكو — ابن تولى بن جنكيزخان المغلي — ببغداد بجيوشه وبالكرايج وبعسكر الموصل ، فخرج الدويدار بالعسكر ، فالتقى بطلانغ هولاكو وعليهم ياجنوس ، فانكسر المسلمون لقتلهم . ثم أقبل ياجنوس فنزل على بغداد من غربيها ونزل هولاكو من شرقيها . فقال الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم بالله : إني أخرج إلى القاء الأعظم في تقرير الصلح . فخرج السكاب وتوثق لنفسه ورجع . فقال : إن القاءان قد رغب في أن يزوّج بنته بابنك ، وأن تكون الطاعة له

كالمملوك السلجوقية ويرحل عنك . نخرج المستعصم في أعيان دولته وأكابر الوقت ليحضرُوا  
العقد ، فضربت رقاب الجميع ، وقتلوا الخليفة : رفسوه حتى مات . ودخلت التتار بغداد  
واقسموها ، وأخذ كل ناحية ، وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً ، وقتل من سلم ،  
فبلغت القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة . فعند ذلك نادوا بالأمان ، ثم أمر  
هولاكو بضرب عنق ياجنوس ، لـسكونه كاتب الخليفة ، وأرسل إلى صاحب الشام يهدده  
إن لم يخرج أسوار بلاده .

كذا في « دول الإسلام » .

وفي تاريخ الجلالى يوسف : سبب قتل المستعصم بالله أنه لما ولي الخلافة لم يتوثق أمره  
لأنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك ، نازل الهمة ، مهملًا للأُمُور المهمة ، محباً لجمع المال .  
أهمل أمر هولاكو وانقاد إلى وزيره ابن العلقمى ، حتى كان في ذلك هلاكه وهلاك  
الرعيصة ، فإن وزيره ابن العلقمى الراضى كان كتب كتاباً إلى هولاكو ملك التتار في  
الدشت : أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك . وكان قد داخل قلب اللعين السكفر .  
فكتب هولاكو : إن عساكر بغداد كثيرة ، فإن كنت صادقاً فيما قلتها وداخلاً في طاعتنا  
فرق عساكر بغداد ونحن نحضر ، فلما وصل كتابه إلى الوزير ، دخل إلى المستعصم وقال :  
إن جنودك كثيرة ، وعليك كلفة كبيرة ، والعدو قد رجع من بلاد العجم ، والصواب أنك  
تعطى دستوراً خمسة عشر ألفاً من عسكرك ، وتوفر معلومهم . فأجابه المستعصم لذلك . نخرج  
الوزير لوقته ، ومحا اسم من ذكر من الديوان ، ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها ،  
ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ، ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ثم كتب إلى  
هولاكو بما فعل . وكان قصد الوزير بمحى التتار أشياء ، منها : أنه كان رافضياً خبيثاً ،  
وأراد أن ينقل الخلافة من بنى العباس إلى العلويين ، فلم يتم له ذلك ، من عظم شوكة بنى  
العباس وعساكرهم ، فأفكر أن هولاكو إذا قدم يقتل المستعصم وأتباعه ، ثم يعود إلى  
حال سبيله ، وقد زالت شوكة بنى العباس ، وقد بقى هو على ما كان عليه من العظمة  
والعساكر وتدبير المملكة ، فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الراضى من غير ممانع لضعف  
العساكر ولقوته ، ثم يضع السيف في أهل السنة .  
فهذا كان قصده ، لعنه الله .



ولما بلغ هولاء ما فعل الوزير ببغداد ، ركب وقصدها إلى أن نزل عليها ، وصار المستعصم يستدعى العساكر ويتجهز لحرب هولاء ، وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاء ، وخرجوا إلى ظاهر بغداد ، ومشى عليهم هولاء كوعساكره ؛ فقاتلوا قتالا شديداً ، وصبر كل من الطائفتين صبراً عظيماً ؛ وكثرت الجرحى والقتلى في الفريقين ، إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاء كوعساكره ؛ وساق المسلمون خلفهم ، وأسروا منهم جماعة ؛ وعادوا بالأسرى ورءوس القتلى إلى ظاهر بغداد ، ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدو . فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شطر الدجلة ؛ فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ؛ فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم ، وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها . وكان الوزير قد أرسل إلى هولاء كوعساكره يعرفه بما فعل ؛ ويأمره بالرجوع إلى بغداد ، فرجعت عساكر هولاء كوعساكره إلى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردّهم ؛ فلما أصبحوا استولوا على بغداد ؛ وبذلوا فيها السيف ، ووقعت منهم أمور يطول شرحها .

والمقصود أن هولاء كوعساكره استولوا على بغداد وأخذ المستعصم أسيراً ، ثم بذل السيف في المسلمين ، فلم يرحم شيخاً كبيراً لسكبه ، ولا صغيراً لصغره .

ولما أخذ الخليفة أسيراً هو وولده أحضر بين يديه ، وأمر به هولاء كوعساكره ، فأخرج من بغداد ، وأنزله بمخيم صغير بظاهر بغداد هو وولده . ثم في عصر ذلك اليوم وضع الخليفة وولده في عدلين وأمر التتار برفسهما إلى أن ماتا في الحرم سنة ست وخمسين وستائة ، ثم نهبت دار الخلافة ومدينة بغداد ، حتى لم يبق فيها لا ما قل ولا ما جل . ثم أحرقت بغداد بعد أن قُتل أكثر أهلها ، حتى قيل إن عدّة من قُتل في نوبة هولاء كوعساكره على ألف ألف وثلاثين ألف إنسان . وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم هذا ، وبقيت الدنيا بلا خلافة سنين ، إلى أن أقام الملك الظاهر بيمبرس البندقدارى بعض بنى العباس في الخلافة ، حسبما يأتي ذكره على سبيل الاختصار .

وكانت خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً ، وتقدير عمره سبع وأربعون سنة . وزالت الخلافة من بغداد .

قال الشاعر :

خلت المنابر والأسيرة منهم فعليهم حتى الممات سلام  
أما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف في أهل السنة ،  
فجاءوا بخلاف ما أراد ، وبذلوا السيف في أهل السنة والرافضة كلهم ، وهو في منصبه  
مع الذل والهوان ، وهو يظهر قوة النفس والفرح ، وأنه بلغ مراده ، فلم يلبث أن أمسكه  
هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ، ووبخه بألفاظ شنيعة معناها : أنه لم يكن له خير في  
مخدومه ولا في دينه ، فكيف يكون له خير في هولاكو ؟

ثم إنه قتله شر قتلة ، في أوائل سنة سبع وخمسين وستائة .

إلى سقر ، لا دنيا ولا آخرة ! » . اهـ

\*\*\*

وما كادت الأمة تغيق من غشيتها حتى جاء تيمورلنك فأعاد سيرة أجداده جنكيزخان  
وهولاكو ، واحتاح أسيا الصغرى ، وأكثرت في الأرض الفساد والتخريب والقتل .  
والشام التي استعصت على هولاكو لم تستعص على تيمورلنك ، فخرّبها فخرّب ،  
وقتل علماءها فيمن قتل ، ومات سنة ٨٠٧ بعد أن عصفت بالبلاد عصفه ثانية .

فلا عجب بعد هذا كله أن تذبل الحياة العلمية والأدبية في العالم العربي ، وأن يكون  
طابع النتاج العقلي والفني طابع تقليد للسابقين ، أو جمع لما قال الأولون ، وألا ترى ابتكاراً  
إلا في القليل النادر .

لقد أغلق الشرق على نفسه من القرن الثالث عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن  
عشر تقريباً ، فلم يتصل بالغرب إلا اتصالاً عدائياً حربياً في الحروب الصليبية ، أو اتصالاً  
تجارياً ضعيفاً ، أما اتصالاً ثقافياً علمياً أدبياً فلا . ولهذا لما بدأ الغرب في القرن الخامس  
عشر والسادس عشر يضع أساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد  
وغير ذلك مما غير وجه حياته تغييراً تاماً لم يصل إلى الشرق شيء منها ، ولم يشعر بها ،  
واستمر في دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الأولى من غير روح ، ولم يقنعه للحياة الجديدة  
في الغرب إلا عند غزو نابليون مصر .



العراق وما حوله أفسده وخربه التتار ، وعرب الأندلس انسحبوا أمام غزوات الأسبان ، وبلاد الغرب أصبحت فريسة للبربر ، ومصر والشام خضعتا لاستبداد المماليك ثم الأتراك العثمانيين . فكيف نرجي من هذا كله نهضة علمية أو أدبية ، ولا حرية لأهل البلاد ، ولا عدل حكام ، ولا استقاء من منابع جديدة تحرك الركود ؟ لذلك كان أكثر ما نعرضه من الحياة العلمية والأدبية حياة تقليدية لما كان قبل سقوط بغداد غالباً .

وفي هذه الحقبة من التاريخ كانت أصلح بقعة في العالم العربي للعلم والأدب هي مصر والشام ، لأنهما أمنا من تخريب هولاء كو — أولاً — وأمنت مصر من تخريب تيمورلنك ثانياً ، ولأنهما كانتا تحت حكم المماليك ، وهم كانوا أرحم من التتار ، وكانوا يجلبون من بلاد مختلفة لبس لهم فيها تاريخ ولا لغة ولا أدب يتعصبون له ، ثم رأوا أن البلاد التي يحكمونها تتعصب للغتها ودينها وتاريخها ، ورأوا أن الحاكم لا بد لسهولة حكمه أن يجاريهم في شعورهم الديني واللغوي ؛ فتجيبوا إلى الناس بمظاهر الدين ، ومظاهر اللغة والأدب ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس ، وقربوا العلماء والشعراء ، فحي العلم والأدب في حمايتهم ما لم يحى مثله في سائر البلاد العربية ، فازدهت القاهرة والاسكندرية وأسيوط وقوص — في مصر ، ودمشق وحلب — في الشام ، بالعلماء والمدارس والمكتبات ، ونشطت الحياة العلمية والأدبية ولسكن في الحدود التي رسمناها من قبل .

### ( ١ ) الشعر :

كان الشعر العربي في العصر العباسي وقبله شعراً أرسقراطياً في الأعم الأغلب ، يزهر في بلاط الخلفاء ، وقصور الأمراء ، ولهذا كان أكثره مديحاً ، وقل أن نجد شاعراً يشعر في نقد المجتمع أو تحليل مشاعره ، كما فعل أبو العلاء المعري . وبجانب هؤلاء شعراء غنوا لأنفسهم في حبهم وغزلهم أو ولوعهم بالخمر كأبي نواس ، ولسكنهم بجانب شعرهم هذا هم شعراء مداحون أيضاً ، متصلون بالبلاط والأمراء ، يعتمدون عليهم في معيشتهم ، وقل أن نجد مثل العباس بن الأحنف الذي يشعر لحبه فقط .

ولهذا كان عماد الشعر هم الخلفاء والأمراء في مجالسهم وذوقهم ، وكان هؤلاء الخلفاء والأمراء يتذوقون الشعر ، ويعرفون جيده ورديته ، وكثير منهم يشارك في قوله ، ويشيب

عليه بمقدار جودته وخدمة أغراضه . فلما سقطت بغداد ، وأصبح البلاط بلاط أعاجم ،  
والأسماء ومن بيدهم مقاليد الأمور أعاجم ، لا يحسنون العربية ، ولا يتذوقون المديح وإن  
أثابوا الشعراء فمن تقليد لا عن ذوق ، ضعف هذا النوع وهو أكثر الشعر ، وصار  
تقليداً ضعيف الروح ، فآثر الحرارة مهلهل النسيج .

ثم لم يكن الجو جو حرية تنمو فيه مشاعر الفنان فيغنى لنفسه ، ويشعر لمواظفه ،  
بل كان الجو خانقاً ، وعيشة الشعب ضنكاً ، ومن لم يكن من طبقة الحكام وأتباعهم  
جاهد في الحياة جهاداً مراراً لتحصيل القوت ، ومحال أن تنمو مشاعر الفنان الذي يريد  
أن يغذى مشاعره ومشاعره من حوله بفننه في هذا الجو الخانق البائس ، ثم أصيب الفن  
بفكرة قاتلة ، وهي ظن أهله أن قيمته في كثرة حليته ، كالفلاحة الساذجة ترى أن جمالها في  
ملء يديها بالأساور الكثيرة ، وصدرها بالعقود الضخمة ، وأذنها بالقرط الثقيل الوزن ، ورجلها  
بالخلخال الضخم ، وثيابها بما يبرق ويلمع ، فإن لم تفعل ذلك لم يكن جمالاً ، وهيئات أن تفهم  
أن هناك جمالاً للبساطة يفوق جمال التركيب والتعقيد ، وأن جمال السوار ليس في ضخامته ،  
ولا القرط في ثقل وزنه ، ولا الثوب ببريقه ولمعانه ؛ فقد يكون سوار بسيط فيه من  
الجمال ما يفوق أضعافه وزناً ، وأن من الألوان الباهتة ما يفوق الألوان الصارخة . ولكن  
هذا الجمال الذي أدركه أمثال البهاء زهير لم يدركه كثير من شعراء هذا العصر وكتابيه ،  
وأفسدهم أمثال صاحب بن عباد ، وابن العميد ، والقاضي الفاضل ، والعماد ، وشعراء  
البدیع ، فظنوا أن الفن هو الحلية . وما زال كل جيل يأتي يتفنن في زيادة هذه الحلية  
حتى ثقلت عليه وأعجزته عن الحركة وأفقده روحه .

وما أكثر من نجد في هذه العصور من أسماء الشعراء ، ولكن ما أقل من نجد  
من الشعراء حقاً .

لقد كان الشعر تقليداً . يقرأ الشاعر من المتأخرين ما تصل إليه يده من دواوين  
السابقين ، ويستل معانيهم ، ويصوغها صياغة من عنده هي في الأغلب أقل قيمة من  
صياغة من سبقه وإن زاد في حليتها . كما قال مجير الدين بن تميم الأسعدي الذي توفي  
بجماعة سنة ٦٨٤ :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيري



أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري  
والشاعر يقلد ولولم يذق ، يكون رجل دين فيتغزل في الحجر ، وعفيفاً فيتغزل في المذكر ،  
وفي وسط المدينة فيمبكي الأطلال والدمن ، وهكذا من أنواع التقليد السمج .  
ولما فقدوا المعاني والعواطف عمدوا إلى الزينة يفرطون فيها لتكون عوضاً عما فقدوا ،  
وهيهات أن تعوّض الروح بمادة ، فأسرفوا في التورية ، كقول نصير الدين الحماصي  
وكتب به إلى السراج الوراق ، وكان يسكن « الروضة » .

كم قد ترددت للباب الكريم لكي      أبل شوقي وأحيي ميت أشعاري  
وأنثنى خائباً ممماً أومله      وأنت في « روضة » والقلب في نار

والتضمين كقول أبي الحسين الجزار :

قفا نبك من ذكرى قيص وسروال      ودراعة لي قد عفا رسمها البالي  
وما أنا من يبكي لأسماء إن نأت      ولكنني أبكي على فقد أسمالي

والاقتباس كقول ابن العفيف التلمساني :

يا عاشقة——بين حاذروا      مبيتها من ثغره  
فطرفه الس——احر مذ      شككتكم في أمره  
يريد أن يخرجكم      من أرضكم بسحره

وهكذا تفننوا في أنواع البديع ، وتسابقوا في استكشافها وتسميتها والإكثار من  
القول فيها ، حتى أوصلها ابن حجة الحموي إلى ١٤٢ نوعاً ، زادها من أتى بعده أيضاً وجاءوا  
في شعرهم بأمثلة كثيرة منها :

ومما كثر في هذه العصور وذاع وشاع المداخل النبوية ، فكانهم لما حرموا عطاء  
الملك والأمراء على مدائحهم ، وغلب على الناس الالتجاء إلى الدين لفساد الدنيا ، وشاع  
التصوف سواء ما كان منه صحيحاً أو مزيفاً ، كثر اتجاه الشعراء إلى المداخل النبوية ، وكان  
كل شاعر يتفوق في الشعر يرى واجباً عليه أن يقول في هذا الباب . وكان من أسبقهم  
في هذا البوصيري المصري ( ١٢١١ — ١٢٩٤ ) وقد قلد قصيدة « بانث سعاد »  
لسكعب بن زهير . وكان البوصيري من تلاميذ أبي العباس المرسى في التصوف ، وكان

(فقيراً كثير الشكوى من كثرة الأولاد ، وكان كاتباً صغيراً من كتاب الحساب ، وقد مدح الأمير التركي أيدمر واستجده في قصيدة بلغت ٣١٠ من الأبيات .  
وأهميته الكبرى في مدائحه النبوية ، فقد أنشأ البردة التي مطلعها :  
أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم  
وهي في ١٥٩ بيتاً .

والهمزية التي مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتهم ————— سماء  
وهي طويلة ذكر فيها حياة الرسول ومعجزاته وغزواته .

وذخر المعاد على وزن « بانت سعاد » ، وهي ٢٠٦ .

وقد راجت قصائده هذه رواجاً كبيراً بين الشعب ، وخاصة البردة والهمزية ، لأن شعره فيهما من أحسن الشعر في نظر أهل العصر ، ولأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهاال وتجاوزان مطالب نفسه .  
ومن عظم شأن البردة أن كانت مثل كثير من الشعراء يقلدونها إلى زمن البارودي ، فقال على وزنها وقافيتها قصيدته :

يا رائد البرق يمم دائرة العلم واحد الغمام إلى حي بذي سلم  
وشوق في قصيدته « نهج البردة » ومطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم  
وأكثر الناس من تشطيرها وتخميمها .

وتفنن المقلدون للبردة كل تفنن ، فمن ذلك أنهم وضعوا قصائد في المديح النبوية ضمنوها كل أنواع البديع ، فكل بيت فيه نوع من البديع وفيه تشييل له ، وسميت كل قصيد « بديعية » ، وبدأ ذلك صفي الدين الحلي (٧٥٠ هـ) فعمل بديعته التي أولها :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم واقر السلام على غرب بذي سلم  
وجاء بعده ابن نباتة (٧٦٨) فعمل بديعته :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالفضا تتسعر



وجاء عن الدين الموصلى (٧٨٩) فزاد على ذلك أن جعل البيت من القصيدة يحمل اسم النوع البديعى وأولها :

براعة تستهل الدمع فى العلم عبارة عن نداء المفرد العلم  
وتبعه ابن حجة الحموى (٨٣٧) فعمل بديعته المشهورة على هذا المنوال ومطلعها :

لى فى ابتداء مدحك يا عرب ذى سلم براعة تستهل الدمع فى العلم  
الخ ...

وهكذا سأل سيل هذا النوع من الشعر فى ذلك العصر فما وجد الشعراء بابا يفتح للتقليد حتى ازدحموا عليه ، وأرسلوه قولاً ، وما أسهل التقليد وأصعب الابتكار .  
وقد ترجمت البردة إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية .

\*\*\*

وأكثرنا من المقطعات فى وصف الأشياء المألوفة كوصف سجادة ووصف مسبحة ، وفى الحوادث التى تعرض كوصف سقوط مئذنة وقتل زنديق ، كما أكثرنا من الأبيات فى الأغاز وأمثال ذلك من موضوعات خفيفة

وفى العصر العثمانى أكثرنا من مقطوعات التاريخ وعدوه نوعاً من البديع ، وهو أن يأتى الشاعر بكلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجُمَّل بلغت عدد السنة التى يريدنا الشاعر ، فأرخوا لقدم وال وعرس غنى وموت عالم .

وأفراطوا فى أقوال الهجر بألفاظ عارية صريحة لا تورية فيها ولا إيماء ، مع ضعف فى الأسلوب وضعة فى المشاعر وإغارة على معانى السابقين .

وعلى الجملة فقد سقط الشعر أسلوباً ومعنى وعاطفة وخيالاً إلا فى القليل النادر .

شهد هذا العصر فى أوله « صفى الدين الحلى » وقد عدّه بعضهم أكبر شعراء عصره (١٢٧٨ — ١٣٥١م) وقد ولد فى الحلة (مدينة كبيرة فى العراق على شاطئ الفرات) وزار القاهرة فى عهد الملك الناصر ، ثم عاد إلى ماردين واتصل ببلاط الأسرة الأرتقية فى ماردين وكان شاعرها .

وهو يمثل أكبر تمثيل شعر عصره من التصنع واللعب بأنواع البديع . فمثلاً أنشأ القصائد

الأرتقيات وهي تشتمل على ٢٩ قصيدة كل قصيدة ٢٩ بيتا ، وكل قصيدة لحرف من حروف الهجاء ، يبتدى كل بيت به وينتهى به ، فقصيدة أول كل بيت فيها همزة وآخره همزة وهكذا . ومحال أن تجتمع الروح الشعرية العالية مع هذا التصنع البالغ . وكلها في مدح الملك المنصور الأرتقي الذي حكم ماردین من سنة ١٢٧٤ — سنة ١٣١٢ ، وقد قال شعرا في مصر في مدح ملكها ، وقد ترجم شعره المصري إلى اللاتينية والألمانية ، وطبع ديوانه في دمشق وبيروت ، ومن أحسن شعره قوله :

إن غبت عن عياني      يا غاية الأماني  
فالفكر في ضميري      والذكر في لساني  
ما حالَ عنك عهدى      ولا انثنى عناني  
شوقي إليك باقى      والصبر عنك فاني

وقوله :

قد نشر الزنبقُ أعلامه      وقال : كلُّ الزهر في خدمتي  
لوم أكن في الحسن سلطانه      ما رُفِعَتْ من دونه رايتي  
فقهره الورد به — آخرأ      وقال ما تحذر من سطوتي ؟  
وقال للسَّوسَنِ ماذا الذى      يقوله الأشيبُ في حضرتي ؟  
فامتعض الزنبقُ من قوله      وقال للأزهار يا رفقتي  
يكون هذا الجيش بى محققأ      ويضحك الورد على شيبتي

ومن مُلحه الطريقة الدالة على نزعة تجديدية قوله :

إنما الحيزبُون والدردِيسُ      والطلّخا والنقاخُ والعلطيسُ  
لغةٌ تنفّر المسامع منها      حين تُروى وتشمّرُ النفوسُ  
وقبيحٌ أن يُذكرَ النافرُ الوَحْ      شئٌ منها ويُترك المائوسُ  
أين قولِي : هذا كَثِيبٌ قديمٌ      ومقالى : عَقَنْقَلٌ قَدُموسُ  
خلٌّ للأضمةِ مِىَّ جَوْبَ الفَيافى      فى نِشَافٍ<sup>(١)</sup> نخِفَ فيه الرُوسُ



إِنَّمَا هَذِهِ الْقُلُوبُ حَدِيدٌ وَلَذِيذُ الْأَلْفَاظِ مِغْنَاطِيسٌ

\*\*\*

وتنوعت بسط الرياض ؛ فزهرها  
من أبيض يقي ، وأصفر فاقع ،  
والظل يسرق في الخائل خطوه  
وكأنما الأغصان سوق روافص  
والشمس تنظر من خلال فروعها  
والطلع في خلل الكمام كأنه  
والأرض تعجب كيف تضحك والحيا  
فاصرف همومك بالربيع وفضله

متبين الأشكال والألوان :  
أو أزرق صاف ، وأحمر قاني  
والغصن يحطر خطرة النشوان  
قد قيّدت بسلاسل الربحان  
نحو الحدايق نظرة الغيران  
حلل تفتق عن نحر غواني  
يبكي بدمع دائم الهملان  
إن الربيع هو الشباب الثاني

كما اشتهر ابن نباتة (١٢٨٧ — ١٣٦٦) وقد ولد في ميفارقين ونشأ في مصر ، ورحل إلى دمشق واتصل بالملك المؤيد أمير حماة وكان كاتباً له ، ودعاه السلطان حسن ليكون كاتبه في مصر فلبى الدعوة ولكن السلطان مات في السنة التالية ، وقد خالف لنا ديوان شعر ، وهو كثير الشكوى فيه من فقره وبؤسه وشيبه وزمانه وكثرة أولاده ، ومن أمثلة شعره قوله :

منعتني الدنيا جنى فتزهد  
تواكبن تزهد الغلوب  
ووهت قوتي فأعرضت كرها  
عن لقاء المكروه والمحبوب

لا عار في أدبي إن لم ينل رتباً  
وإنما العار في دهرى وفي بلدى  
هذا كلامي وذا حظي فيا عجباً  
منى لثروة لفظ وافتقار يد

لقد أصبحت ذا عمر عجيب  
أقضى فيه بالأنكاد وقي  
من الأولاد خمس حول أم  
فواحرباه من خمس وست !

تركت المال والجاة  
لأهل القدر والقدره  
فحسبي من حمى كسر  
وحسبي من غنى كسره

لقد أصبحت في حال  
يرق مثلها الحاجر

مشيبٌ وافقةً — ارُّ يدٍ — فلا عينٌ ولا أثرُ

وقالوا فلانٌ رَمَّ بالشعر عيشه  
تَصَرَّم أقصى العمر أدعوك للهنى  
وأصبر والأيام تَقْتَلِنِ أنى  
أرى دون حظي مسلكاً متوعراً  
ويحمرُّ دمي حين تصفرُّ وجنتي  
ولا ذنب لي عند الزمان كما ترى  
فما لستُ به ابن نبأته مراعاة النظير ، كقوله :

وكنْتُ أخا سَعْدَى فأصبحتُ عمَّها  
فهيهات لي جدُّ بتقبيل خالها

وقد تنازع صفي الدين الحلي ، وابن نبأته المصري زعامة الشعر في عصرهما ، هذا في مصر وذاك في العراق ، وقالوا الشعر في كل الأغراض التي قال فيها الشعر من سبقهما ، من غزل ، وخمریات ، ومديح ، وشكوى ، ويغلب على ابن نبأته الشكوى ، ويغلب على صفي الدين الفخر والمديح ، وقد كانت نفسية ابن نبأته أضعف ، فقد عاش أكثر حياته في ظل الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد كان مستبدا جباراً ، وعهده مملوء بالفتن والقتال ، وقد دعاه حذره إلى كثرة سفكه للدماء ومصادرتة للأموال والإفراط في التمجيس ، فأما بذلك النفوس ؛ هذا إلى أن ابن نبأته كان مرزاً من فقر ، وكثرة عيال ، وموت أطفال ، ومن أجل ذلك لا ترى في شعره هجاء قويا ولا نقداً لعمل من الأعمال ، ولا التفاتاً إلى الشعب ، وظلم الراعي له ، وإذا عاتب عاتب عتاباً رقيقاً كقوله :

لئن ضاع مثلي عند مثلك إنني — لعمر المعالي عند غيرك أضيع  
متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد — لديك اعتناء غير أنك تسمع

وإذا عادى أحداً فوض أمره إلى يوم الحساب :

لي خصوم ولست الآن شاكيهم — لكنهم في غد يدرون أين شكوا

ولكن صفي الدين الحلي كان أقوى وأكثراً اعتداداً بنفسه ، يقول الكثير في

الفخر من مثل قوله :



وفتيمة إن نقل أصغوا مسامعهم لقولنا أو دعوناهم أجاونا  
قوم إذا استخضمو كانوا فراغة يوما وإن حُكموا كانوا موازينا

وعلى الجملة فكان شعر صفي الدين أجزل وأقوى ، وأقرب إلى الديباجة العربية  
العباسية ، وأقل احتفالا بالبديع ، وكان ابن نباتة أسهل وأرق وأملا بالفكاهة ، وأكثر  
زينة بأنواع البديع .

وكان بين الشاعرين صلة ود ، تبادلوا الشعر ، وتعارضا المديح ، وكان كل منهما مثالا  
يحتذى لشعراء عصره .

ثم البوصيرى وقد تقدم ذكره .

ثم الشاب الظريف ، وهو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات شابا ، وقد  
كان أبوه عفيف الدين التلمساني شاعرا كذلك محسنا .

والشاب الظريف شاعر غزل خفيف الروح ، أولع بالبديع كأهل زمانه ولكنه استعمله  
في رقة وعذوبة ، كقوله :

|                                                     |                                             |
|-----------------------------------------------------|---------------------------------------------|
| عَمَّا اللَّهُ عَنْ قَوْمِ عَفَا الصَّبْرُ مِنْهُمْ | فلورُمتُ ذِكْرِي غَيْرَهُمْ خَانِي الْقَمُّ |
| تَجَنُّوا كَأَنَّ لَا وَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ    | قَدِيمًا وَحَتَّى مَا كَأَنَّهُمْ هُمُ      |
| وَبِالْجِزَعِ أَحْبَابٌ إِذَا مَا ذَكَرْتَهُمْ      | شَرِقتُ بدمع في أواخره دمُ                  |
| أَلَمْ وَمَا فِي الرَّكْبِ مِنْ مُتَيْمٍ            | وعاد وما في الركب إلا مُتَيْمٍ              |
| وَلَيْسَ الْهَوَى إِلَّا التَّفَاتَةُ طَامِحِ       | يروقُ لعينيهِ الْجَمَالُ الْمُتَعَمِّمُ     |
| خَلِيلِي مَا لِلْقَلْبِ هَاجَتْ شَجُونُهُ           | وعاودَه داءُ مِنَ الشَّوْقِ مُؤَلِّمُ       |
| أَظُنُّ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْهَا قَرِيبَةً          | وإلا فَمِنْهَا نَفْحَةٌ تُتَنَسَّمُ         |

وقال فيما يجد العاشق وما يصنع :

|                                               |                                              |
|-----------------------------------------------|----------------------------------------------|
| لَا تُخَفِّ مَا فَعَلْتُ بِكَ الْأَشْوَاقُ    | وأشرحُ هَوَاكَ فَكَلْنَا عُشَّاقُ            |
| فَعَسَى يُعِينُكَ مِنْ شَكْوَتِ لَهْ الْهَوَى | في حَمْلِهِ ، فَالْعَاشِقُونَ رِفَاقُ        |
| لَا تَجْزَعَنَّ فَلَسْتَ أَوَّلَ مُغْرَمٍ     | فَتَسَكَّتْ بِهِ الْوَجَنَاتُ وَالْأَحْدَاقُ |

وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الحَبِيبِ فَرَبَّمَا  
كَمْ لَيْلَةٍ أَسْهَرْتُ أَحْدَاقِي بِهَا  
يَا رَبِّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أَحْبَبْتُهُمْ  
وَأَسْوَدَ حَظِّي عِنْدَهُمْ لَمَّا سَرَى  
عُرْبٌ رَأَيْتُ أَصْحَ مِيثَاقِي لَهُمْ  
أَلَا يَصِحُّ لَدَيْهِمْ مِيثَاقِي

ثم سراج الدين الورّاق (١٢١٨ - ١٢٩٦) وهو شاعر مكثّر، ملأ شعره كثيراً من الكتب التي تعرض للنماذج الشعرية. عمل في الديوان المصري. وقد قالوا إن شعره يبلغ ثلاثين جزءاً ولم يبق منه الآن إلا مقتطفات جمعها الصفي. ومن أمثلته :

قال في شكر الله على نعمائه :

إِلْهِى لَقَدْ جَاوَزْتُ سَبْعِينَ حِجَّةً  
وَعُمِّرْتُ فِي الْإِسْلَامِ فَازْدَدْتُ بِهِجَّةً  
وَعَمَّ نُورُ الشَّيْبِ رَأْسِي فَسَرَّنِي  
وَقَالَ فِي لَوْمِ النَّفْسِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ :

يَا خَجَلْتِي وَصَحَائِفِي سَوْدَ غَدَتُ  
وَمُؤَيِّجِي لِي فِي الْقِيَامَةِ قَالَ لِي :  
وَقَالَ فِي التَّرَفُّعِ :

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أَنْاسٍ  
وَرَبُّ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ بَغِيضُ  
وَقَالَ فِي الْحَيْنِ إِلَى الْأَحْبَابِ :

وَقَفْتُ بِأَطْلَالِ الْأَحْيَاءِ سَائِلًا  
وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أُرَوِّى دِيَارَهُمْ  
وَدَمْعِي يَسْقِي ثَمَّ عَهْدًا وَمَعْهَدًا  
وَحَظِّي مِنْهَا حِينَ أَسْأَلُهَا الصَّدَى

ثم ابن الوردي المولود في معرة النعمان ١٢٩٠ والمتوفى في حلب ١٣٤٩ وقد كتب في النحو والفقه والتصوف ؛ وقد اشتهر في الشعر بقصيدته في الحكم والمواعظ منها قوله :  
اعتزل ذِكْرَ الأغاني والغزل  
وقل الفصلَ وجانبَ من هزل



ودع الذكرَ لأيام الصِّبا      فلا أيام الصِّبا نجمٌ أَفْلُ  
 إن أهنا عيشة قضيتها      ذهبت لذاتها والابنمُ حَلْ  
 واجر الخثرة إن كنت فتى      كيف يسعى في جنون من عقل  
 صدق الشرع ولا تركن إلى      رجل يرصد بالليل زحل  
 حارت الأفكارُ في قدرة من      قد هدانا سبلنا عن وجل  
 كتب الموت على الخلق فكم      فل من جمع وأفنى من دول

① ثم ابن حجة الحموى (١٣٦٦ — ١٤٣٤) ولد في حماة وزار الموصل ودمشق ومصر، ورأى دمشق وهي تحترق أثناء حصار السلطان برقوق لها ووصف ذلك في رسالة بعث بها إلى « ابن مكناس ». وقد اشتهر في شعره بالمدايح النبوية وبما أنشأ في ذلك من بديعية، وقد جمع شعره الذي ألفه في الشام ومصر، وألف كتابا في مختارات من النثر والنظم سماه « ثمرات الأوراق ».

\*\*\*

ويصح أن نقف وقفة عند شاعر مشهور في ذلك العصر وهو عبيد الغنى النابلسي (١٦٤١ — ١٧٣١) وهو شاعر صوفي على الطريقة النقشبندية والقادرية، وقد ولد في دمشق من أسرة من أصل نابلسي وقد تعلم علوم الدين، ثم غلبت عليه النزعة الصوفية، وقد سافر إلى القسطنطينية سنة ١٦٦٤، وعاد منها إلى البقاع ولبنان، وفي سنة ١٦٩٣ رحل إلى مصر ثم إلى الحجاز، ثم عاد إلى الصالحية بدمشق، وقد شرح ديوان ابن الفارض، وله شعر صوفي كثير سار بين الناس، وقد أعاد لنا في شعره نغمة من نغمات ابن الفارض وابن العربي تُشعر بوحدة الوجود.

وقد اشتهر في العصر العثماني من المصريين، عائشة الباعونية، اشتهرت بمدائح الرسول أيضا، وعبد الله الشبراوي وهو من أكابر شيوخ الأزهر، أغرم بالشعر وقال قصائد في المدائح النبوية والغزل، ومن أمثلة شعره قوله في مدح آل البيت :

آل طه ومن يقل آل طه      مستجيراً بجاهكم لا يرُدْ  
 حبكم مذهبي وعقدُ يميني      ليس لي مذهب سواه وعقد  
 منكم أستمّد بل كلُّ من في الد      سكون من فيض فضلكم يستمّد

يبتكم مَهْبُطُ الرِّسَالَةِ وَالْوَحْدِ  
وَلَكُمْ فِي الْعُلَا مَقَامٌ رَفِيعٌ  
يَا ابْنَ بَنَاتِ الرَّسُولِ مِنْ ذَا يُضَاهِيهِ  
يَا حُسَيْنًا هَلْ مِثْلُ أُمِّكَ أُمَّ  
يَ وَمِنْكُمْ نُورُ النَّبَوَةِ يَبْدُو  
مَا لَكُمْ فِيهِ آلَ يَاسِينَ نَدُّ  
لَكَ افْتِخَارًا وَأَنْتَ لِلْفَخْرِ عَقْدُ  
لَشَرِيفٍ أَوْ مِثْلُ جَدِّكَ جَدُّ

ويقول في بعض أسفاره متشوقاً إلى مصر :

أَعِدْ ذِكْرَ مِصْرَ ؛ إِنَّ قَلْبِي مُوَلِّعٌ  
وَكِرَّرْ عَلَى سَمْعِي أَحَادِيثَ نِيلِيهَا ؛  
بِلَادُهَا مَدَّةَ السَّمَاحِ جَنَاحَهُ  
رَوْبِدًا إِذَا حَدَّثْتَنِي عَنْ رُبُوعِهَا ؛  
إِذَا ضَاحَ شَجَرُورٌ عَلَى غَضَنِ بَانَةٍ  
عَمَى نَحْوَهَا يَلْوِي الزَّمَانُ مَطِيَّتِي  
لَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا مَعَاهِدُ لَذَّةٍ  
بِمِصْرَ ، وَمَنْ لِي أَنْ تَرَى مُقْلِي مِصْرًا ؟  
فَقَدْ رَدَّتِ الْأَمْوَاجُ سَائِلُهُ نَهْرًا  
وَأَظْهَرَ فِيهَا الْمَجْدَ آيَتَهُ الْكَبْرَى  
فَتَطْوِيلُ أَخْبَارِ الْهَوَى لَذَّةٌ أُخْرَى  
تَذَكَّرْتُ فِيهَا اللَّحْظَ وَالصَّعْدَةَ السَّحْرَا  
وَأَشْهَدُ بَعْدَ الْكُسْرِ مِنْ نِيلِهَا جَبْرًا  
تَقَضَّتْ وَأَبْقَتْ بَعْدَهَا أَنْفُسًا حَسْرَى

ومن الشاميين شمس الدين الهلالي ، وحسين بن الجزري ، ومنجك باشا ، وأحمد بن  
الياس الكردي الخ .

وفي العراق ابن معتوق الموسوي (١٦١٤ — ١٦٧٦) ، وله ديوان مشهور امتلاً بمدح  
حكام من الفرس في عهد الصفويين .

\*\*\*

وهكذا تقرأ في دواوين الشعراء في ذلك العصر ، فتراها كرقعة الشطرنج تتجدد  
حجارتها ، وتختلف أوضاعها ، وللحجارة أسماء من ذوات الروح كالفرس والفيل والجندي  
والوزير والشاه ، ولكن ينقصها الروح — وأقوال مرردة هي صدى لما قبلها ، ولذلك  
كثر في هذا العصر التأليف في السرقات الشعرية يقول البحتری :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هو  
شبهه بين جوانحي وضلوعي  
فيردده آخر بقوله :

إن الغضا لست أنسى أهله فهو  
شبهه بين ضلوعي يوم بينهمو



وقد ذكروا أن صلاح الدين الصفدى بالشام أغار على معانى جمال الدين بن نباتة فى مصر ، فلم يترك له معنى إلا أخذه ، حتى اضطر ابن نباتة أن يؤلف كتابا يجمع فيه هذه السرقات سماه « خبز الشعير » ، واستهله بقوله : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَوْ أَلَدْتُ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا » :

ومما ورد فى هذا الكتاب من أمثلة السرقة قول ابن نباتة :

بروحى طيب الأنفاس ألقى ملى الحسن حالى الوجنتين  
له خالان فى دينار خد تباع له القلوب بحبتين  
فقال الصلاح :

بروحى خذه المحمر أخت عليه شامة ، شرط الحجة  
كأن الحسن يعشقه قديماً فنقطه بدينار وحبسه

فقال ابن نباتة : « لا إله إلا الله سرق الصلاح — كما يقال — من الحبنتين حبة »  
وتلفت إلى الغرب وتستعرض قصة الشعر فيه فترى الشعر كان قبل « النهضة »  
كشعرنا أو أقل ، ثم عملت فيه عوامل الرقى كما عملت فى كل مرافق الحياة ، فبدأت الحياة  
تدب فيه وأخذ النزاع يثور بين الأدباء حول الكلاسيكية والرومانتية ، وأخذ التحول من  
الأرستقراطية إلى الديمقراطية ، ونبع شيكسبير فى إنجلترا ، وأمثاله فى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا  
كما أسلفنا ، وأخذ هؤلاء الشعراء يفتحون فى الشعر أبواباً جديدة وآفاقاً جديدة فى الموضوع  
وفى الأسلوب وفى الأوزان ، وأخذ الشعر يرق شيئاً فشيئاً ، كما أخذ الشعر العربى فى مثل ذلك  
العصر ينفط شيئاً فشيئاً . وذلك تبعاً للبيئة الاجتماعية والسياسية . فالتحولات هناك شمل كل  
مرافق الحياة ومعها الفن ومنه الشعر . والحريات السياسية والاجتماعية أخذت تثمر ثمارها إذ  
كانت فى الشرق تخفق شيئاً فشيئاً من ظلم الحكام ورفاهيتهم وفقر الشعوب وبؤسها ، ودعا الدعاة  
هناك إلى تقويم الدنيا كما تقوّم الآخرة وأن يستمتع بالحياة ما أمكن . وفى الشرق رأوا الاستمتاع  
بالحياة غير ممكن فى ظل ظلم الحكام ففرقوا فى التفكير فى الآخرة إلى حد التخريف ، ونسوا  
قول الله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . ومما زاد  
الطين بلة أن عدوى الشرق مما يحدث فى الغرب لم تكن ، لأن الأبواب موصدة والحواجز

بين الاقليميين في الأمور الثقافية متينة ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى دخول الفرنسيين مصر .

\*\*\*

وقد اعتاد مؤرخو الأدب العربي أن يترفعوا عن تاريخ الأدب الشعبي وعرضه في مختارهم ، مع أنه يمثل خير تمثيل ذوق الشعب ومشاعره . وقد كان في هذا العصر نوع من الشعر الشعبي يقال ويتمنى به وتوصف به الأحداث وتحكى به المشاعر من موشحات وأزجال ودوبيت ومواويل وكان وكان .

وقد كثرت هذه الأنواع من الشعر في هذه العصر ، وتحرروا فيها من التقيد باللفظ الفصيح ، والنحو الصحيح واستراحوا فيه من قيود القوافي والأوزان ، وكان في الواقع أكثر قبولاً عند العامة ، بل وبعض الخاصة ، وأنبض بالحياة — وكان أقرب إلى نفس الملوك والأمراء أيضاً لأنهم أقرب إلى العامة في ذوقهم اللغوي .

وراج الزجل في أيام بني قلاوون وأيام برقوق وشغل به الناس . واشتهر من الزجالين في هذا العصر « خلف الغباري » وبدر الدين الفرضي وأحمد الدرويش وغيرهم .

ومن أمثلة ما قاله الغباري في مدح الملك الأشرف شعبان :

|                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| حب قلبي «شعبان» موفق رشيد | وجمالو أشرف ومالو حدود       |
| وأبوه الحسن وعمه الحسين   | وارث الملك من جدود الجدود    |
| سل لحظك صارم لقتل العدي   | وأنت منصور طول المدى والسنين |
| زعى السعديين يدبك «جاويز» | فرح القلب بعد ما كان حزين    |
| ونصب لك كرسي على المملكة  | ظهر لك نصره بفتحه المبين     |

وترى للشعر العامي أمثلة كثيرة في قصة « الزير سالم » و « الزناتي خليفة » وفي بدائع الزهور لابن إياس .

وقد استعمله في الفكاهة المرة الشمينخ الشريدي في كتابه « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » الذي ألفه سنة ١٦٨٧ فكتبه باللغة العامية المصرية ، وجعل بطل القصيدة



«أبا شادوف» نموذجاً للفلاح المصرى يصف فيها شقاءه وبؤسه وجهله وقلة ذوقه ، ويشير فى لباقة إلى أن ذلك نتيجة ظلم الحُكام وقسوتهم فى استخراج الأموال وسوء معاملتهم للفلاح . فكان موضوع الكتاب على هذا الوضع منجى جديداً فى الأدب واتجاهاً به إلى الديمقراطية ، ووصفاً للفلاح وكوخه الحقير ، حيث كان الأدب إنما يتجه إلى قصور الأُمراء والملوك .

### ( ب ) النثر :

كان النثر الفنى ينقسم إلى قسمين : كتابة ديوانية أو « رسمية » تستعمل فيما يصدر عن الحكومات أو السلاطين ، وقد أنشئ له ديوان خاص اسمه « ديوان الإنشاء » يشرف عليه أشهر من عرف بالأدب ، وكان رئيس هذا الديوان يجمع بين السياسة والقلم ، فالإليه تنتهى أسرار الدولة ، ويتصرف فيها عن السلطان ، ومنه تصدر المكاتبات الهامة ، وإليه تُرد ، وهو يشارك السلطان الرأى والمشورة ، ويتولى الكتابة فى أدق الأمور كالعلاقات الخارجية ، والأزمات السياسية ، والثورات الداخلية ، وتقليد المناصب ، ومكاتبات العمال والأُمراء ، والإنباء بالوقائع الحربية ، ونحو ذلك ، ولذلك لا يكفى فى اختياره القدرة الكتابية ، بل القدرة السياسية أيضاً ، والثقافة الواسعة . وقد تولى هذا المنصب المالك فى مصر نجر الدين بن لقمان ، ثم محبى الدين بن عبد الظاهر ، ثم ابنه فتح الدين ، وعلاء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين الحلى ، وابن فضل الله العمري الخ . وقد صدر عن هذا الديوان كتب كثيرة كانت نماذج للأدب ، كما ألفت كتب كبيرة ليتربى عليها من يُعدُّون لهذا المنصب .

وقد قوى هذا الديوان فى عصر المماليك ثم ضعف فى عصر الأتراك العثمانيين لما تحولت الكتابة الرسمية من العربية إلى التركية .

ويتميز هذا النوع من الكتابة بالمحافظة على الألقاب الرسمية ، فلا يوضع لأحد لقب أعلى ولا أقل من لقبه الرسمى ، وقد تواضعوا على مصطلحات فى ذلك كما نتواضع نحن الآن على التفرقة بين صاحب السعادة وصاحب العزة ، فقد اصطلمحوا - مثلاً - على أن يكون الأشراف أرفع من الشريف ، والشريف أرفع من الكريم ، والكريم أرفع من العالى

والعالى أرفع من السامى ، وركن الإسلام والمسلمين أرفع من عز الإسلام والمسلمين ، كما جعلوا اللقب الملقق به ياء النسبة أرفع من الخالى منها ، فالقاضى أرفع من القاضى وهكذا وقد وضعوا للكتابة فى الموضوعات المختلفة مناهج مختلفة ، فى التهيئة بالنصر يتبسط الكتاب فى شكر الله ، وتعظيم النصر ، وذكر ما يتصف به المدوح من عزم وإقدام وصبر ، ووصف جيش عدوه والتهويل فيه ، وبذل الجهد فى التغلب عليه ، والتنكيل به الخ ، وهكذا فى كل لون من ألوان الكتابة .

وقد عرض القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى نماذج كثيرة لهذا النوع من الكتابة فى العصور المختلفة .

وهذا النوع يحتاج — أول ما يحتاج — إلى دقة تامة فى التعبير ، قرب كلمة فى غير موضعها ، أو عبارة غير دقيقة أضاعت على الدولة فوائد كثيرة أو أوقعتها فى مضار كبيرة ، كما يحتاج إلى الوضوح التام حتى يفهم المعنى المقصود على حقيقته ، فإن احتيج إلى نوع من الحسنات فإظهار القوة فى موضع القوة ، واللين فى موضع اللين ، ومعرفة موضع نوع الكلام المكتوب فى نفسية المكتوب إليه ، حتى يؤدى الغرض المطلوب منه .

ومع هذا فقد انصرف كثير من كتاب هذا النوع عن هذه الأوصاف ومالوا إلى السجع ، والبديع ، والتورية ، والتضمين ، والاقتباس ، وما إلى ذلك كما فعلوا فى الشعر ، ولو أضاعوا فى ذلك جوهر الموضوع . وكان الذى يحمل كبر ذلك قديما ابن العميد ، والصاحب بن عباد فى الرى ، ثم القاضى الفاضل ، والعماد الإصفهاني فى مصر ، وهؤلاء وإن كان فى كتاباتهم شىء من الروح ، فقد ضعفت أو فقدت على تقدم الزمان ، ونحن إن قسنا هذا النتاج الرسمى بمقياس زمننا استخرج منا التبسم .

وقد وصف القلقشندى حالة الكتابة فى عصره بقوله : « وإنما تقاصرت المهم عن التوغل فى صناعة الكتابة ، والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك ، لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم ، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :



وصناعتي عربية وكأنتي ألقى بأكثر ما أقول الروما  
فلن أقول وما أقول وأين لي فأسير بل أين لي فأقيا؟

\*\*\*

والنوع الثانى من النثر الفنى ما يسمى بالرسائل الأدبية ، أو الإخوانيات ، وهى  
— عادة — تكون مكتوبة بين أصدقاء من الكتّاب فى عتاب ، أو استهداء ، أو إهداء ،  
أو مناظرات أدبية ، أو وصف مشاهدات ، أو فكاهات ، أو مقامات أو نحو ذلك ، وقد  
يضاف إلى ذلك كتب فى موضوعات تاريخية ، أو أدبية ؛ عنى فيها بالصياغة الفنية ،  
« كفا كهة الخلفاء » لابن عربشاه فى حكم على السنة الحيوانات ، و « عجائب المقدور  
فى أخبار تيمور » و « ريحانة الألباء » لشهاب الدين الخفاجى .

وكل الكتّاب من هذا النوع ، ساروا على نفس المنهج ، الذى سار عليه كتاب  
الدواوين ، من التزام السجع ، والإغراق فى البديع ، ورعايتهم للشكل اللفظى أكثر من  
المعنى والموضوع ، وتفاخرهم بما يأتون به من حلية البديع ، فإذا تم له تركيب حلاه بحلى  
شقى من التورية والتضمن والاقتباس والجناس فخر كل الفخر ، ولو كان المعنى  
سخيفاً ، بل قد يدير المعنى ليتفق والبديع — ولم يستطيعوا أن يدركوا أن المعنى  
الجميل أو الشعور الجميل فى اللفظ السهل ، الجارى مع الطبع ، أجمل بكثير من معنى  
تافه ، محلى بكل أنواع البديع أو مشاعر متصنعة تجلت بكل أنواع الزينة ، وقد أدرك  
هذا المعنى فى دقة تدعو إلى الإعجاب كاتب انغمس فى هذا الوسط واسكنه تحرر منه ،  
وهو ابن خلدون إذ قال :

« وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنشور ، من كثرة الأسجاع ،  
والترام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنشور إذا تأملته من  
باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه  
الطريقة ، واستعملوها فى الخطابات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنشور كله على هذا  
الفن الذى ارتضوه ، وخططوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل ، وخصوصاً أهل المشرق ،  
... وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على أسنتهم ، وقصورهم لذلك

عن إعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال ، فمجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمدته في البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومطابقة الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويفعلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء القول ككتاب المشرق ، وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصرف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجعون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ذلك التجنيس .

فعند ابن خلدون أن الكلام المرسل المطابق لمقتضى الحال خير من المسجوع ، وأن السجع والبديع دليل فقر المعنى ، وأن الإفراط في التحلى بهما دليل الانحطاط ، ومصدق ذلك ابن خلدون نفسه فلما غزرت معانيه تحرر قلمه ولما رقى أسلوبه تحلى ببساطة الجمال .

\*\*\*

من أشهر البارزين من أوائل الكتاب في هذا العصر القلقشندي المصري ، عمل بديوان الإنشاء بمصر ، وله إلى كتاباته الرسمية كتابات من النوع الثاني في التهاني ، أو وصف انتصار أو مقامة أو نحو ذلك .

وكتابته من أمثل ما عرف لأهل زمانه في أداء الغرض وقلة التكلف وعدم الإلحاح في البديع .

وهو من أصل عربي ينتسب إلى قوم من بني فزارة نزحوا مصر في مديرية القليوبية ومنها بلدة قلقشندة التي ينسب إليها ، ولعل لأصله العربي هذا دخلا في صحة أسلوبه إلى حد ما .

ومن إنشائه المشهور رسالة سماها « حلية الفضل وزينة السكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم » مثلها :

قال القلم للسيف « فررت من الشريعة وعدلها ، وعولت على الطبيعة وجهلها ، فافتخرت بحيفك وعدوانك ، واعتمدت في الفضل على تعديك وطغيانك ، فمات إلى الظلم الذي هو إليك أقرب ، وغلب عليك طبعك في الجور والطبع أغلب ، فلا فتنة إلا وأنت أساسها



ولا غارة إلا وأنت رأسها ، ولا شر إلا وأنت فاتح بابه ، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه ، تؤكّد مواقع الجفاء ، وتكدر أوقات الصفاء . وتؤثر القساوة ، وتوتر العداوة ، أما أنا فالحق مذهبي والصدق مركبي ، والعدل شيمتي ، وحلية الفضل زينتي ، إن حكمت أقسّطت ، وإن استعظمت حفظت وما فرطت ، لا أفشى سراً يريد صاحبه كتمه ، ولا أكتّم علماً يبتغى متعلمه علمه ... أدير في القرطاس كاسات خمرى فأزري بالمزامير وأهزأ بالمزاهر ، وأنث فيه سحر بياني فألعب بالألباب وأستجلب الخواطر ، وأنفذ جيوش سطورى على بعد فأهزم العساكر :

فلسكنم بفعل الجيش وهو عزمهم والبيض ما سلت من الأغصان  
فقال السيف : أطلت الغيبة ، وجلت بالخيبة ، وسكت ألفا ونطقت خلفا .  
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب  
إن نجادى حلية للعواتق ، ومصاحبتى آمنة من البواتق ، ما تقلدنى عاتق إلا بات غريزا ، ولا توسدنى ساعد إلا كنت له حرزا حريزا ، أمرى المطاع ، وقولى المستمع ، ورأى المصوب وحكى المتبع ، لم أزل للنصر مفتاحا ، وللظلام مصباحا ، وللعز قائد ، وللعداة ذا نداء ، فأنى لك بمساجلتى ومقاومتى فى الفخر ومنافرتى ، مع عرى جسمك ، ونحافة بدنك وإسراع تلفك ، وقصر زمنك ، وبخس أثمانك على بعد وطنك ، وما أنت عليه من جرى دمك ، وضيق ذرعك ، وتفرق جمعك ، وقصر باعك ، وقلة اتباعك .  
ويستمر الجدل بينهما فى نحو عشر صفحات ، وأخيرا يميل القلم إلى الصلح فيجتمعا  
إلى الأمير أبى يزيد الدوادار للسلطان برقوق فيعقد الصلح بينهما<sup>(١)</sup> .

\*\*\* ك ٥٧٧٩ / ٣٧٧٧

وفى الشام - مثلا - كان بدر الدين الحلبى وقد ألف كتابه « نسيم الصبا » الذى كان يعد فى زمنه قطعة فنية رائعة ، وهو فصول نحو الثلاثين ، فى وصف الطبيعة ، والأخلاق والأدب ونحو ذلك ، ملأ كل فصل منه بكل ما استطاع من أنواع الزينة . يقول - مثلا - فى وصف الكتّاب : « الكتّاب عماد الملك وأركانها ، وعيون المبصرة وأعوانه ،

وبهاء الدولة ونظامها ، ورءوس الرياسة وقوامها ، ملابسهم فاخرة ، ومحاسنهم باهرة ، وشمائلهم لطيفة ، ونفوسهم شريفة ، مدار الحل والعقد عليهم ، ومرجع التصرف والتدبير إليهم ، بهم تحلى العواطل ، وتبتسم ثغور المعازل ، مجالسهم بالفضائل معمورة ، وبتدائهم أندية القصاد مغمورة ، يهدون إلى الأسماع أنواع البديع ، وينزهون الأحداق في حدايق التوشيح والتوشيع ، هم أهل البراعة واللسن ، وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن ، يميلون إلى القول بموجب المدح ، ولا يميلون من مراجعة الراغبين في المنح ، دأبهم استخدام الناس بالمعروف ، وعدم التورية عن العاني والمهلوف ، يحلون الكبير ، ويبجلون الصغير ، ولا يخلون بمراعاة النظير ، لهم إلى الخير رجوع والتفات ، وبالجملة فقد حازوا جميع جميل الصفات .

بأيديهم أقلام ، تحتل بلطفها الأحلام ، صافية الجواهر ، زاهية الأزاهر ، لينة الأعطاف ، ناعمة الأطراف ، تبكي وهي مبتسمة ؛ وتسكت وهي بما يطرب السمع متكلمة ، قد اعتدلت قدودها ، وأشرقت في سماء البراعة سعودها ، . . . نشأت على شطوط الأنهار ، وتعلمت اللحن من اعراب الأطيار ، . . . الشجاعة كامنة في مهجتها ، والفصاحة جارية على لهجتها ، تهر بالنضارة نواظر البهار ، وتطرز بالليل أودية النهار ، إن قالت لم تترك مقالا لقائل ، وإن صالت رجعت السيوف مستترة بأذيال الخنايل . إلى أن يقول :

فاجتهد أعزك الله في طلابها ، واحرص على الدخول في زمرة أربابها ، وتمسك بأذيال بنينا ، تجد جوادا أو نبيلًا أو نبيا ، حسبهم شرفا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين ، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم فقال : « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين » .

وفي هذا الفصل صورة دقيقة لوصف الكاتب في هذا العصر في مظاهره وأغراضه ونفسيته وفنه .

\*\*\*

ويقول في وصف سفينة :

يا لها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات دُسر وألواح ، تجري مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادى بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد ولا تشرب . لها قلاع كالقلاع ، وشراع يحجب الشُعاع ، وسكينة وسُكَّان ، ومكانة وإمكان ، وجُؤجُؤ



وفقار ، وأضلاع محكمة بالقار ، وجسم عار عن الفؤاد ، وهو في عين الماء بمنزلة السواد . بعيد ما بين السَّحَر والنحر ، من أحسن الجوارى المنشآت في البحر ، معقود بنواصيها الخير كالخليل ، لا تَمَلُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل .

ما رأى الناس من قصور على الماء . سواها تسير سير القداح كأنها وعِلُّ يمحط من شاطئ ، أو عِرْباض سابق يحثه سائق ، أو عقرب سائلة ، أو عُقاب صائلة ، أو غراب أعصم ، أو تمساح أوارقم ، أو ظليم نفر في الظلام ، أو جواد فرّ مستسكفاً من حجة الأنام . حاكمها عادل في حكمه ، عارف بنقض أمرها وبرمه ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ بأسم الحى القيوم ، يبرز من نوايتها في جنود ، ويشمل إحسانهم أهلها أيقاظاً وعم رقود . يتأنقون فيما يعملون ، ويفعلون ما يؤمرون . يُسكثرون الصياح حتى كأن الس من تجرى من خوف ذاك الصياح .

\*\*\*

وفي آخر أيام العرب بالأندلس ظهر خاتمة الكتاب « لسان الدين بن الخطيب » الذى ترجم له المقرئ فى كتابه نفح الطيب فى نحو جزئين . وقد نشأ من بيت وزارة ، وكان هو نفسه وزيراً لبني الأحمر فى غرناطة ، وانغمس فى الأحداث السياسية ، وسفر إلى الملوك ، واكتوى بنار الفتن المشتعلة فى أيامه ، وقد وصف فى بعض كتبه ما يعانى رجال السياسة والوزارة فى عصره من عناء من « توقع المكروه صباحاً ومساءً ، وارتقاب الحوالة التى تدل من النعيم البأساء ، ولزوم المنافسة التى تعادى الأشراف والرؤساء ، وترتب العتب ، على التقصير فى الكتب ، وضعيفة جار الجنب ، وولوع الصديق بإحصاء الذنب ، ونسبة وقائع الدولة إليك وأنت برئ ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرى — وقطع الزمان بين سلطان يُعبد ، وسهام للغيوب تكبد ، وعجاجة شر تلبد ، وأقبوحة تخلد وتؤبد ، ووزير يصانع ويدارى ؛ وذى حجة صحيحة يجادل فى مرضاة السلطان ويمارى . . . . وسوق للانصاف والشفقة كاسد ، وحال فاسد ، ووفود تتراحم بسدك ، مكلفة لك غير ما فى طوقك ، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ، وجلساء ببابك ، لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك ، إلا بقمييح اغتيالك .

وما الفائدة فى فُرُش تحتها جمر الغضا ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلق عليه سيف منتضى . . . .

إلى أن يقول في أعباء الوزير ومتاعبه : « أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجزائر  
الضرائر ولوم ، وأما يومه فتدبير ، وقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها ثبير ، وبلاء مبير ، ولغظ  
لا يدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خبير »

ثم تحقق ما وصف ، فدست له الدسائس ، فترك الوزارة وذهب إلى فاس سنة ١٣٧١  
فاستقبل فيها استقبالا حسنا .

ثم لما عاد السلطان الذى يولى ابن الخطيب عطفه أعاد ابن الخطيب إلى غرناطة ،  
وما زالت تحاك حوله المؤامرات ، حتى اتهموه أخيراً بالتهمة التى تثير العامة ، ويتخلصون بها  
— دائماً — ممن يضايقهم وهى الزندقة ، فقد كان ابن الخطيب ألف كتابا اسمه « روضة  
التعريف بالحب الشريف » وهو كتاب فى التصوف ، نحا فيه منحنى القول بوحدة الوجود ،  
ففسبوا إليه القول بالحلول ، وأحضر إلى مجلس الشورى ، ووبخ وسجن ، وأفتى المفتون  
بقتله ، ودسوا إليه من قتلوه خنقا سنة ١٣٧٤ .

وقد كان واسع الثقافة ، ماما بعلوم أهل زمانه ، فقد أخذ الطب والمنطق والفلسفة  
عن ابن زهر ، والعلوم اللسانية عن ابن مرزوق ، كما كان واسع الاطلاع على التاريخ ،  
وخاصة تاريخ الأندلس ورجالها ، وألف فيه كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » .

وأسلوبه الأدبى من أرقى ما وصل إليه أسلوب زمانه ، يلتزم طريقتهم فى السجع  
والبديع ، ولكن يخفف ثقله غزارة معانيه التى تأتية من سعة اطلاعه ، إلى نبيله وخفة  
روحه . وقد عرف فى أسلوبه بالإطناب ، وطول النفس ، وإن لم يبلغ حد الإملال . وقد  
كان له آثار أدبية فى نواحى الأدب المختلفة من مخاطبات الملوك ، ومقامات وإخوانيات  
وغير ذلك ، ومن أمثلة أسلوبه قوله لمعلم كَتَّاب عاد إلى حرفة التعليم بعد أن هجرها .

« تعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد  
القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، ... حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك  
ولا بالجديب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان ؛ يميناً إن العلمين ، لاسادة  
المسلمين ، وإنى لأنظر منهم — كلما خطرت على المسكاتب — أمراء فوق المراتب ، من كل  
مسيطر الدرّة ، متقطب الأسرة ، متمنر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبته ، كالأمرير فى  
موكبه ، حتى إذا استقل فى فرشه ، واستوى على عرشه ؛ أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى



بالجبال وقاراً ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول كسرى في إيوانه ، والرشيد في أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فأى عيش كهذا العيش ، وكيف حال أمير هذا الجيش ، طاعة معروفة ، ووجوه إليه مصروفة ، فإن أشار بالانصات ، لتحقيق القصص ، فسكاً تلمس على الأنفواء ، ولأم بين الشفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيح ، وكم بين ذلك من رشوة تدرس ، وغمرة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ؟ هنا الله سيدي ما خوله ، وأنساه بطيب أخراه أوله .

هذا نموذج من خير من أخرجه هذا العصر من الكتّاب .

وفي العصر العثماني ربما كان أمثل الكتّاب شهاب الدين الخفاجي ؛ وهو مصرى ولد بسرياقوس من مديرية القليوبية ، ودرس بالأزهر ؛ وقد جمع بين الفقه والأدب واللغة وأفادته حياته فاطلع على كثير من شؤون الدنيا وتجارب الحياة ، فقد رحل إلى مكة مع أبيه ، ثم سافر إلى القسطنطينية وشغف هناك بتعلم الرياضة ؛ ثم عين وهو في الآستانة قاضياً للروملی ثم سالونيكاً ؛ ثم أرسل إلى مصر « قاضي عسكر » ، ثم عاد إلى القسطنطينية ثم عاد إلى مصر قاضياً ، وهنا وجه همته إلى التأليف في الأدب واللغة .

ومن خير ما ألفه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » أتى فيه بمقدمة حسنة عن التعريب ، ثم أورد الكلمات المعربة مرتبة على حروف المعجم .

وفي موضوعنا الأدبي خلف لنا « خبايا الزوايا » في ترجمة أدباء عصره ، وقسمه إلى خمسة أقسام : أدباء سوريا والحجاز ومصر والمغرب والروم (القسطنطينية) ، وقد أعاد هذا الكتاب في كتابه ربحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا .

وأسلوبه مسجوع متكلف للبديع كقوله في ترجمة ابن منبجك :

« الأميرُ محمدُ بنُ منبجك الجَرُّ كَسِيٌّ أصلاً ومَحْتَدًّا ، الشامِيُّ منشأً ومولداً ، أديبٌ أريبٌ ، ونجيبٌ وابن نجيب ، أورقُ عودُه بالشامِ وأثمر ، فإذا عُدَّت السجايَا عَرَضاً فسجاياه جَوهر ، نشأ بها والدهرُ أبيضُ أقرُّ ، ونادم العيش والعيش أخضر ، وللمقاع تأثيرٌ في الطباع ، والعرق — كما قيل — لمغرسه نَزاع ، ومن كان جارَ الرياض ، ليس طبعه بُرْدَ نسيمها القُفْضاض ، كما لبس النهر الجاري ، دِرْعَ النسيم الساري .

وقد نَسَجَتْ كَفُّ النِّسَمِ مُفَاضَةً عَلَيْهِ وما غَيْرُ الْحَبَابِ لَهَا حَلَقٌ  
وقد صَحْبَنِي بِحَلَقٍ وَنَسِيمُهُ سَجَسَجٌ ، وَخِيوطُ شَبِيبَتِهِ بِيَدِ الْكُهُولَةِ لَمْ تُنْسَجْ ،  
وَلَا زَمَنِي إِذْ رَأَى انْعِطَافِي عَلَيْهِ ، وَشَيْئُهُ الشَّيْءُ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ .  
وله شرح درة الغواص للحريرى ونقدها . قال فى أوله : « دعانى الانتصار للسلف ،  
إلى تمييز الدر من الصدف ، فضمامت إليها دررا تصيرها عقدا ، ونشرت عليها من جلستان  
الآداب نورا ووردا ، مما تنقرطق به الآذان ، وتتوشح بهرده معاطف الزمان » الخ وقد مات  
فى مصر سنة ١٦٥٩ .

\*\*\*

ثم توالى الضعف فى الكتابة حتى أصبحت لا لفظا ولا معنى ، وحتى أنواع البديع  
ثقلت وسمجت كقول عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجي : « لقد طفحت أفئدة العلماء  
بشرا ، وارتاحت أسرار الكتّابين سرا وجهرا ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ؛ وطارت  
الفضائل بأجنحة السرور ، بين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار  
التدقيق من سحائب أقلامه » وسبب ضعف النثر ما قلناه فى سبب ضعف الشعر .  
وأكبر مصيبة أصيب بها أدباء العربية — شعراء وكتّابا — أنهم شدوا أعينهم إلى قصور  
الخلفاء والأمراء ، وربطوا مشاعرهم بها ، ولم ينظروا إلى غيرها إلا تبعا ، ولم يشعروا  
بأنفسهم ، ولا لأنفسهم إلا قليلا ، فكان لهذا نتائج سيئة من وجوه شتى .  
١ — أن الأدب — أكثر ما كان — أصبح أرسقراطيا فى أغراضه من مديح واستعطف  
واستمناع واعتذار ونحو ذلك ، وفى ألفاظه ، إذ كان تحفة كالتحف التى تهدى أو تباع  
للملوك . أما أن تهيج مشاعر الشاعر أو الناثر فيفرج عن نفسه بالفن فقليل نادر .  
٢ — أن كثيرا من الشعراء والكتّاب أصيبوا بهذه الرابطة إصابات قاتلة من غضب  
السلطان أو النزاع السياسى بين الأمراء ، وتغلب أحدهم على الآخر فينكسر بأتباعه ،  
وكانت تلك سنة قديمة من عهد خلفاء بنى أمية إلى مثل مارأينا فى لسان الدين بن الخطيب ،  
ولو شعروا أو كتبوا لمشاعرهم ومشاعر الناس لأجادوا وسعدوا وحفظوا أرواحهم .  
٣ — لما ربطوا أنفسهم بالقصور ربطوا فئهم بها ، فالأمراء يعطون فيجود الفن ،  
ويعنعون فيضعف الفن ، والأمراء يجيدون العربية فيرقى الأدب ، ويجهلون العربية



فيضعف الأدب . والعثمانيون يحولون الدواوين إلى اللغة التركية فينهار الأدب ، ولو كان الأدب مستقلاً لاستقام سيره ولو اختلفت القصور .

٤ — كان لهذه الظاهرة أثر سيء في حياة الشعوب الشرقية نفسها ، فلو اتجه الشعراء والكتاب إلى الشعوب لوضعوا بذور الثورة على الملوك والأمراء إذا ظلموا الرعية ، ولأشعروا الشعب بآلامه ، ورسّموا له آماله ، واستحثّوه على بلوغ غايته — كما حدث من رجال الأدب في الغرب — فكان عملهم مبعث نهضتهم . أما في الشرق فلم يتجه الأدب شعراً ونثراً إلى الإصلاح الاجتماعي ، ولم يغنّ الفنان لنفسه ولقومه ، فكانت النتيجة ما نرى :

لقد كان الأدب الغربي في عصور الاقطاع على هذا المنوال ، فكان الشعراء والأدباء يستمدون شعرهم وأدبهم من الأمراء ، لأن الشعب لم يكن يطعم ولم يكن يغذى فناً ، إنما يفعل ذلك سادة الاقطاعات ، وكان لكل شاعر أو أديب راع من هؤلاء السادة ، وكان الأديب يستمد وحيه وموضوعاته من حياة الأمراء في لغتهم وأسلوبهم وملابسهم وسلوكهم ، وكانت الروايات التي تمثل إنما يقصد بها — أولاً — إلى تسليمة هؤلاء السادة باختيار الموضوعات التي تلذّم ، والمناظر التي تغذى كبرياءهم . ولكن « النهضة » حولت هذا التيار وجعلت الأدباء يتحولون إلى الطبقة الوسطى من الشعوب ، وغيّرت الموضوعات من قصور الأمراء إلى كوخ الفقراء ، وصورت حياة الطبقات الفقيرة كما كانت من قبل تصور حياة الطبقات الرفيعة ، وأمكن بانتشار المطابع أن يقوم ناشر الكتاب مقام الأمير في إمداد الأديب بالمال ، وأن يقوم رضا القراء من الشعب مقام رضا القصور . وقراء الشعب إنما يرضيهم أن يجدوا فيما يقرأون ما يصور نفوسهم وآمالهم وآلامهم .

أما في الشرق فلم يحدث هذا التحول ، لأن الحالة الاقتصادية لم تمكن الطبقات الوسطى والدنيا من اليسر المالي ، ولم تكن المطابع وانتشار القراءة والكتابة حتى يغنى الأدباء لهم ، فبقى الأدب العربي في أوضاعه القديمة لم يسعفه ما طرأ على الغرب .

وظلت موضوعاته كما هي في القديم ، فإن أنت نظرت إلى كتاب في المختارات من أدب هذا العصر رأيت ما يأتي : قال « صفي الدين الحلي » يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقال يهنئ المؤيد بالقدوم من الصعيد ، وقال ابن نباتة يمدح السلطان الأفضل ويعزّيه في والده ، وقال في الناصر حسن . فإن خرجوا عن هذا رأيت ابن الوردي يقول في الحكم ،

وقد نَسَجَتْ كَفُّ النسيم مُفاضَةً عليه وما غيرُ الحَبَاب لها حَلَقٌ  
وقد صَحِبَنِي بِحَلَقٍ ونَسِيمُهُ سَجَسَجٌ ، وخيوطُ شَبِيبَتِهِ يَمِيدُ الكَهْوَلَةُ لَمْ تُنْسَجْ ،  
ولَا زَمَنِي إِذْ رَأَى انْعِطَافِي عَلَيْهِ ، وَشَيْئُهُ الشَّيْءُ مِنْجَذِبٌ إِلَيْهِ .

وله شرح درة الغواص للحريرى ونقدها . قال فى أوله : « دعانى الانتصار للسلف ،  
إلى تمييز الدر من الصدف ، فضممت إليها دررا تصيرها عقدا ، ونشرت عليها من جلستان  
الآداب نورا ووردا ، مما تقررطق به الآذان ، وتتوشح بهرده معاطف الزمان » الخ وقد مات  
فى مصر سنة ١٦٥٩ .

\*\*\*

ثم توالى الضعف فى الكتابة حتى أصبحت لا لفظا ولا معنى ، وحتى أنواع البديع  
ثقلت وسمجت كقول عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجي : « لقد طفحت أفئدة العلماء  
بشرا ، وارتاحت أمرار الكتابين سرا وجهرا ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ؛ وطارت  
الفضائل بأجنحة السرور ، بين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار  
التدقيق من سحائب أفلامه » وسبب ضعف النثر ما قلناه فى سبب ضعف الشعر .

وأكبر مصيبة أصيب بها أدباء العربية - شعراء وكتابا - أنهم شدوا أعينهم إلى قصور  
الخلفاء والأمراء ، ووربطوا مشاعرهم بها ، ولم ينظروا إلى غيرها إلا تبعا ، ولم يشعروا  
بأنفسهم ، ولا لأنفسهم إلا قليلا ، فكان لهذا نتائج سيئة من وجوه شتى .

١ - أن الأدب - أكثر ما كان - أصبح أرسقراطيا فى أغراضه من مديح واستعطاف  
واستمناع واعتذار ونحو ذلك ، وفى ألفاظه ، إذ كان تحفة كالتحف التى تهذى أو تباع  
للملوك . أما أن تهيج مشاعر الشاعر أو الناثر فيفرج عن نفسه بالفن فقليل نادر .

٢ - أن كثيرا من الشعراء والكتاب أصبحوا بهذه الرابطة إصابات قاتلة من غضب  
السلطان أو النزاع السياسى بين الأمراء ، وتغلب أحدهم على الآخر فينكل باتباعه ،  
وكانت تلك سنة قديمة من عهد خلفاء بنى أمية إلى مثل مارأينا فى لسان الدين بن الخطيب ،  
ولو شعروا أو كتبوا لمشاعرهم ومشاعر الناس لأجادوا وسعدوا وحفظوا أرواحهم .

٣ - لما ربطوا أنفسهم بالقصور ربطوا فئتهم بها ، فالأمراء يعطون فيجود الفن ،  
ويمنعون فيضعف الفن ، والأمراء يجيدون العربية فيرقى الأدب ، ويجهلون العربية



فيضعف الأدب . والعثمانيون يحولون الدواوين إلى اللغة التركية فينهار الأدب ، ولو كان الأدب مستقلاً لاستقام سيره ولو اختلفت القصور .

٤ — كان لهذه الظاهرة أثر سيء في حياة الشعوب الشرقية نفسها ، فلو اتجه الشعراء والكتاب إلى الشعوب لوضعوا بذور الثورة على الملوك والأمراء إذا ظلموا الرعية ، ولأشعروا الشعب بآلامه ، ورسموا له آماله ، واستحثوه على بلوغ غايته — كما حدث من رجال الأدب في الغرب — فكان عملهم مبعث نهضتهم . أما في الشرق فلم يتجه الأدب شعراً ونثراً إلى الإصلاح الاجتماعي ، ولم يغنّ الفنان لنفسه ولقومه ، فكانت النتيجة ما نرى :

لقد كان الأدب الغربي في عصور الاقطاع على هذا المنوال ، فكان الشعراء والأدباء يستمدون شعرهم وأدبهم من الأمراء ، لأن الشعب لم يكن يطعم ولم يكن يغذى فناً ، إنما يفعل ذلك سادة الاقطاعات ، وكان لكل شاعر أو أديب راع من هؤلاء السادة ، وكان الأديب يستمد وحيه وموضوعاته من حياة الأمراء في لغتهم وأسلوبهم وملابسهم وسلوكهم ، وكانت الروايات التي تمثل إنما يقصد بها — أولاً — إلى تسلية هؤلاء السادة باختيار الموضوعات التي تلذهم ، والمناظر التي تغذى كبرياءهم . ولكن « النهضة » حولت هذا التيار وجعلت الأدباء يتحولون إلى الطبقة الوسطى من الشعوب ، وغيرت الموضوعات من قصور الأمراء إلى كوخ الفقراء ، وصورت حياة الطبقات الفقيرة كما كانت من قبل تصور حياة الطبقات الرفيعة ، وأمكن بانتشار المطابع أن يقوم ناشر الكتاب مقام الأمير في إمداد الأديب بالمال ، وأن يقوم رضا القراء من الشعب مقام رضا القصور . وقراء الشعب إنما يرضيهم أن يجدوا فيما يقرءون ما يصور نفوسهم وآمالهم وآلامهم .

أما في الشرق فلم يحدث هذا التحول ، لأن الحالة الاقتصادية لم تمكن الطبقات الوسطى والدنيا من اليسر المالى ، ولم تكن المطابع وانتشار القراءة والكتابة حتى يغنى الأدباء لهم ، فبقى الأدب العربي في أوضاعه القديمة لم يسعفه ما طرأ على الغرب .

وظلت موضوعاته كما هي في القديم ، فإن أنت نظرت إلى كتاب في المختارات من أدب هذا العصر رأيت ما يأتى : قال « صفى الدين الحلى » يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقال يهنئ المؤيد بالقدوم من الصعيد ، وقال ابن نباتة يمدح السلطان الأفضل ويعز به في والده ، وقال في الناصر حسن . فإن خرجوا عن هذا رأيت ابن الوردي يقول في الحكم ،

والشاب الظريف في الغزل ، وسراج الدين الوراق في شكر الله على نعمائه ، وفي لوم النفس على المعصية ، ومحبي الدين الحموى يصف روضاً أو نهراً — أما الدنيا وشؤونها والناس وحياتهم ومطالبهم فلا نجد فيها شيئاً .

وزاد الأمر سوءاً أن العثمانيين لما فتحوا مصر والشام وغيرها أرادوا أن يجعلوا القسطنطينية بخير ما في هذه البلاد ، فأخذوا من خزائن المدارس بمصر والشام أكثر الكتب القيمة التي فيها ، فخرموا البلاد أغلى كنوزها ، ونقلوا كثيراً من الأدباء والعلماء والمهندسين والوراقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم ، وقد قدرهم ابن إياس بنحو ألف وثمانمائة ، وغرقت بعض السفن التي تحملهم ، وكان هؤلاء الذين أخذوا خير من في مصر علماً وأدباً وفناً فتركوا البلاد في ظلام .

\*\*\*

وكما كان الشعراء والأدباء ينشئون كان بجانبهم من يجمع المختارات من أدبهم وأدب من قبلهم ، فألف جمال الدين الطواط (١٢٣٥—١٣١٨) كتابه « غرر الخصاص الواضحة » و « مباحج الفكر » :

وألف شهاب الدين الأبشهي المولود نحو سنة ١٣٨٨ — ١٤٤٦ كتابه « المستطرف في كل فن مستطرف » جمع فيه شعراً وقصصاً وأمثالاً .

وألف شمس الدين النواجي المتوفى سنة ١٤٥٥ « حلبة الكهيت » جمع فيه كثيراً مما قيل في البحر .

وألف داود الأنطاكي الطبيب المشهور صاحب التذكرة كتاباً في الحب وما قيل فيه سماه « تزيين الأسواق » ، وقد توفي سنة ١٥٩٩ .

وألف عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ١٦٨٢ كتابه الكبير خزانة الأدب ترجم فيه لكثير من الأدباء والشعراء من الجاهليين ومن بعدهم ، وجمع فيه معلومات قيمة ، وهو في الأصل شرح لشواهد « الكافية » في النحو بنى عليه هذه التراجم .

( ح ) القصص :

أما الأدباء الكلاسيكيون فأغلب نتاجهم القصص كان إنشاء مقامات يقلدون فيها



مقامات الحريري حتى كاد كل أديب يقيم البرهان على أدبه بإنشاء مقامة أو مقامات .  
فعمل شمس الدين بن الصيقل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ خمسين مقامة نسبها إلى ابن  
نصر المصري وروايتها إلى القاسم بن جريال الدمشقي .

وعمل محمد بن إبراهيم الدمشقي (٧٢٧) خمسين مقامة فلسفية ، وشهاب الدين الخفاجي  
بعض مقامات في كتابه « ريمانة الألبا » وهكذا إلى الشيخ ناصيف اليازجي .  
وكلها إذا وزنت بميزان القصة كانت خفيفة الوزن لضيق خيالها وقصر نفسها ، وضعف  
عاطفتها وقلة حبيكتها ، ورخاوة عقدتها .

وأما القصص الشعبية فكانت أوفر حياة ، وأوسع خيالاً ، وأدخل في باب القصص .  
وعلى رأس هذه القصص « ألف ليلة وليلة » ، وهو كتاب لم يعرفه أدباء العربية التفاتاً إلا بعد  
أن ذاع في أوربا وترجموه إلى لغات كثيرة ، وقدروه تقديرًا كبيراً . والسبب في انصراف  
الأدباء العلماء من أهل العربية عنه هو أنه شعبي في أسلوبه وموضوعه .

وإنما ذكرناه هنا ، لأنه لم يستكمل شكله الذي بين أيدينا إلا في عهد المماليك ،  
فقد ذكر المسعودي أن أصله فارسي واسمه « هزار أفسانا » ومعناه ألف ليلة ، وترجم  
من الفهلوية إلى العربية ، ويدل على فارسيته أسماءه الفارسية في هذا القسم من مثل  
« شيرازاد » ومعناه : النبيلة بالحسب ، وقد غيرت إلى شهرزاد ، ودنيا زاد ، ومعناه :  
النبيلة بالنسب ، وقد حرفت إلى دينار زاد . وقد زادت فيه الأمم العربية المختلفة على  
توالي العصور إلى آخر عصر المماليك . وقد اجتهد المستشرقون في تحليل قصصه ورد كل  
مجموعة منها إلى الأمة التي صدرت عنها وتحديد تاريخها ؛ فهناك قصص بغدادية تمثل حياة  
بغداد في عصر الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وهناك قصص مصرية تمثل حياة مصر  
« كأحمد الدنف ودليلة » .

وهناك قصص من أصل يهودي أدخلها فيها يهود تعرفوا كقصة كريم الدين ، وقصص  
من عصر قديم حيث ازدهرت التجارة في الخليج الفارسي والمحيط الهندي كقصة السندباد  
البحري ، وبعضها تدل حوادثها على قرب عهدها كقصة معروف وزوجته فاطمة ، فإن  
حوادثها تدل على أنها ألفت في القرن السادس عشر ، وكقصة أبي قير وأبي صير ، فإنها  
من أحدث ما كتب .

وأسلوبها قريب التناول يفهمه العامة والخاصة — سواء في ذلك شعرها ونثرها ، وبعض القصص تظهر فيها خصائص اللغة العامية السورية ، والبعض المصرية ، وكلها تصور الحياة الشرقية في دينها ودنياها ، ونظرتها إلى النساء ، وأوهامها وخرافاتها ، وإيمانها بالقدر ، ومباهجها وأحزانها وحياة قصورها ، وعلاقة حكمائها بشعوبها الخ . وقد انعكست فيها كل هذه الصور من غير شعور مؤلفيها .

وهي من الناحية الفنية تفوق المقامات بسعة خيالها ، وتنوع ألوانها وتصوير الحياة في مختلف أشكالها ، وحسن حكيكتها ، ومن أجل هذا لم يفل كتاب شرقي في الغرب ما لقيه كتاب « ألف ليلة » .

وقصة عنتر بن شداد المعروفة بسيرة عنتر ، والمنسوبة إلى الأصمعي العالم اللغوي المشهور في عصر الرشيد ، ولا شك أنها نسبة مختلقة ، وهي مؤلفة — كما يرى بعض المستشرقين — أيام الحروب الصليبية — وقد عدها بعضهم « إلياذة العرب » ، وقيمتها في أنها تمثل حياة البدو ، من كرم ، وانتقام ، ونجدة ، وحب ، وتذوق للشعر ، مزجت فيها حياة البدو في الجاهلية بحياتهم بعد الإسلام ، وحيك حولها كلها قصص لطيف بطلها عنتر بن شداد العبسي صاحب إحدى المعلقات . وقد ترجمت أجزاء منها إلى الإنجليزية والفرنسية .

ومن أشهر القصص قصة بني هلال ، وهي في الحقيقة سلسلة من القصص تصور أحداث بني هلال ممزوجة بالخيال الواسع ، منها قصة جابر وجبير تمثل بني هلال في القرون الأربعة الأولى للإسلام ، وقصة الخضراء — أم أبي زيد الهلال — وقصة السماء وزهر البان وقصة أبي زيد الخ ، وكلها تستمد حوادثها مما كان من غزوات وحروب من قبيلة بني هلال بين الغرب وحدود مصر في القرن الحادي عشر الميلادي ، وغير ذلك من القصص كثير : كقصة سيف اليزن ، وهي تدور حول شخصية عجيبة ، تفتح العالم وتحارب الجن ، وتخضع أهل الكفر للإسلام ، وكقصة ذات الهمة والظاهر بيبرس الخ .

وكلها قصص من الأدب الشعبي كانت تسلي الشعب ، وتغذي خياله وعواطفه ، يقرأها من يعرف القراءة ويستمتع لها الناس في المجتمعات من قارئين يحترفون قراءتها . وهي — وإن فضلت المقامات من ناحية فنها — فلا تعد راقية أمام الذوق الفني المذهب .



وربما كان من أهم أسباب ضعف القصص في الشرق ورقية في الغرب في هذا العصر حركة التمثيل في المسارح ، فقد رقيت في الغرب تقليداً للمسرح اليوناني وترقية له مع الزمان . وقد أُنِيَ الشرق أن يستعير الأدب اليوناني منذ العصر العباسي ، فاستعار العلوم ولما لم يستعير الآداب ، ولو استعارها لاقتبس منها المسرح ، ولكنه لم يفعل واقتبس من الغرب وسار به مع الزمان ، فكان مبعثاً للقصص الراق ، وما كان يكون شكسبير وأمثاله لولا المسرح وقد نشأ في الشرق مسرح هو « خيال الظل » اشتهر فيه وفي عمل الروايات له ابن دانيال ، ولكنه لم يتم ، ولم يرتق مع الزمان ، وظل بدايئاً طول حياته حتى انقضى أجله وقد نلاحظ — أيضاً — الانفصال الشديد بين أدب الخاصة وأدب العامة مع أن هذا الانفصال يقضى عليه في الأدب الغربي ؛ فكان للخاصة في الشرق مقاماتها وشعرها وإعراؤها ، وكان للعامة زجلها وقصصها ، وليس يمكن أن تعيش طائفة من غير أدب ، فالشعب لا بد أن يغذي مشاعره بأغانيه وزجله وأمثاله وأحاديثه (حواديت) ، فنبغ منهم أدباء يقومون بهذه الأغراض ، عندهم ملكة الأدب وإن لم يثقفوا ثقافة واسعة عميقة ، وكان من حسن الحظ أن لم يثقفوا لأنهم لو فعلوا لقالوا في أدب الخاصة ، والخاصة يترفعون عن أن يقولوا للشعب ، وإنما يتجهون إلى الأمراء وأمثالهم ، ولا تزال الحواجز بين الأدبين قوية إلى اليوم ، فكل من يكتبون في الأدب إنما يكتبون لمن يقرءون العربية الفصحى ، وهم المتعاملون ، وهم الأقلون . والسواد الأعظم من الأميين يعيش على الأغاني البلدية والأمثلة الشعبية والحواديت العامية ، ولم تحل مشكلة التقريب بين طبقتي الشعب في لغتها وأدبها إلى اليوم .

### ( ٥ ) التصوف والفلسفة :

وقد نشأ في هذا العصر التصوف سواء بين الخاصة والعامة ، ذلك لأن الناس فقدوا الدنيا فانصرفوا إلى الأخرى ، ويأسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض فأملوا في السماء ، ولم يجرؤوا أن يشوروا في وجه الحكام يطالبونهم بتحقيق العدل ففنعوا بالسلامة في ظل الأمل ، وضعفت عقولهم عن تمييز الحق من الباطل فملأوا التصوف بالخرافات والأوهام ، ولم تتجرد طبيعتهم من حب اللهو فأدخلوه في التصوف ، فكان فيه الغناء والموسيقى

والرقص وألعاب البهلوان ، وهرع الناس إلى المتصوفة يستمنحونهم البركة ، ويستقضون منهم حوائجهم ، ويقرعون بهم أبواب السماء ؛ وامتلات البلاد بأرباب الطرق ، ومشايخ الصوفية والأولياء ومدعى الولاية — وعلى الجملة ، فكان في الحياة الصوفية على سعتها وانتشارها حق قليل وباطل كثير .

وكان لهذا كله صدى في الأدب ، فكان عبد الغنى النابلسي شاعر المتصوفة ، وأشعاره الكثيرة تعيد علينا نغمات ابن الفارض وابن العربي .

وكان عبد الوهاب الشعراني زعيم المتصوفة المؤلفين في هذا العصر ؛ مصري قاهري ولد في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، ومصر ولاية عثمانية — وقد شاهد في هذا العصر ظلم الحكام للفلاحين ، وكثرة الضرائب عليهم ، وسوء تحصيل المال منهم ، كما شاهد سوء حال الصناعات والتجار ، فحب ذلك إليه التصوف ، وعاش في كنفه ينعم بمشاهدة الملائكة والأنبياء والتحدث إليهم ، وتلقى أوامرهم ونواهيهم ، وقص علينا في كتابه « لطائف المنن » كثيراً مما نم به في مشاهداته الروحانية — وألف كتباً كثيرة في التصوف شاعت في الناس وتأثروا بها ، وربما كان من خيرها طبقات الصوفية ، يترجم فيها للمتصوفين ويحكي لكل صوفي بعض حكمه وأقواله وأحداثه ، وكتابه « الميزان » يبحث فيه في أسباب اختلاف الأئمة بحثاً صوفياً طريفاً .

أما الفلسفة فلم تلق رواجاً في هذا العصر ، ونظر إليها على أنها نمط من الزندقة ، وربما نمت الفلسفة الإسلامية في الجو الشيعي أكثر مما نمت في الجو السني كما كان ذلك قديماً ، فقد أزهرت في العصر الفاطمي الشيعي في مصر ، ثم ضعفت في العصر الأيوبي السني ، وكذلك في عصرنا ربما عد بهاء الدين العاملي الشامي الشيعي أظهر رجال الشام ومصر في الفلسفة ممزوجة بالتصوف ، ولم يقتصر على الفلسفة ، بل تعدى ذلك إلى الرياضة والأدب ، وتظهر سعة نواحيه وتعددتها في كتابيه « الخلالة » و « الكشكول » ، فهما دائرة معارف غير منظمة فيهما الأدب والتصوف والفلسفة والحساب والهندسة الخ. وقد توفي سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢١ م — إنما نشطت حركة الفلسفة في هذا العصر في فارس في عهد الدولة الصفوية ، وكانت فلسفة إشرافية ممزوجة بالتصوف تعد من أساتذتها فيثاغورس وأفلاطون أكثر من أرسطو . وقد كان نتاج هؤلاء الفلاسفة الفرس كثير منه باللغة العربية — ورأسهم



في هذا الباب صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٦٤١ م وكتابه « الأسفار » من أعظم الكتب في الفلسفة ، مزج فيها آراء الفلاسفة اليونانيين بآراء ابن سينا بتصوف ابن العربي ، واستخرج من كل ذلك خلاصة قيمة ، وكانت شخصيته وكتبه ذا أثر كبير في الحركة الفلسفية في فارس إلى عصرنا الحاضر .

### ( هـ ) التأليف :

الحق أن حركة التأليف في هذه الفترة كانت كبيرة نشيطة — وخاصة في مصر والشام — فنظرة إلى ما ألف في هذا العصر في مختلف العلوم تدل دلالة واضحة على هذا النشاط .

وكان من حسن حظ العلم أنه لم يقصر نفسه على القصور كما فعل الأدب ، نعم إن بعض العلماء ألف للأمرء واتصل بهم ، واستفاد منهم ؛ ولكن الكثير كان يشتغل بالعلم في عزلة عن القصور — وكان أهم باعث لهم الباعث الديني ، فهم يؤلفون في التفسير والحديث للباعث الديني ، ويؤلفون في اللغة والأدب لأنهما وسيلتان من وسائل فهم القرآن والحديث ، على أن سلاطين الممالك من جانبهم فهموا من مقتضيات الملك وتأييده وعظمته وتجليد ذكره بناء المساجد — عادة توارثوها من أول أمرهم ؛ ولذلك حليت مصر في عهدهم بكثير من المساجد . وكان الصالح منهم يبني المسجد تديناً ، والفاسق يبنها مكفراً عن فجوره وظلمه ، إذ كانت عقليتهم أن لا بأس من الجمع بين تذيبح وتسميح ، وسرقة وصدقة ، وأن التسميح يجب التذيبح ، والصدقة تذهب بالسرقة .

وكان المسجد قطعة فنية جميلة حي بها الفن ، ولا يزال يعيش عليه دارسو الفن الإسلامي إلى الآن ؛ وكان أيضاً مدرسة ، لكل مسجد شيخه بل شيوخه ، ولهم تلاميذ ، وعليهم جميعاً الأوقاف تعينهم على طلب العلم ، وفي المسجد مكتبة للاطلاع والبحث ، فكان في كل مسجد حركة علمية تقوى وتضعف بمقدار الأوقاف وبكفاية شيخ المدرسة ، وعناية الأمرء بالمسجد ، وكان كثير من العلماء البارزين في هذا العصر شيوخ هذه المدارس أو المساجد ؛ كدرة بيبرس ، وقلاوون ، وشيخون ، وبرقوق ، والمؤيد .

وقد تعاون على التأليف في الأدب هذه المدارس من جهة ، وديوان الإنشاء وإعداد رجاله من جهة أخرى .

ونحن نعرض في إيجاز حركة التأليف في الأدب وما يتصل به

فأول ما يلفت نظرنا في أول هذا العصر ، التأليف في الموسوعات ، أو دوائر المعارف ، وكان القصد منها جمع المعارف التي وصلت إلى زمانهم ، وإمداد رجال الديوان بالمعلومات التي تلامهم ، ولو جاءتهم فكرة ترتيبها على حسب حروف الهجاء ، لسكان لنا من ذلك دوائر معارف قيمة سهلة التناول .

وكان من أسبقهم في ذلك النويري أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (١٢٨٢ — ١٣٣٢) وهو مصري من نوبة ، وقد اشتهر بالفقه والتاريخ ، وألف موسوعته التي اسمها « نهاية الأرب » وهي تطبع في دار الكتب الآن ، وقد انتهى منها طبع ثلاثة عشر جزءاً ، وقد تبلغ الثلاثين . وقسم كتابه إلى أقسام (١) السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية (٢) الإنسان وما يتعلق به (٣) الحيوان الصامت (٤) النبات (٥) التاريخ من بدء الخليقة إلى سنة ١٣٣١ أي قبل وفاته بعام .

وكان النويري من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد استغله كثير من المستشرقين في بحوثهم ، فترجم بعضهم إلى الفرنسية ما كتبه عن صقلية ، وبعضهم ما كتبه عن فتح العرب للمغرب ، واعتمد بعضهم عليه فيما كتبه عن الظاهر بيبرس الخ .

وجا ابن فضل الله العمري (١٣٠١ — ١٣٤٨) ، وقد كان معاصراً للنويري فألف كتابه « مسالك الأبصار » ، وهو من نسل عمر بن الخطاب ، وقد ولد في دمشق ، ورحل إلى بلاد كثيرة ، وانتقل إلى القاهرة ، وتولى بها القضاء ، وعمل أيضاً في ديوان الملك الناصر .

وكتابه مسالك الأبصار في التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة ، إلى أناقة في التعبير وجمال في الأداء يفوق النويري ، وهو يقع في أكثر من عشرين جزءاً طبع منه جزؤه الأول في دار الكتب .



ثم القلقشندي المصري ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أصحاب الموسوعات ، إذ ألف كتابه الضخم ، صبيح الأعشى في صناعة الإنشا .

قدمه بمقدمة في فضل الكتابة ، وصفات الكتاب ، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه .

ثم المقالة الأولى فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية ، والثانية في المسالك والممالك .

والثالثة والرابعة في تاريخ الكتابة وتطوراتها وما التزم في بدئها وختامها ، واختلافها باختلاف المكتوب إليه وموضوع الكتاب . والخامسة في البيعة والعهد وأنواع المناصب من رجال السيف والقلم . ثم ما يحتاج إليه الكاتب من الإقطاعات وما يكتب في شأنها ، وعقد الصلح وفسخه وما يكتب في ذلك ، وتاريخ البريد ، ومراكزه في مصر والشام ، وحمام الرسائل ، ومطاراته وأبراجه الخ . الخ .

وقد أراد به أن يزود الكاتب بكل ما يحتاج إليه من معلومات ، وقد طبع في دار الكتب في أربعة عشر مجلدا ، وقد توفي القلقشندي سنة ١٤١٨ .

فكتاب النویری أوسع موضوعا ، وكتاب العمري أوسع في الجغرافيا والتاريخ ، وكتاب القلقشندي ألصق بالكتابة وأدواتها ولوازمها ، ولكل فضل .

وقد كانت كلها مصدراً للأدباء والعلماء ، كما أنها حفظت لنا ثروة كبيرة من مؤلفات الأقدمين ، ومن معلومات هامة عن الأحداث المعاصرة ، وكما كانت مادة قيمة للباحثين من المستشرقين والشرقيين .

المؤرخون : كثر مؤلفو التاريخ في هذا العصر من تراجم رجال إلى تاريخ مدن إلى تاريخ سياسي لدولة إلى تاريخ عام .

وكان من أوائل المؤلفين في هذه الفترة ابن خلكان فقد ألف كتابه وفيات الأعيان فكان مرجع كل باحث ، ومؤلفه ابن خلكان هذا ينتمي إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وقد ولد في أربل (١٢١١) ودرس في حلب ودمشق والقاهرة ، وكان قاضي القضاة في الشام في عهد الظاهر بيبرس .

وكتابه من أهم الكتب في تراجم المشهورين من رجال العلم والأدب والصناعة والمال غير الصحابة والتابعين والخلفاء ، واجتهد فيه في تحرى الحقائق بعين نافذة ، في لغة سليمة بسيطة ، متوقيا قدر الإمكان ألفاظ الفجور ، وقد احتوى نحو ٨٦٥ ترجمة ، وعنى أشد العناية بتحقيق سنة الوفاة ، ومن ثم سماه « وفيات الأعيان » وربما ترك مشهوراً من العلماء والأدباء لأنه لم يتحقق من تاريخ وفاته ، وربما كان كتابه هذا أول كتاب من نوعه لشموله وعدم اقتصره على نوع معين من المشهورين ولا على بلد معين .  
وقد مات سنة ١٢٨٢ .

وقد ذيل هذا الكتاب ابن شاكر الكتبي المتوفى نحو سنة ١٣٠٣ مترجماً لبعض من تركه ابن خلكان وابن خلكان نفسه ول بعض من جاءوا بعده وسمى ذيله « فوات الوفيات » . وهو دون الوفيات في استيفاء الترجمة وتحري سنة الوفاة .

\*\*\*

وَألف محمد بن علي بن طباطبا نزيل الموصل في عهد نحر الدين عيسى بن ابراهيم كتابه الذى نسبه إليه وسماه الفخرى . وعرض فيه لتاريخ الدولة الإسلامية من أول عهدا إلى آخر الدولة العباسية ، وقد عنى فيه بالأسلوب ودقة التعبير وحسن السبك ، كما أن له نظرات دقيقة فى شؤون السياسة العامة وقواعد كلية يستشهد عليها بالأحداث الإسلامية الجزئية ، وقد ولد ابن طباطبا سنة ١٢٦٢ .

كما ألف أبو الفداء أمير حماة ، من قبل الملك الناصر ومن نسل الأيوبيين ، والذى عاش من سنة ١٢٧٣ — ١٣٣١ كتابه فى التاريخ العام ، وقد اعتمد فيه على الطبرى وابن الأثير ، وهما أكثر فائدة فى تاريخه للفترة الأخيرة التى كانت بعد ابن الأثير ، وانتهت سنة ١٣٢٩ .

واشتهر بالتاريخ شمس الدين الذهبى ( ١٢٧٤ — ١٣٤٨ ) وهو من أصل تركمانى ، ولد فى دمشق ورحل إلى بلاد كثيرة يلقى علماءها ، وقد اشتهر فى التاريخ بكتابه « طبقات الحفاظ » فى تراجم المحدثين ونقدم والحكم لهم أو عليهم ، وكتاب « تاريخ الإسلام » وكان عمدة كثير من المؤرخين بعده ، وهو لم يطبع إلى الآن .



وخليل بن أيديك الصفدي المتوفى سنة ١٣٦٣ الفلستيني ، وقد اشتهر بكتابه الواسع في التراجم المسمى « الوافي بالوفيات » في ستة وعشرين جزءاً ، وقد طبع منه بعض أجزاءه .  
ثم ابن كثير ( ١٣٠٢ — ١٣٧٢ ) وقد خلف الذهبي في التدريس بدمشق وألف في التاريخ كتابه « البداية والنهاية » بدأه ببدء الخليقة وانتهى إلى سنة ١٣٣٧ ، وقد طبع في مصر في أربعة عشر مجلداً .

وألف لسان الدين بن الخطيب الذي تقدم ذكره « الإحاطة في أخبار غرناطة » ترجم فيه لرجالها كما ألف في تاريخ الأندلس والمغرب .

وكان من المؤرخين في هذا العصر ابن الفرات المصري المولود سنة ١٣٣٤ ، وله كتاب كبير في جملة أجزاء طبع بعضها ، وأهميته في أنه يعد مرجعاً عظيم القيمة في الحروب الصليبية وقد تفوق في التاريخ — وكان نسيج وحده — « ابن خلدون » ( سنة ١٣٣٢ — ١٤٠٦ ) منحه الله عقلاً نفاذاً ، وذكاء لامعاً ، وملاحظة دقيقة ؛ ثم انغمس في الحياة السياسية المضطربة في الأندلس والمغرب ومصر فأفاد منها ، اتصل بالملوك والأمراء والخاصة والعامة ، فدرس أحوالهم عن قرب ، وتولى المناصب الكبيرة ، وسفر بين الملوك فاطلع على بواطن الأمور ، وربط الأحداث بعضها ببعض ؛ وعرف أسبابها ونتائجها ، واستخرج من ذلك علماً هو علم التاريخ . لقد كان المؤرخون قبله يسردون الحوادث ، ويسمون ذلك تاريخاً ، فجاء هو يستخرج من الجزئيات كليات ونظريات ، ويطبقتها على الأحداث وأمثالها .

أصله عربي من كنفذة من حضرموت . رحل بعض أجداده « خالد » إلى الأندلس وسميت الأسرة ببني خلدون ، وسكنت أولاً بالقرب من إشبيلية ، ثم في إشبيلية ، ثم في تونس . وبعد أن أتم دروسه التحق بخدمة السلطان أبي إسحاق إبراهيم من بني حفص ، وتوالت عليه أيام البؤس والرخاء ، وتدخل في نزاع السلاطين ، ونصر بعضاً على بعض ، فإذا جاءت دولته كرم ، وإذا زالت عذب وسجن ، إلى أن أتى مصر ، وتولى التدريس فيها ، ثم على كره منه ولاه السلطان برقوق القضاء فعرف بشدته ، ورفضه الرجاء ، فكان له من ذلك أعداء ، فعزل ، ثم ولي ثم عزل ثم ولي — وصحب الملك الناصر « فرجاً » الذي خلف برقوق إلى الشام في حروبه مع تيمورلنك ، ولقي ابن خلدون تيمورلنك فأكرمه وأعجب به ، وعاد إلى مصر حيث مات بها سنة ١٤٠٦ .

ألف ابن خلدون تاريخه الضخم « العبر » ، وأعظم جزء فيه مقدمته ، فهى الموضوع المبتكر ، وضع فيها أسس التاريخ من حيث هو علم ، فنقد المؤرخين السابقين فى طريقهم من عدم الدقة ، والتحرى ، وإعمال العقل فيما يروون ، ورأى أن العالم ينتقل فى أدوار طبيعية ، من بدو إلى حضارة ، وشرح هذا الترقى فى الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والفن والعلم ، فمزج بين ما سعى بعد بعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الحضارة مزجاً تاماً .

بين لنا كيف تتكون الدول ، وكيف تنمو وكيف تنهار ، وما لذلك من أعمار ، ووسائل الرقى والانحطاط ، وطبائع البدو وطبائع الحضرة ، الخ . وأسلوبه فيها أسلوب رياضى أشبه ما يكون بشرح نظرية هندسية — الفرض ثم الدعوى أو المطلوب ثم البرهان — فى تعبير لا يزيد عن المعنى ولا ينقص ، ليس فيه من المحسنات اللفظية ما يصرف النظر عن الجوهر ، قد تحرر ألفظه من قيود السجع ، كما تحرر فكره من قيود السياسة والتعصب لمذهب دينى معين أو جنس من الناس معين حتى ولا جنسه العربى . فإذا نحن علمنا أنه لم يحد فى ذلك حذو أحد قبله أدر كنا سر عظمته ؛ وقد أخذ عليه بعض المستشرقين أن كل أمثله وتطبيقاته إنما هى على الدول الإسلامية . ولو كان قد توسع فى التاريخ السياسى اليونانى والرومانى لكان له أفق أوسع ، ونظر أشمل . ولكن أى إنسان خلا من « لو » .

وبقية الأجزاء كسائر كتب التاريخ ولكن تمتاز بمقدمة صغيرة بين يذى الموضوع وبذكر حوادث مما حدثت بعد الطبرى وابن الأثير ، وبمعلومات وافية عن تاريخ المغرب . وقد كتب هذا التاريخ — أولاً — سنة ١٣٣٧ ثم أعاد تنقيحه مراراً .

وعلى الجملة فإن كان غيره من المؤرخين شريطاً مسجلاً فإنه ترفع عن ذلك وأبى إلا أن يبحث فى الآلة كيف تسجل وكيف تصنع ومتى تجود ، وكيف يكون فى الإمكان أن تكون خيراً مما كان .

ومن الأسف أن لم يكن بين المسلمين من نهج نهجه ، ورقى نظرياته ، وإنما كان ذلك فى الغرب أخيراً إذ أسس علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ . ومن أمثلة أسلوبه وتفكيره قوله فى التربية وطرق التعليم



« اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرّج شيئاً فشيئاً ، وقليلًا قليلًا ، يُلقَى عليه أوّلاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ، ويُقَرَّبُ له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى يفتى إلى آخر الفن . وعند ذلك تحوّل له مأسكة في ذلك العلم ، إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيئته لفهم الفن ، وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف وجهه ، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن ، فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا ، فلا يترك عويصاً ولا مُبْهِمًا ولا مُغْلَقًا إلا وضحّه ، وفتح له مُغْلَقه ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد ، وهو — كما رأيت — إنما يحصل في ثلاث تكرارات ، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يُخْلَقُ له ويتيسر عليه . وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدرَكنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويخضرون المتعلم في أوّل تعليمه المسائل المقلّة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها ، ويحسبون ذلك مرّاة على التعليم وصواباً فيه ، ويكافونه وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يُلقون له من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل أن يستعدّ لفهمها ؛ فإنّ قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدرّجاً ؛ ويكون للمتعلم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل ، وعلى سبيل التقريب والإجمال ، وبالأمثال الحسيّة . ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرورها عليه . والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه ، حتى تتمّ المأسكة في الاستعداد ، ثم في التحصيل ؛ ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا أقيمت عليه الغايات في البدايات — وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعى ، وبعيد عن الاستعداد له — كلّ ذهنه ، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه ، فتكاسل عنه ، وأنحرف عن قبوله ، وتماذى في هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم . »

ثم المقرّيزى أبو العباس تقي الدين ، أصله من بعلبك وتحول والده إلى القاهرة فولد تقي الدين (١٣٦٥ — ١٤٤٢) ونسبته إلى حارة بعلبك تسمى المقارزة ، وقد أكثر من التأليف في التاريخ ، وخاصة في تاريخ مصر في عصورها المختلفة ، من الخلفاء الفاطميين ،

« اتعاض الخنفا » إلى المالك « السلوك » وفي تخطيطها « المواعظ والاعتبار » وهو واسع الاطلاع ، كثير النقل من غير عزو ، قليل النقد ، ومع هذا ترك لنا ثروة من المعلومات قيمة ما كان يمكننا الوصول إليها لولاه . وجاء في أول خططه قوله :

« وبعد ، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأثرها عند العقلاء مكانة وخطارا ، لما يحويه من المواعظ والانذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ؛ والأطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها ، واستعلام مذام الفعال ليترغّب عنها أو لو النهي . لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وإمقة ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة . وقد صنف الأئمة كثيرا ، وضمن الأجلة كتبهم منه شيئا كبيرا .

وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ومجمع ناسي ، ومعنى عشيرتي وحماتي ، وموطن خصتي وعامتي ، وجوئى الذى ربّى جناحيّ فى وكره ، وعشّ مآربى فلا تهوى الأنفس غير ذكّره . لا زلتُ منذ شذت العلم ، وآتاني ربى الفطنة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها وأحبّ الإشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدتُ بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قلما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبّة على منوال ، ولا منهذبة بطريقة واحدة ومثال . فأردتُ أن أخلص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيّرها — أو كاد — البلى والقدم ، ولم يبقَ إلا أن يحوّر رسمها الفناء والقدم ؛ وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار العصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المباني البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأمثال ، والتنويه بذكرى الذى شاهدها من سرة الأعظم الأفاضل ، وأثر خلال ذلك نكمتا لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف يُخلّ بالعرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين . . . الخ .

وجاء ابن عربشاه (١٣٨٩ — ١٤٥٠) وهو دمشقى الأصل أخذ أسيرا فى غزوة تيمورلنك للشام وأرسل إلى سمرقند ، وقد استفاد من إقامته فى هذه البلاد ومن رحلته



إلى خوارزم وطراخان وغيرها معلومات قيمة عن الفرس والترك ومعرفة بلغتهما ، وقد اتصل بالسلطان محمد الأول بن بايزيد وقربه إليه ثم حج وأتى مصر .

وقد ألف كتابه « عجائب المقدور في أخبار تيمور » وهو مسجوع مملوء بالحسنات البديعية ، وفيه معلومات طريفة عن تيمورلنك ودولته ، كما ألف « فاكهة الخلفاء » وهو كتاب في السياسة الرمزية كـكليلة ودمنة وقلد فيه كتابا فارسيا اسمه مرزبان نامه .

وألف أبو المحاسن بن تغرى بردى ( المتوفى سنة ١٤٥٩ ) كتابه النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة مرتبا حسب السنين من فتح العرب لمصر إلى سنة ١٤٥٣ ، مع ذكره في كل سنة من توفى فيها من المشهورين .

ثم شهاب الدين أبو العباس المقرئ سنة ١٥٩١ سنة ١٦٣٢ ولد في تلسان ، ورحل إلى فاس ومراكش ثم حج وجاء إلى مصر ورحل إلى بيت المقدس ودمشق .

وقد ألف كتابه « نفع الطيب » أثناء إقامته في القاهرة وهو قسيمان قسمه الأول في تاريخ الأندلس ورجالها ، والثاني في ترجمة لسان الدين بن الخطيب ومشايخه ومن يتصل به وفي الكتاب معلومات قيمة عن الأندلس لا نظير لها في غيره .

وكتب طاشكبرى زاده التركي الأصل ( ١٤٩٥ — ١٥٦٠ ) كتابه شقائق النعمان ترجم فيه لنحو ٥٢٢ رجلا من علماء الترك ومتصوفتهم ، كما ألف « نوادر الأخبار » ترجم فيه لأعلام الإسلام . الخ الخ .

\*\*\*

وإذا انحرفنا قليلا عن خط التاريخ وجدنا شيئا كبيرا القيمة قريبا منه وهو الرحلات ، وعلى رأسها رحلة ابن بطوطة ( ١٣٠٤ — ١٣٧٧ ) . ولد مؤلفها في طنجة ، ونشأ طلمة . وبعد أن تثقف نوى أن يزور العالم الإسلامي ويتعرف أحواله ، ويقيد ما يرى في البلاد وأحوال سكانها وعاداتهم ونحو ذلك — وقد رحل إلى شرق أفريقيا والقسطنطينية والهند وسيلان والصين . وعاد إلى بلده طنجة سنة ١٣٤٩ واستقر بها أشهراً ، ثم زار غرناطة ثم بلاد السودان .

وقد فاق في وصفه الرحالين في العصور القديمة والوسطى في دقة تصويره رغم ما وقع

فيه من أخطاء ومبالغات وأوهام ، ولا يزال مصدراً معولاً عليه في وصف الحياة الاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامي في عصره .

وأنف في هذا العصر من معاجم اللغة كتاب لسان العرب لأبي الفضل محمد بن مكرم المتوفى في القاهرة سنة ١٣١١ في عشرين مجلداً جمع فيه كتاب التهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهري ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير . وهو يجمع مادة ضخمة في اللغة والأدب ، إذا استشهد بيت أو حديث أو آية فسرهُ وأتى في ذلك بفوائد قيمة ، وقد قال في مقدمته : « وإني لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية ... وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايير معدوداً ؛ وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية ، وتفاحوا في غير العربية ، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعتة كما صنع نوح الفلك وقومه منه يستخرون » .

ثم « القاموس المحيط » لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (١٣٢٩ — ١٤١٤) ولد بكازرين إحدى بلاد فارس ، وتعلم في واسط و بغداد ودمشق ، ورحل إلى مصر ثم إلى آسيا الصغرى ولقي تيمورلنك في شيراز ، فقابلته بمقابلة حسنة ، ثم دخل زبيد فلتقاه الأشرف إسماعيل سلطان اليمن بالقبول وعينه قاضي القضاة باليمن حتى مات .

ولقى كتابه القاموس شهرة كبيرة حتى سمي كل معجم قاموساً ، وهو شديد الاختصار وأقل قيمة من لسان العرب ؛ وإن كان يمتاز ببعض مزايا كتمييزه بين الواو والياء ؛ وضبطه البلدان والأعلام ، ونصه على صيغة المؤنث الخ .

وقد جاء في العصر العثماني السيد المرتضى الزبيدي ، ولد في اليمن ونشأ بها ، ثم جاء إلى مصر ، وكان يعرف العربية والفارسية والتركية ، فشرح قاموس الفيروزابادي في عشرة مجلدات ضخمة وسماه تاج العروس .

وكما كان هناك موسوعات في الكتب كان هناك رجال موسوعيون يؤلفون المؤلفات المختلفة الكثيرة في الموضوعات المختلفة ، ولعل من يمثل هذا خير تمثيل جلال الدين



السيوطي ، ( ١٤٤٥ — ١٥٠٥ ) وقد سكنت أسرته أسيوط فنسب إليها ، ولكنه ولد في القاهرة من أب كان قاضياً ، وقد درس العلوم المختلفة في عصره ، وحديث عن نفسه فقال : رزقت التبخر في سبعة علوم — التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة — والذي أعتقد أنه الذي وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنقول التي اطلمت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أسيادنا فضلاً عن دونهم .

وأما الفقه فلا ادعى ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ( يريد شيخه علم الدين البلقيني ) ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ودونها القراءات ، ولم أخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على وأبعده من ذهني ، إذا نظرت فيه مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله .

وقد عدّ هو من تآليفه ثلثمائة كتاب في فروع مختلفة ، في اللغة « المزهر » — مثلاً — وهو من خير كتبه ، وفي النحو كالأشباه والنظائر ، وطبقات النحويين واللغويين ، وفي التاريخ لحسن المحاضرة ، وفي علوم القرآن كالاتقان الخ .

ويظهر أن إعجابه بنفسه — كما تدل عليه كلمته السابقة — وإغارته على بعض تأليف غيره جعلت له أعداء كثيرين من علماء عصره مما دعا السلطان طومان باي أن ينحيه من مناصبه ، وقد اتهم كثيراً بأنه يأخذ من تأليف غيره ويحورها وينسبها إلى نفسه ، حتى تنازع هو والقسطلاني في كتاب « المواهب اللدنية » أيهما ألفه ، والقسطلاني يدعى أن السيوطي أغار عليه حتى تماحى إلى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري فحكم به للقسطلاني . وأياما كان ، فقد كان جماعاً أكثر منه مبتكراً أو ناقداً .

\*\*\*

وجاء حاجي خليفة المعروف بكتّاب جلبي ، وهو تركي من الأستانة تعلم والتحق بالجيش واشترك في حملة وجهت إلى بغداد وإلى همدان وإلى حلب ، وانتدبه السلطان محمود الثاني في لجنة لإصلاح مالية الدولة ومات سنة ١٦٥٨ .

تألف موسوعة يذكر فيها كل ما اطلع عليه ووصل إلى علمه من الكتب وسماه

« كشف الظنون ، في أسامي الكتب والفنون » يشتمل على نحو خمسة عشر ألف اسم لكتاب مع ذكر مؤلفيها وتاريخ وفاتهم ما أمكن .  
ويذكر فذلك عن كل علم عند ذكر حرفه حسب حروف الهجاء فتاريخ علم الأدب في همزة والفتحة في الفاء والحساب في الحاء وهكذا .  
وقد حظي هذا الكتاب حاجة الباحثين إليه ، وهو مرجع للباحث العربي والفارسي والتركي .

من هذا كله يتجلى أن حركة التأليف هذه كانت حركة قوية ، ورجالها مخلصون في بذل الجهد والرغبة في التحصيل والمسابقة في التأليف ، ولسكنها حركة معادة لحرارة الماء على سطح البحيرة الرائدة ، فأكثر هذا التأليف جمع لأقوال من سبق أو تجميع لمفروق ، أو تفریق لمجتمع ، أو تسجيل لما حدث ، وإذا استثنينا ابن خلدون وقليلاً من المؤلفين لم نجد جديداً .  
والأدب ليس إلا صورة ممسوخة لأدب ابن العميد ، وابن عباد ، والقاضي الفاضل ، ومقامات الحريري ، وشعر أبي تمام والبحتري وأمثالهما . وكان الأمر في العصر العثماني أسوأ منه في عهد المماليك ، فقد أصبح الأدب والعلم تقليداً للتقليد ، وأصاب البلاد ركود في الحركة العلمية والأدبية ، وصار نفساً ينبعث من صدر شيخ فان ، واستمر الحال على هذا المقوال إلى الحملة الفرنسية ثم محمد علي .

هذه لمحة خاطفة في قصة الأدب العربي في ذلك العصر لم نطل فيها كما أطلنا في الآداب الأخرى لأن كتبها المطولة في متناول القارئ العربي .

فإذا نحن نظرنا إلى الأدب العربي في هذه الفترة في ضوء ما حكيناه عن الأدب الغربي رأينا البون شاسعاً ، في هذه الفترة في أوروبا كانت النهضة ، والثورة على القديم ، ووضع أسس جديدة لحياة جديدة ، وتحكيم العقل في المسائل العلمية ؛ وتحريم العواطف من قيود التقاليد ، واستمرت العواطف والعقل ترقى طوال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . وشهدت هذه النهضة قصص شكسبير ، وماسي راسين ، وملاهي مولير ، وأساطير لافونتين ، وروائع جوته إلى كثير من أمثال ذلك ، كما شهدت فلسفة



يكون وديكارت وهيجل ، ووضع كل قضية موضع البحث والتجربة ، وكما شهدت الرقي الصناعي واكتشاف البلدان والتقدم في كشف المخترعات .

لقد كان الشرق والغرب يسيران متحاذيين تقريباً قبل النهضة الأوروبية إن لم يفق الشرق ، فلما جاء عصر النهضة كان الغرب يسير إلى الأمام والشرق يسير إلى الخلف في العلم والأدب والفن والصناعة وسائر ضروب الحضارة ، وكما مضى الزمن كبر الفرق .

ويرجع ذلك إلى سوء الحالة الاجتماعية والسياسية في الشرق ؛ فظلم الحُكام من المماليك والعثمانيين خنق الشعب ، وإسرافهم في ترفهم أفقر الشعب ، ولكن كان الحال كذلك في الغرب ، فثار الشعب ، فلم لم يثر الشرق على حكامه وينزع حقوقه من أيديهم ؟ لقد أصيب الشرق بكوارث خطيرة من غزوات التتار وتيمورلنك والصليبيين ، وكان الخراب والتدمير والفقر وتوالى النكبات ، فضعفت من ذلك نفوس الشعوب .

وكان رجال الدين في يد الحُكام يستخرونهم كما يشاءون إلا في القليل النادر ، والشعوب تحترم رجال الدين وتصغي إليهم وتسمع لأوامرهم ونواهيهم ، فكان الصمت وكان الاستسلام ، وكان الاعتقاد بأن الظلم من غضب الله ، والفقر من قدر الله .

لقد كان من أهم ما اتجه إليه الأدب والعلم في النهضة الأوروبية الدنيا وشؤونها ، فلا خرج على الإنسان أن يستمتع بملذات الحياة ، وأن يهتم بالدنيا وما فيها ، بل أفرطوا في ذلك ، وعلى أثر ذلك قوى العلم وقويت العواطف فقوى الأدب . أما في الشرق فلم يضموا الدنيا إلى الآخرة في الحساب ، ونسوا قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » ؛ وكان نظرهم إلى الآخرة يصبرهم على بؤسهم في الدنيا ، فنظروا إلى الآخرة وحدها ، ولذلك كانت الحركة العلمية حركة دينية بحثة من تفسير وحديث وفقه ، واللغة لخدمة الدين ، والنحو والصرف لخدمة الدين ، أما النظر إلى الطبيعة والصناعة والمادة والعمل على ترقيتها واستخدامها فليس في الحساب ؛ ولذلك غلبهم الأوربيون — في أول احتكاك — بمهارتهم في شؤون الدنيا ، ودهش الجبرتي وأمثاله مآراً من عمل الفرنسيين في الطبيعة والكيمياء — ولم يرزق الله الشرق بعظماء يغيرون هذا الاتجاه

ويدعون إلى النظر في الدنيا كما ينظرون إلى الآخرة ؛ ومن بدأ في ذلك كابد خلدون لم يستطع أن يكون مدرسة — في الغرب كان من دعا مثل هذه الدعوة ، ثم سجن أو عذب لتعاليمه الجديدة الجريئة ؛ كان يجد من يحمل اللواء عنه حتى تستقر الدعوة ، ولكنه في الشرق كان يسجن أو يعذب ، فتفكش النفوس ، ولا يجروا أحدا على نصرته فتموت الفسكرة ، وذلك لما ذكرنا مما أصاب نفسية الشعب .

ماتت الفلسفة التي تحيي الفكر ومات الاعتزال الحر ، وبقي الأمر في يد الفقهاء والصوفية ، والفقه تحول إلى شكل ، والتصوف تحول إلى شعوذة إلا في القليل النادر ، وكان هؤلاء جميعاً قادة الشعوب روحياً ، والملوك الظلمة والأمراء الطغاة قادتهم إدارياً ، وتصلح هؤلاء وهؤلاء على إماتة الشعوب ، فمن فاه بكلمة تخالف المألوف فويل له ، فوقفت حرية الفكر ، وليس ينهض الأدب إلا في جو الحرية .

ثم إن الأدب لا ينهض إلا بالتطعيم ، لقد نهض الأدب العربي في آخر العصر الأموي وفي العصر العباسي بتطعيمه بالأدب الفارسي والهندي والعلم اليوناني ، ونهض الأدب الأوربي في عصر النهضة بتطعيمه بالأدب اليوناني والروماني ، ونهض أدب كل أمة أوروبية من انجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية باقتباسها من غيرها وترجمة خير ما تخرجه الأمم الأخرى إلى لغتها ، فبذلك كان الأدب في حركة مستمرة وحياة متدفقة غير راكدة .

والأدب العربي في هذه الفترة أغلق على نفسه ، لم يطعم أي تطعيم ولم يتفتح أمامه أي أفق جديد ، ولم يتأثر أي تأثر بما كان يجري في أوروبا من نهضة ، فلما لم تهب عليه ريح جديدة ولا جرى إليه جدول جديد أصيب بالركود .

\*\*\*

لقد كان ذلك إلى حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ حيث اتصل الشرق بالغرب وأخذ يطلع على علومه وآدابه ، ويدخلها مع الأدب العربي القديم في منهاجه ، ولكن مع الأسف شعر الشرق حين اطلاعه على علم الغرب وأدبه بشيء من « مركب النقص » كما امتزج إعجابه بتقدم العلم والأدب في أوروبا بشعوره بكرهية الاستعمار الذي جرت معه المدنية الغربية ، فكان من ذلك كله نتائج هي موضوع بحثنا في الجزء الثالث إن شاء الله .



## الفصل الخامس عشر

### الأدب الفارسي

من غارات التتار إلى انقضاء الدولة الصفوية

من منتصف القرن السابع الهجري إلى منتصف القرن الثاني عشر

أجملنا في الجزء الأول من قصة الأدب أحوال الأدب الفارسي الإسلامي منذ نشأته إلى غارات التتار؛ أي من أواخر القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن السابع. فنصّورنا بعض مظاهر هذا الأدب القيمّ الواسع على قدر ما يحتاج قراء العربية الذين يرغبون أن يعرفوا من هذا الأدب ما لا يسع المتأدب جهله.

وفي هذا الفصل نسوق الكلام في تاريخ هذا الأدب أو التعريف ببعض أحواله بعد غارات التتار إلى انقضاء دولة الصفويين. وذلكم زهاء خمسة قرون، سيطر فيها على إيران كلها أو أكثرها التتار الإيلخانيون ثم تيمورلنك وخلفاؤه ثم الصفوية. وبين هذه الدول دول صغيرة نشأت في الاضطراب الذي يقارن سقوط دولة كبيرة وقيام أخرى، كما عاصرت الإيلخانيين والتيموريين دول أخرى في أرجاء إيران، ولكن تاريخ هذه الدول الثلاث الكبيرة يوضح عصور التاريخ الإيراني في هذه القرون الخمسة.

مقدمة:

فجئ التتار الأقطار الإسلامية بغاراتهم المدمرة في العقد الثاني من القرن السابع الهجري. وسرعان ما اجتاحت بلاد ما وراء النهر، لم يثبت أمامهم جيش، ولا ردت بأسهم مدينة. ولم يستطع ملوك خوارزم أن يصدّوا هذا السيل الجارف بالبأس ولا بالحيلة. وعبرت الجيوش التتارية نهر جيحون إلى بلاد الفرس. ويمتد فرق منهم الغرب فانساحت في أوربة الشرقية.

وكان التتار حينما ساروا ينشرون الخراب والدمار، ويشيعون الفرع والهلع كالنيران

المضطربة ، والرياح العاصفة . وقد صدقت فيهم مقالة الفرس : جاءوا وقتلوا وأخربوا ، وأحرقوا وحملوا وذهبوا .

ولا يسعنى — كلما كتبت عن غارات التتار — أن أنسى الكلمات المبكيات التي خطها مؤرخ معاصر : ابن الأثير صاحب التاريخ الكامل فليقرأها من شاء .

ظلت حوادث التتار تضطرب فيما وراء النهر وشمال إيران حقبة . فلما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة وجه منكوفا آن ملك التتار — حفيد جنكيزخان — أخاه هولوكو للقضاء على حصون الاسماعيليه وعلى الخلافة العباسية في بغداد ؛ فأخضع أمراء إيران والقوقاز إلى آخر سنة ثلاث وخمسين . ثم فتح قلاع الاسماعيليه سنة أربع وخمسين . ثم عهد إلى بغداد ففتحها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في الحرم سنة ست وخمسين . ثم توجه صوب الغرب يبغي الشام ومصر واستولى على البلاد . حتى كانت موقعة عين جالوت في فلسطين سنة ثمان وخمسين ، فردت الجيوش المصرية والشامية التتار ، وعلمت المسلمين أن هذا العدو الهائل لا يستعصى على الشجاعة والصبر . فارتد خطر التتار عن مصر ، ثم انحسر شرهم عن الشام سريعاً ؛ ولكن بقي سلطانهم في العراق . واتصل ملكهم من بادية الشام إلى التركستان الشرقية .

وكان لهولوكو من هذه الأقطار ما فتحه منذ وجهه أخوه للفتح . وهو ما بين جيحون إلى البحر الأبيض ، وما بين جبال القوقاز إلى المحيط الهندي . وقامت له ولذريته من بعده دولة واسعة استمرت إلى سنة ٧٤٤ هـ وعرفت باسم الدولة الإيلخانية ، أى دولة ملوك الأقاليم ، تميزوا لهم عن دولة الخاقان الأعظم ، وكانوا يعترفون بسلطان الملك الأعظم الخاقان وارث عرش جنكيزخان .

فصل قيام الدولة الإيلخانية — في العالم الإسلامى الشرقى عامة وفي إيران خاصة — بين عهدين من التاريخ مختلفين في السياسة وفي الآداب والعلوم والفنون . وفيما يلى إجمال الكلام في الدول التي سيطرت على إيران منذ زالت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ إلى أن زالت الدولة الصفوية سنة ١١٤٨ ، وذلك خمسة قرون ، وإجمال الكلام في الأدب في تلك العصور .

ويمكن أن نقسم هذه الحقبة قسمين : الأول عصر التتار والتمويزيين ، والثانى عصر الصفويين ، الأول من سقوط بغداد إلى سنة ٩٠٧ والثانى من هذه السنة إلى سنة ١١٤٨ .



## القسم الأول

### التتار والتموريون

#### الفصل الأول — التتار :

توفي هولاكو بعد ثمان سنين من فتح بغداد ، خلفه ابنه أباقا سنة ٦٦٣ ثم توالى على الملك تسعة بعد أباقا ، لا ينفصح الجبال لتعدادهم بله وصف أحوالهم وسيرهم ؛ ولكن الذى يعنينا أن نبين كيف استجاب التتار سريراً للحضارة المحيطة بهم ، ودخلوا فى الجماعة الإسلامية . بعد أن تنازعتهم الأديان حيناً ، وطمع الصليبيون ودول أوربا فى مخالفتهم ومخالفة الخاقان الأعظم على قتال المسلمين . أسلم تكودار بن هولاكو وتسمى أحمد . فلما مات أباقا تنازع الملك هو وأرغون بن أباقا فانتصر أكثر المغول للأول فلك متسميا السلطان أحمد ، وسارع إلى إعلام علماء بغداد وسلطان مصر برغبته فى نصرة الإسلام وموادة المسلمين ، ولكن أرغون ائتمر مع بعض كبراء المغول حتى خلع السلطان أحمد وقتله .

ولم يمض أكثر من أحد عشر عاماً بعد قتل السلطان أحمد حتى تولى الملك غازان حفيد أباقا وكان توليه إيذاناً بظفر الإسلام بالمغول كلهم فى الدولة الإيلخانية .

وكان غازان قد وعد مربيه الأمير نوروز أن يسلم إذا أظفره الله بالملك على عمه بايدو ، فلما ملك أنجز وعده . فى الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ أسلم هو وعشرة آلاف من المغول فى حضرة الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن الشيخ سعد الدين الحموى . واستمر الإسلام منذ ذلك اليوم ديناً لملوك المغول فى إيران حتى انتهت دولتهم سنة ٧٤٤ هـ

كان سيل التتار طامياً جارفاً مدّماً ؛ ولكن لم يحرف كل الزروع والأشجار فى إيران ، ولم يذهب بالبذور كلها من هذه الأرض الخصبة ، فنمت على الزمان جذور ، ونبتت بذور ، فلم تعدم إيران فى عصر التتار أدباً . ثم كان إقليم من إيران بنجوة من هذا السيل — إقليم فارس ، الإقليم الجنوبي الغربى من إيران ، الذى نشأت فيه الدولة الفارسية الأولى ، والذى حفظ تراث إيران بعد غارات الإسكندر المقدونى حقبة طويلاً .

كان فى هذا الإقليم إمارة أنشأها أحد أتابكة السلاجقة سنقر بن مودود ، ودامت

زهراء قرن ونصف (٥٤٢ — ٦٨٥ هـ) وحفظت نفسها في هذه العصور المضطربة بمسألة الفاتحين ، والتودد إليهم . أدى أمرؤها الجزية للسلاجقة ولملوك خوارزم ثم صانعوا ملوك التتار وأدوا إليهم الجزية كذلك فجنّبوا بلادهم السكوارث التي حلت بغيرها . وانتهت دولتهم بتزوج الأميرة أبش خاتون — آخر من ملك من هذه الأسرة — بالأمير منكو أحد أبناء هولاكو فدخل الإقليم في سلطان التتار حتى توفيت الأميرة في ١١ ذى القعدة سنة ٨٦٥ . كانت هذه الإمارة إبان غارات التتار مثابة للناس وأمناء ؛ فاجأ إليها كثير من العلماء والأدباء . وقد أشاد الشيخ سعدى الشيرازي — وهو ينسب إلى الأمير سعد بن أبي بكر من أمراء هذه الدولة — بما فعل هؤلاء الأتابك لحماية البلاد ، قال في مقدمة كتابه « البستان » أبياتاً ترجمتها بالعربية :

فمن يبع أمناءً بهذى الفتن      فليس له غير هذا الوطن  
فطوبى لبيت كبيت العميق      حواليه من كل فج عميق  
لقد صد اسكندر بالحديد      وبالقطر يأجوج يبني السدود  
وقد فقت اسكندراً في النوب      أقمت ليأجوج سدّ الذهب<sup>(١)</sup>

وفي شيراز من هذا الإقليم نشأ اثنان من أعظم شعراء إيران : الشيخ سعدى الشيرازي وقد تقدم ذكره في الجزء الأول من قصة الأدب ، وحافظ الشيرازي . وحسبنا أن نذكره من بين شعراء هذا العصر عصر التتار :

### حافظ الشيرازي

شمس الدين محمد الحافظ الشيرازي ، ولد في شيراز في أسرة فقيرة ، وتوفي أبوه وهو صبي فاضطرته الفاقة إلى أن يكسب قوته بالعمل في مخبز ؛ ولكن طموحه إلى المعرفة وميله إلى التعلم نزعا به إلى مناهل العلم في شيراز . فكان يغشاها كلما أمكنته الفرصة . ولما ندرى كيف طلب الحافظ العلم ؛ ولما نظن أنه سار في طلبه على نهج معاصريه . وقد حفظ القرآن وبهذا لقب « الحافظ » وأخذ عن علماء شيراز في الدور والمساجد والمدارس . وقد تولى التدريس من بعد في بعض مدارس شيراز ، درّس التفسير والكلام والنحو والأدب .

(١) البيت الثاني نظمته الشيخ سعدى بالعربية .





حافظ الشيرازي ( بجانب الشجرة ) وصديقه الشيخ أبو إسحاق





وعرف حافظ في بلاده عالماً ، ثم ذاع صيته عارفاً ، وانتشر كلامه في الآفاق شاعراً . وعظمه العامة والخاصة ، والملوك والرعية وحسن اعتقادهم فيه ، فكانوا يتلقون أشعاره على أنها رموز للأسرار الإلهية ، وإشارات المعارف القدسية ، وأبيات تشبه في ظاهرها كلام الشعراء ، وفي باطنها كلام العارفين والأولياء . ومن أجل هذا سموه « لسان الغيب » ودعوه « ترجمان الأسرار » .

واتصل ببعض أمراء زمانه وكبرائه ، وذكرهم في شعره وسجل بعض الخطوب في منظوماته ؛ ولكن ذكر هؤلاء الأمراء والكبراء وتسجيل هذه الخطوب كان يأتي جملاً موجزة ، أو إشارات خفية في أثناء شعره . لم يصريح بالمدح إلا قليلاً ، ولم يذهب فيه مذاهب المذاهبين ؛ بل كان البيت أو الأبيات القليلة تأتي في ثنايا غزل من غزلياته لا يكاد القارئ يدرك أن الشاعر قطع سياقه لمدح .

ولحافظ في الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغم الموسيقي المحكم ، جانست كل لفظة صاحبها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخفاء ، تستغرق عناية القارئ ، وتستولى عليه ، فيتململها حريصاً عليها معجباً بها . وقل من يسائر حافظاً في إحكام السبك ، ودقة النسيج ، وإجادة النظم . فلا تجد في أوزانه وقوافيه — على كثرة ما كنى وورى وجانس — تسكفاً أو اضطراباً أو فضولاً . وكثيراً ما أتى بالرديف في شعره فلم يهن ولم يتكلف<sup>(١)</sup> .

وتبدو مهارته في أكل وجوها حين يضمن المعاني الصوفية المعاني الظاهرية المألوفة ، فيقسم كلامه بين أهل الظاهر وأهل الباطن ؛ فمن شاء تغنى به في مجالس شراب بين القدماء والأحباب ، ومن شاء تواجد به بين الصوفية ، وتجاوز ظاهره إلى معانيه الخفية .

هو كذلك في معظم ديوانه المسمى الغزليات<sup>(٢)</sup> ؛ ولكنه بين الحين والحين يبدو صوفياً صريحاً ، أو يعرض معانيه في صور شعرية غير محتملة إلا التفسير الصوفي ، ثم يسارع إلى التحجب بين أزهار الرياض ، ومجالس الشراب ، ويسمك رنين الكؤوس وأحاديث

(١) الرديف كلمة تكرر في آخر الأبيات ، ويلتزم روى قبلها . والتزام كلمة واحدة دون تكلف لا يكون إلا براعة .

(٢) الغزل في اصطلاح الأدب الفارسي أبيات قليلة تقال في معان شتى أغلبها الغزل في معناه العربي . وهو بقابل القصيد ، وهو منظومات غالب فيها الطول تقال في الوصف والمدح والهجاء الخ

الندامى ، وأغار بد البابل ، ويحدثك عن الحدود والعيون والحواجب والطرر والأفواه ؛  
سنة شعراء الغزل والخمر .

ولولا هذه الجملوات التى يمرّ بها قارئ شعره ، وهذه اللمعات التى يدلّ بها على نفسه  
ما التمس الناس فى شعره شيئاً وراء المعانى الظاهرة .

وعارُ ديوان حافظ كالسائر فى حديقة ورد تروعه الصور الكثيرة ، والألوان المختلفة ؛  
ولسكنها كلها ورد . فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة .

أو هو كالمطرب يسمعك كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام ؛ ولسكنها لا تعدو  
حديث الحبيب فى جماله ووصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه . وكل ما سمعت من هذا  
معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة — باحسان التعبير وإجادة التصوير — تتضمن  
معانى جديدة لم تتناولها قطعة قبلها .

وهذه قطع من شعر حافظ ترجمتها منشورة إلا واحدة نظمها . وقد أردت أن  
تكون الترجمة عطلاً من الزينة مبيّنة عن المعنى فى غير تكلف :

— ١ —

لا ترجوّن طاعة وصدق عهد منى أنا السكران الذى طار ذكرى باحتساء الكأس  
يوم « ألت »<sup>(١)</sup>

حينما توضحأت من ينبوع العشق ، كبرت أربع تكبيرات على كل كائن  
ناولنى الصهباء أعلمك — من أسرار القضاء — أى وجه تيمنى وأنى عرفت أسكرنى  
إن الطود هنا أخف من النملة ، فلا تياسن من الرحمة يا عابد الخمر  
ليفدّ فكّ الروح ، فما أنبت بستانى العالم فى حديقة النظر ، أجمل من هذا الكمّ بين الزهر  
ما اطمان تحت هذه القبة الزرقاء غير هذه النرجسة السكرى لا مستها الضراء  
لحافظ من عشقك ملك سليمان ؛ ولم تنل يده من وصالك إلا الريح .

— ٢ —

وهذه قطعة من أجل ما عرف الشعر الصوفى وأبعده مرمى :  
تحدّث شعاع حسنك بالتجلى فى الأزل ، فبدا العشق وأضرم فى العالم ناراً لم تزل .  
وتجلى عشقه فما رأى الملك ولهان ، فقلبته الغيرة ناراً تشتعل فى الإنسان . وأراد

(١) يوم ألت : إشارة إلى الآية الكريمة « ألت بربكم قالوا بلى » .



المدعى أن يطالع السرّ فيعلم ، فدفعت يد الغيب في صدر غير المحرم<sup>(١)</sup> ، وهم العقل أن يضىء من هذه الشعلة سراجا ، فتألاأ برق الغيرة وزلزل العالم هياجا .

اقترع الآخرون على العيش وقلبي المغتم ، عاودت قرعته الغم . نظر ليرى في العالم صورته ، فضرب في مزرعة الإنسان خيمته . إنما خط حافظ سيجل الطرب في عشتك ، حينما خطّ على أسباب الفرح من أجلك<sup>(٢)</sup> .

وحافظ يبين في شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به في هذا العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرحه وسروره أحيانا ، وعن تهالله وإشراقه ، وتأميله وانبساطه ؛ كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ، أو حُمّ له بعد طول الفراق لقاء . فغزله الذى أوله :

تعال فإن قصر الأمل واهن القواعد ، وهات الحجر فأساس العمر على الرياح .  
يقول فيه :

لا تؤمل صدق العهد من الدنيا المتقلّبة ، فإن هذه العجوز عروس لآلف زوج .  
ويقول بعد هذا البيت كالذى أفاق من غفوة :

ماذا أقول لك ؟ كم بشرنى ملك الغيب البارحة وأنا فى الخانة سكران خائر !  
قال أيها البازى الطموح ، أليف السدرة ، ليس مقامك فى زاوية الحن هذه . لا لا !  
استمع ؛ ألا تسمع الصغير ينبعث من شرفات العرش . ما الذى أصابك فى هذا الشرك .  
وله غزل أوله :

ترك شيخنا البارحة مسجده إلى الخانة ، فما ترون يا إخوان الطريقة ؟  
يقول فيه :

جلا علينا وجهك الجميل آية من اللطف فليس فى تفسيرنا إلا اللطف والجمال .  
وهذا البيت يبين عن الأصل الذى يصدر عنه حافظ ، فقد أدرك من الجمال الإلهى فى هذا العالم ما أنطقه بتفسير هذا الجمال كالطائر الغرد الذى يشرف على شجرة فى روضة يقلب نظره بين المياه والأزهار والأشجار ، وكأن تغريده ترجمة الجمال الذى يرى ، وتفسير الحسن الذى يُبصر ، بالأصوات والأنغام .

(١) يستعمل فى الفارسية المحرم فى معنى الأمين على السر والأهل له . وهو فى العربية بمعنى أقرباء المرأة الذين لا يحل لهم تزوجها . وهم أمناء عليها .

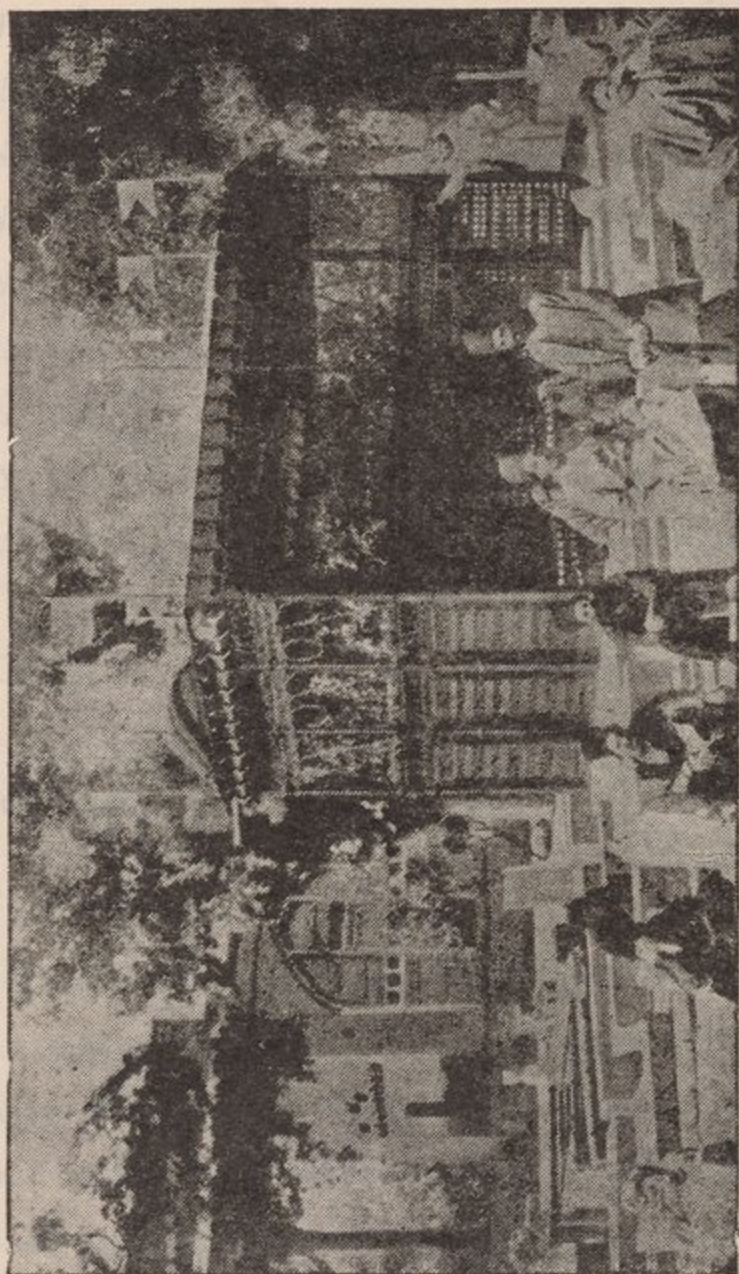
(٢) خط على أسباب الفرح أى ضرب عليها بالقلم (شطبها) .

ولا أنسى كلما تحدثت عن حافظ غزله الرائع الذى أوله :  
رأيت البارحة الملائكة تدق باب الحانة ، وتصوغ طينة آدم كأساً .  
ويعلن عن اغتباطه بما أدرك فيقول :  
إن سكان حرَمِ الممسكوت شاركوني الشراب وأنا جالس التراب . أحمد الله فقد وقع  
الصلح بيني وبينه . وهذه الخور راقصة تشرب كئوس الشكر فرحة .  
ويقول بعد هذا البيت وكأن هذا الصلح هو إدراك الستر المحجب ، والاطلاع على  
الحقيقة الخفية التى ضلَّ عنها الناس .  
« التمس عذراً لحرب الاثنين والسبعين ملة ، فقد عميت عليهم الحقيقة فضرَبوا في  
بيداء الخرافات » .

- ٣ -

وهذه قطعة أخرى من قطعه التى يبين فيها عن نفسه فى ثورة وهياج :  
تعالى الله أى سعادة لى الليلة فقد أوفى حبيبي بعتة الليلة  
سجدت حين رأيت وجهه الجميل بحمد الله ما أحسن على الليلة  
قد أثمر غصن عيشي بوصله فأنا مجدود ظافر الليلة  
يفتش دمي على الأرض « أنا الحق » كالحلاج إن صلبتني الليلة  
فى يدي براءة ليلة القدر أتى بها طالعى اليقظان الليلة  
صح عزمي على أن أرفع الغطاء عن الطبق ولو ذهب رأسى الليلة  
أنت صاحب نعمة وأنا مستحق فهات زكاة الحسن فى الحق هذه الليلة  
إني لأخشى أن يَمَحَى حافظ من الثورة التى فى رأسى الليلة  
فهذه إحدى قطعه التى لا تفسر فى جملتها إلا بالمعانى الصوفية . وهى من الأبيات التى  
يرمى بها الوجد أحياناً فيُعاب حافظ على تَفَنُّه وتَحَجُّبه ، فقد عزم على أن يبوح بالسر  
ولو كان فى هذا قتله . وإن قتل فلن يحوله القتل عن هذا الإدراك الذى أحاط به ،  
وتغلغل فى سريره ، وسرى فى دمه ، فلو سال دمه على الأرض ما دلَّ إلا على هذا المعنى ،  
ومارسم على الأرض إلا الكلمة الناطقة بالفناء التى صلب بها الحلاج « أنا الحق » ،  
بل يخشى حافظ مما ثار نفسه هذه الليلة أن يَمَحَى .  
وهذه قطعة يدعو حافظ فيها إلى الرجاء والتفاؤل ترجمتها نظماً :  
يوسف المفقود فى أوطانه ، لا تحزنْ ، عائد يوماً إلى كنعانه ، لا تحزنْ





الحافظة في مدينة شيراز حيث صريح حافظ الشيرازي





بيت الأحزان تراه عن قريب روضة  
 رأسك الأشعث يوما سوف يلقي زينة  
 هذه الأفلاك إن دارت على غير المني  
 أيها البلبل تغدو في ربيع ثانياً  
 لست تدري الغيب في أسرارهِ ، لانيأسن  
 إن إلى الكعبة في أشواقك اجتزت الفلا  
 يعلم الله تحمّل الحال ما أحوالنا  
 يافؤادى إن يسيل بالسكون طوفان الفنا  
 منزل جدّ مخوف ومراد شاحط  
 حافظ ما دمت بالفقر وليل مظلم  
 وفي هذه القطعة مثل من الأوزان والقوافي الفارسية . فالوزن من الرمل المثنى أى ذى

التفعيلات الثماني . والرمل في العربية لا يزيد على ست .

والقافية مردوفة ؛ تكررت فيها كلمة « لا تحزن » والتزم الروى في الكلمات التى قبلها . وهذا شائع فى الشعر الفارسى عامة وشعر حافظ الشيرازى خاصة .  
 وقد كتب تاريخ حافظ وترجم ديوانه الدكتور إبراهيم أمين المدرس بكلية الآداب  
 فليرجع إليه من شاء المزيد .

\*\*\*

ولا يتسع المجال لتقبع الآثار الأدبية فى عهد التتار ، وحسبنا أن نقول إنه كان عصر  
 اضطراب فى أوله ، اضطرب فيه الأدب ، فكانت فترة دهش فيها الناس لما أصابهم ، ولم يجدوا  
 من يشجعهم أو يستمع لهم ، فانقطع النسق فكان عهد التتار فاصلاً بين عهدين .  
 والذي يثير إعجاب المؤلف فى هذه الحقبة التأليف التاريخى وحده . فقد عنى التتار  
 بتسجيل أخبارهم ، وتدوين مآثرهم وتعرف الناس بسير آبائهم ، فألفت كتب فى التاريخ  
 هى أحسن ما أنتجه عصر من عصور إيران .  
 ومن أجل هذا يحسن أن نفصل الكلام فى هذا الجانب من الثقافة الإيرانية فى ذلك العصر .

(١) بيت الأحزان اعتكف فيه يعقوب حزناً على يوسف .

وأترجم لأكبر مؤرخي هذا العصر ، الذي مهد السبيل لمن بعده . وهو رشيد الدين فضل الله صاحب الكتاب المعروف « جامع التواريخ » :

## رشيد الدين

### وكتابه جامع التواريخ

استجاب التتار سريعاً للإسلام وحضارته . واستعانوا بالمسلمين في تدبير دولتهم ، ثم أسلموا واندرجوا في الجماعة الإسلامية .

وقد نبه في عهدهم وزراء رعوا السياسة والعلم ، وتركوا في التاريخ آثاراً محدودة منهم أسرة الجويني : شمس الدين محمد صاحب الديوان ، وأخوه علاء الدين عطاء ملك ، وابنه بهاء الدين . تولى شمس الدين الوزارة لهولاكو ولابنه أباقا . وولى علاء الدين أمر بغداد أربعاً وعشرين سنة منذ عام ٦٥٧ هـ . وكان بهاء الدين والياً على العراق العجمي وفارس .

وكان لهذه الأسرة فضل في تدبير الملك ورعاية العلم والأدب ، وكان فيها الأدباء العلماء . وقد ألف عطاء ملك كتاباً ضخماً في تاريخ التتار سماه تاريخ جهانكشاه أى فاتح العالم يعنى جنكيزخان . أكمله سنة ٦٥٨ ، بعد فتح بغداد بسنتين ، وانتهى فيه إلى حوادث سنة ٦٥٥ هـ . ومن كبار الوزراء والعلماء والمصلحين في دولة الأيلخانيين رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير ابن موفق الدولة على . كان جده موفق الدولة هو ونصير الدين الطوسي في أمر الإسماعيلية في قلعة الموت حينما استولى عليها هولاكو سنة ٦٤٦ ، السنة التي ولد فيها رشيد الدين . فدخل موفق الدولة في خدمة هولاكو .

وصار رشيد الدين طبيباً لأباقا بن هولاكو ، ونُبّه شأنه ، وعلمت مكانته . فلما ولي محمود غازان ٦٩٤ زادت مكانة رشيد وعُرف فضله وتمسكه في علوم أخرى إلى الطب الذي عُرِفَ خبرته فيه من قبل . فلما عُزل الوزير صدر الدين الزنجاني المعروف بصدر جهان وقتل ، ولى رشيد الدين الوزارة وأُشركَ معه سعد الدين سنة ٦٩٧ هـ . وذلك بعد ثلاث سنين من ولاية غازان . وصحب غازان في غزواته في الشام . وكان كاتبه باللغة العربية . واستمر



رشيد الدين وزيراً بعد موت غازان ، فوزر لأولجايتو (خدا بنده) وأغدق عليه خدائنده الهبات وقربه إليه ، وركن إليه في تدبير الملك ، فبلغ رشيد الدين أوج سلطانه ، وتصرف كما يشاء خلقه وعلمه وحكمته .

بنى رشيد الدين بحوار السلطانية دار الملك الجديدة ضاحية سماها الرشيدية . وبنى فيها مسجداً كبيراً ومدرسة ومارستاناً ومستشفى ، ودوراً أخرى للخيرات وزهاء ألف منزل . وبعد قليل بنى ضاحية أخرى قرب الغازانية شرق تبريز وأنفق أموالاً كثيرة حتى ساق إليها الماء من نهر سراو ( سراورود ) في قنوات منحوتة في الصخر ، مكّنه من هذه الأعمال ما أفاض عليه السلطان من الأعطية .

وفي عهد أبي سعيد بن أولجايتو ( ٧١٦ - ٧٣٦ ) أشرك معه في الوزارة على شاه ونالت الدسائس المتبادية من رشيد الدين فُعلزل . ورغب في أن يعيش في دعة بعيداً عن الدسائس . وكان من الأمراء من يودّ رجوعه إلى الوزارة . فاهتم منافسه على شاه فاتهمه أنه هو وابنه الصبي ابراهيم وضعا السم لأولجايتو في دواء صنع له . وصدق أبو سعيد التهمة وكان صبيّاً في الخامسة عشرة من عمره . فقتل الرجل العالم الخير الحكيم الحازم بعد أن لبث يدبر ملك المغول عشرين عاماً . قتل سنة ٧١٨ وقد نيف على السبعين . وقتل معه ابنه ابراهيم وهو صبي في السادسة عشرة من عمره . وتلك كانت غاية وزراء المغول الأيلخانيين لم ينج منها إلا قليل .

وتبع قتله مصادرة أمواله وتعذيب أقاربه ونفيهم وإبطال أوقافه . وأبيدت الحلة التي بناها وسميت الربع الرشيدى .

دفن رشيد الدين في القبر الذي أعده لنفسه ؛ ولكن هذا الرجل الكبير لم يترك له حتى قبره . فقد أمر ميرانشاه ابن تيمورلنك بعد مائة عام أن ينبش القبر وتنقل عظام المقبور إلى مقبرة اليهود . وكان حساد الرجل يزعمون أنه يهودى الأصل ، ومنهم من زعم أنه لم يزل على اليهودية .

كتبه :

كان رشيد الدين - على كثرة شواغله - معنياً بتأليف الكتب في موضوعات شتى فآلف :

- ١ - جامع التواريخ . وسنعود إلى الكلام فيه .
- ٢ - وكتاب الأحياء والآثار . وهو ٢٤ فصلاً تناول موضوعات مختلفة في الطبيعة والزراعة والغرس وتربية الحيوان وقتل الحشرات الضارة ، وفي العمارة والتحصين وبناء السفن واستخراج المعادن الخ . وهذا الكتاب مفقود .
- ٣ - والتوضيحات . وهو في العقائد والتصوف . كتب به بأمر أوجايتو ومنه نسخة في مكتبة باريس .
- ٤ - ومفتاح التفاسير . في بلاغة القرآن وفي المفسرين وطرائقهم وموضوعات دينية أخرى .
- ٥ - والرسالة السلطانية في العقائد . ألفها على أثر مجادلة وقعت في مجلس أوجايتو .
- ٦ - واطائف الحقائق في العقائد أيضاً . وهي ثلاثون رسالة صدرها بمقدمة حدث فيها برؤيا رأى فيها الرسول صلوات الله عليه ليلة السادس والعشرين من رمضان سنة ٧٠٥ هـ وهذه الأربعة الأخيرة مكتوبة بالعربية ، وقد جمعت وسميت المجموعة الرشيدية ونسخها موجودة وكتب أخرى .

عنابة رشيد الدين بكتبه :

توسل رشيد الدين بوسائل عدة لتخليد كتبه ؛ كان يأمر أن تنسخ من كل كتاب نسخ كثيرة ويعيرها للعلماء مرخصاً لهم في نسخها . وأمر بأن يترجم كل كتاب له عربي إلى الفارسية ، وكل كتاب له فارسي إلى العربية ، وأن ينسخ من هذه وهذه نسخ كثيرة لتحتفظ في خزانة الجامع في الحلة المنسوبة إليه : الربع الرشيدى . وأمر أن تجمع رسائله مع ما يتصل بها من صور وخرائط في مجموع واحد ، سمي جامع التصانيف الرشيدى ، وتوضع في خزانة هذا الجامع .



وأمر أن تكتب أربعة من كتبه في الطب وتدير المغول للحكومات باللغات الثلاث العربية والفارسية والصينية .

وأباح نسخ كتبه كلها لمن يشاء ، وخصص مالا من وقف الجامع انساخين يكتبون في كل سنة نسختين من كل كتبه إحداها بالعربية والأخرى بالفارسية ترسلان إلى إحدى المدن الإسلامية الكبرى .

وأمر أن تنسخ هذه الكتب على أحسن الورق البغدادي بأحسن الخطوط وأوضحها ، وأن تقابل بالأصول مقابلة دقيقة .

وأمر أن يُختار النساخون من مهرة الكتاب الذين يجيدون الكتابة ويسرعون فيها ، وأن يعملوا في المساجد . وكلما كملت نسخة وضعت على كرسي بين المنبر والمحراب ، وتلى عليها دعاء المؤلف كتبه لنفسه . ويكتب هذا الدعاء آخر كل نسخة ويتلوه تحميد أنشأه رشيد الدين ، وخاتمة يكتبها قيم الوقف يبين فيها تاريخ النسخة ، والمدينة التي كتبت لها ، ويذكر اسمه ونسبه ليدعوا له المسلمون .

ثم تحمل النسخة إلى قضاة تبريز ليشهدوا أن وصايا الواقف قد أنفذت في كتابتها . وترسل إلى المدينة التي كتبت لها ، فتوضع في خزانة عامة وييسر للناس الاطلاع عليها واستعارتها برهن يقدره قيم الخزانة .

وأمر أن تكتب نسخ من المجموعة الرشيدية وبيان الحقائق وكتاب الأحياء والآثار وتعطى لأحد المدرسين في الجامع يقرأ منها كل يوم ويفسرهما للطلاب . وعلى كل مدرس أن ينسخ من أحد هذه الكتب نسخة عربية وأخرى فارسية في مدة محددة ، فإن لم يفعل عزل . والنسخة التي يكتبها تكون له يتصرف بها كما يشاء . وتيسر مطالعة هذه الكتب لمن يشاء ولكن لا تنقل من خزانتها .

وعلى قوام الوقف أن ينفذوا شروط الواقف في غير تبديل ولا تحريف ولا وني ، ومن لم يفعل فعليه لعنة الله .

## جامع التواريخ :

هو بالعربية والفارسية .

أشار السلطان غازان أحد الملوك من بنى هولاكو على وزيره رشيد الدين فضل الله بأن يكتب تاريخ المغول وقبائلهم وأنسابهم باللغة الفارسية . وجمع إليه كل خبير بتاريخ المغول ، ويسرله الاستفادة من سجلات الدولة . فلم تمنعه شواغله الكثيرة أن يجمع هذا التاريخ الجامع . ويقول دولتشاه : إن المؤلف لم يجد وقتاً للكتابة إلا ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس من كل يوم . وقد توفي غازان قبل أن يتم الكتاب فأمر أخوه وخليفته أوجايتو بإتمامه وتصديره باسم غازان الذي أشار بقأليفه .

في كشف الظنون : « لما شرع في التبيين مات السلطان غازان في شوال سنة ٧٠٤ ، وجلس مكانه أخوه خدابنده محمد فأمره بإتمامه وإدخال اسمه في العنوان . وأمر أيضاً بإلحاق أحوال الأقاليم وأهلها وطبقات الأصناف وبأن يجعل جامعاً لتفاصيل ما في كتب التاريخ . وأمر من تحت حكمه من أصحاب تواريخ الأديان والفرق بالإمداد إليه من كتبهم . وأمر أيضاً بأن يجعله مذيلاً بكتاب صور الأقاليم ومسالك الممالك فأجاب وكتب أحوال الدولة الجنكيزخانية وأمة الترك مفصلاً في مجلد ، وذكر خلاصة الوفيات في مجلد آخر ، وذكر صور الأقاليم في مجلد آخر على أن يكون مذيلاً له . ونقل أخبار كل فرقة على ما وجد في كتبهم بغير تغيير » الخ . . .

فقد أمر أوجايتو بكتابة جزء آخر ، في تاريخ البشر وبخاصة المدن الإسلامية ، وجزء ثالث في تقويم البلدان . والذي في أيدينا اليوم الجزء الأول الذي يتضمن تاريخ المغول ، ويسمى أحياناً التاريخ الغازاني ، والثاني المتضمن التاريخ العام .

وتم الكتاب كله سنة ٩١٠ هـ .

والجزء الأول فيه بابان : الأول في قبائل المغول والترك وفروعها وأنسابها وأساطيرها . والثاني تاريخ جنكيزخان وآبائه وخلفائه إلى غازان خان .

والجزء الثاني مقدمة : تاريخ آدم والأنبياء ، وبابان : الأول في ملوك الفرس قبل الإسلام ، والثاني في سيرة الرسول صلوات الله عليه وخلفاءه إلى زوال الخلافة العباسية



بأيدي المغول ، وملوك الفرس بعد الإسلام : الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم وأتابكة فارس ، وتاريخ الإسماعيلية .

ثم في الترك ، وأهل الصين ، واليهود والفرنج وملوكهم وبابواتهم والهند وبوزا ودينه . وهذا كتاب له قيمته وخطره في التاريخ بما جمع تواريخ أمم كثيرة في عصور متطاولة ، وبما استقصى المواقف في جمع الأخبار من مصادرها المكتوبة وغير المكتوبة . وهو نسيج وحده في طريقته وأسلوبه .

وقد يسر للمؤلف من المصادر وأتيح له من الرواة ما لم يجتمع مثله لمؤرخ . يزداد على هذا التقاء تواريخ الأمم ، وحوادث العصور فيه . فهذا مؤلف مسلم يكتب لسلاطين تجاذبتهم الأديان حيناً ثم سكنوا إلى الإسلام . وهو يكتب في حدود عصور مختلفة ، ما قبل غارات التتار وما بعدها . وحسبنا أنه يؤرخ لبنى جنكيز وهم في مركز الحضارة الإسلامية ، ولكنهم متصلون بأممهم وبسفنهم إلى قلب الصين . قال المؤلف في أول الكتاب :

« أكتب تواريخ أصل المغول ونسبهم ، ونسب سائر الأتراك الذين يشبهون المغول ، فصلاً بعد فصل ، وأرتب تلك الروايات والحكايات التي تتعلق بهم مما كان موجوداً في خزائهم المعمورة ، ومما وجد عند بعض الأمراء ومقرّبي الحضرة الشريفة مودعة . وإلى هذا الزمان لم يجمعها أحد ، ولم يتيسر له سعادة هذا التصنيف ، وشرف هذا التركيب والتأليف . وكل واحد من المؤرخين كتب سطوراً من ذلك من غير معرفة بحقيقة الحال ، بل سمعه من أفواه العوامّ وتصرف فيه على وجه اقتضاه رأيه ، ولم يتيقن صحة ذلك لا هو ولا غيره » .

وقد تلا رشيد الدين مؤرخون في العهد التتاري فكتبوا كتباً في التاريخ قيمة منها تاريخ كزیده للمستوفي وتاريخ الوصاف كما كتب قبيل رشيد الدين تاريخ جهانكشا ( فاتح العالم ) لعطا الجويني .

وانصل التأليف في التاريخ بعد عهد التتار فكتبت روضة الصفا وحبيب السیر وغيرها .

## الفصل الثاني — عصر التيموريين :

— ١ —

### تيمورلنك وأولاده :

سنة توفى أبو سعيد ثامن ملوك المغول الإيلخانيين وآخرهم ، ولد رجل قدر له أن يستر على إيران وما يليها عاصفة من الخراب والدمار كالتى أثارها بنو جنكيز من قبل . ذلكم تيمور الذى عرف باسم تيمورلنك<sup>(١)</sup> .

ولد فى كشّ فيما وراء النهر سنة ٧٣٦ هـ . وقد وصل نسبه بجنكيز خان . وليس يتسع مجال القول هنا لنبيين كيف نشأ تيمور وكيف تسلط وكيف نشر فتوحه فى إيران والهند وآسيا الصغرى والشام .

حسبنا أن نقول إن إيران فى الحقبة التى بين وفاة أبى سعيد وغزو تيمور إياها ، وهى خمسة وأربعون عاماً ، كانت مقسمة بين أربع دول صغيرة ، أعظمهم وأجدهم على الأدب آل المظفر فى ولاية فارس والعراق العجمى وكرمان . وكانت دار ملكهم شیراز . وهم الأسرة التى عاش فى كنفها حافظ الشيرازى .

ثم شرع تيمور يفتح إيران سنة ٧٨٢ هـ فاستولى عليها سريعاً فيما استولى عليه من الأقطار .

وتوفى سنة ٨٠٧ هـ وقد امتدت دولته من دهلى إلى دمشق ، ومن بحيرة آرال إلى خليج البصرة . وكانت سمرقند دار ملكه .

وكان عسيراً أن يحتفظ بهذا الملك الفسيح ، فاسترد بعض الدول المغلوبة ما سلبوه بعد موته . وتمكن أولاده من تثبيت سلطانهم فى الولايات الشمالية من إيران .

وتنازع بنو تيمور على الملك زمناً إلى أن قضى عليهم الشيبانيون فيما وراء النهر والصفويون فى إيران .

ودامت دولة تيمور وخلفائه إلى سنة ٩٠٧ هـ فقد استمرت زهاء مائة وأربعين عاماً ( ٧٧١ — ٩٠٧ هـ ) .

(١) لنك : الأمرج .



— ٢ —

كان القرن التاسع الهجري عصر اضطراب سياسي في إيران والبلاد المتصلة بها؛ فقد أعقب موتُ تيمور لنگ سنة ٨٠٧ هـ اضطراب الدولة التي بناها بالسيف والرعب. واستطاع ابنه شاه رخ أن يثبت سلطانه على معظم أرجاء المملكة، وأن يثبت لثورات أقاربه بين الحين والحين. فلما مات شاه رخ سنة ٨٥٠ خلفه ابنه ألغ بك، فلم يغن غناء أبيه، وتوفي بعد قليل. فكان الأمر بعده كما قال السيرجون ملكولم: «بعد موت ألغ بك نرى طائفة من ذرية تيمور يتنازعون أرجاء الإمبراطورية. وقد بلغ إجلال الناس للدم التيموري حداً يسر لكل من يفخر بجران هذا الدم في عروقه أنصاراً يمكنونه من الظفر بعرش أو قبر مجيد».

ونشأت في هذا القرن دول جديدة، فنازعت بني تيمور المتنازعين: دولة الأربك فيما وراء النهر، ودولتا التركمان المعروفتان: قره قيونلو (ذوو الشاة السوداء)، وآق قيونلو (ذوو الشاة البيضاء). وكانت خاتمة هذا الاضطراب المستمر انتصار الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية في موقعة شرور سنة ٩٠٧ بعد مائة سنة من موت تيمور. وكان هذا الانتصار على جيوش آق قيونلو فاتحة انتصارات مدّت سلطان إسماعيل ما بين نهر جيحون وخليج البصرة وأفغانستان والفرات. فجمع شمل هذه البلاد مرة أخرى.

— ٣ —

وإنما يعنيننا من ذرية تيمور الأمراء الذين كان لهم أثر حميد في السياسة والعلوم والفنون:

١ — شاه رخ بن تيمور، وكان أمير خراسان أيام أبيه تولاهما وعمره عشرون سنة عام ٧٩٩ هـ، وضرب النقود باسمه. ثم امتد سلطانه بعد أبيه على معظم إيران وما وراء النهر. ولم يكن همه توسيع ملكه بل إصلاح ما أفسده أبوه وتعمير ما أخربه. وقد أجمع مؤرخوه على مدحه والإشادة بحبه للسلم وعنايته بتعرف أحوال الرعية وإسعادها. وكان مكرماً رجال العلم والأدب فقصدوه من كل جانب.

٢ — ولم يدم ملك ابنه ألغ بك أكثر من ثلاث سنين؛ ولكنه شارك في نشر العلم. وقد بنى مرصد سمرقند حينما كان أمير تركستان في عهد أبيه، وإليه ينسب زيج ألغ بك أو الزيج الجديد السلطاني.

٣ — وكان السلطان أبو سعيد حفيدُ ميران شاه بن تيمور ذا عناية بالعلم والأدب كذلك . وقد استقر ملكه في هراة اثني عشر عاماً .

وأعظم بنى تيمور أثراً في العلوم والآداب السلطان أبو الغازي حسين الذي ملك هراة بعد موت أبي سعيد سنة ٨٧٣ هـ واستمر ملكاً إلى أن توفي سنة ٩١١ هـ . وفي كنفه عاش الجامى زمنًا طويلاً ، وإليه أهدى كثيراً من مؤلفاته . وكان السلطان أديباً شاعراً ، ولكن الفضل الأكبر في تثبيت دولته واجتماع العلماء والأدباء حوله يرجع إلى وزير عالم شاعر خير معمر محب للعلماء صارت هراة في أيامه مجمع النابغين من رجال العلوم والفنون ، حتى عدت إذ ذاك كمدينة غزنة في عهد السلطان محمود ، فلا يستطيع من يتسكك في هذا العصر أن يغفله . ذلكم هو الوزير الكبير على شيرنوائى .

ولد في هراة سنة ٨٤٤ ومات ودفن بها سنة ٩٠٦ . وكانت وزارته في ذلك العصر المضطرب مصدر سلم وإصلاح . وقد وثق به السلطان حسين ، وكان رفيقه في طلب العلم ، فآلى إليه مقاليد الدولة فيسر الله الأمور ، وعم السلم حتى استطاع هذا الوزير أن يفرغ بعض الفراغ للإشراف على المؤلفين ، وأن يشاركهم في التأليف والنظم ، ووجد سبيلاً للرياسة الروحية ، وأدخله صديقه الشيخ الجامى في الطريقة النقشبندية .

وقد أجمع مؤرخوه على أنه كان من الأفاض الذين تزين بهم تاريخ الإسلام ؛ حتى بابر ، وهو أدق نقداً وأكثر اقتصاداً في المدح من أصحاب التراجم ، يقول إنه لا يعرف مثله في السخاء ورعاية العلماء .

وقد شجع هذا الوزير كثيراً من العلماء والأدباء على التأليف وقرض الشعر . وكان صديقاً للجامى ومحسناً إليه . وقد أهدى إليه الجامى كثيراً من كتبه . ورثى الوزير صديقه الجامى حين مات ونظم منظومة طويلة سماها « خمسة المتحيرين » تخليداً لذكرى صديقه وشيخه في التصوف .

وكان هذا الوزير مولعاً بالموسيقى والغناء والتصوير والنقش ، فعاش في رعايته كبار المصورين والموسيقيين ، ومنهم المصور الكبير بهزاد ، وشاه مظفر ، والموسيقى قول محمد وشيخى النائى ، وحسين العودى .



وكان شاعراً عظيماً أغنى اللغة التركية الشرقية بمنظوماته المطولة . وهى ستة مثنويات كبيرة . وكان مؤلفاً خصب القريحة كتب تسعة وعشرين كتاباً فى موضوعات مختلفة فى عهد السلطان حسين ، آخرها « محاكمة اللغتين » . وهو كتاب أراد أن يبين فيه امتياز اللغة التركية على الفارسية ، كتبها سنة ١٩٠٥ قبل وفاته بسنة واحدة . وقد رأيت فى إستانبول معجماً له فى اللغة العربية سماه سبعة الأبحر .

وقد أهدى إليه كثير من المؤلفين كتبهم ، منهم الشيخ الجامى ، وله ألف كتابه « نفحات الأنس » فى تراجم الصوفية ، ودولتشاه الذى أهدى إليه كتابه « تذكرة الشعراء » . وأما كلفه بالتعمير وبره بالمقراء وعنايته بدور العبادة والعلم ، فحسبنا فى ذلك أن نعرف أن بناء وترميمه ووقفه تناول ثلاثمائة وسبعين بناء بين مسجد ومدرسة وخان ودار صدقة فى خراسان ، وأنه جلب للماء من عين بعيدة فى طريق وعمر إلى مدينة المشهد ، فهى تسقى منها حتى اليوم .

#### — ٤ —

نرى إذاً أن عصر بنى تيمور ، على كثرة فتنه وحروبه ، كان عصر ازدهار للآداب والفنون . كان هؤلاء الأمراء المتنازعون كالأمراء الذين استقلوا فى العراق والشام وإيران فى القرن الرابع الهجرى ، فتنافسوا فى إحياء الآداب ؛ بل كانوا كملوك الطوائف فى الأندلس ، تنافساً فى تقريب العلماء والشعراء .

يقول الدكتور مارتى : « إن تكن جيوش تيمور قد محت آثاراً جميلة فإن خلفاءه أحدثوا كثيراً من بدائع الصناعات وأبلغوا الفنون الفارسية أعلى درجاتها . كانوا فى فترات السلم يعنون بالكتب وينظمون الشعر ، وكثير منهم أجاد فى شعره ؛ فالسلطان حسين مرزا لم يكن شاعراً قليل الخطر ، وشعره التركى يفوق شعر كثير من شعراء وقته . وقد كتب أيضاً باللغة العربية .

إنهم كانوا فى أساليب حياتهم يشبهون أمراء أوربا المعاصرين ، أو أمراء فرنسا فى القرن الثامن عشر ؛ ولسكنهم كانوا فى الأدب أعظم أثراً . كان شاه رُخ وألغ بك ، وبابى سُنقر ، والسلطان حسين ، محبين للكتب يعنون بالإجادة فى نسخها وتذهيبها وتحليتها .

فهم لا يقولون عن معاصريهم دوقات برجندى Bergundy ، ولا يقاس بهم عشاق الكتب في إيطاليا في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

كان باي سنقر والسلطان حسين في إيران كما كان وليم موريس في إنجلترا بعد أربعة قرون . إنهم لم يكتفوا بجمع الكتب . بل خلقوا فنونها لها . ولا يمكن أن يقاس بالكتب الشرقية في ذلك العصر أجل ما عرفت أوربا من الكتب . وكان باي سنقر خاصة مواظماً بالفنون الكتبية ، نشأ في رعايته أجل الأساليب في صناعة الكتب . وكان من أعظم المولعين بالكتب في العالم كله . كان يعمل بأمره وتشجيعه أربعون صنعة في النسخ . وبلغت العناية بالورق والتصوير والتجليد حداً لا يعرف نظيره حتى اليوم .

وقد أخرجت إيران أجل بسطها في عهد التيموريين ، لا في عهد الشاه عباس . وصنع في قصورهم من السلاح والدروع والأدوات والآنية المحلاة بالعاج ما لم تعرف مثله الأنظار الأخرى .

## — ٥ —

### العلماء والكتاب والشعراء :

وقد نبغ في هذا العصر كثير من الكتاب والمؤلفين ، عد المؤرخ خوندمير في كتابه « حبيب السير » زهاء مائتين من الكتاب والمؤلفين في ذلك العصر .

فمن المؤرخين حافظ أبرو صاحب « زبدة التواريخ » ألفه شاه رخ ، وفصيحي الخوافي صاحب « المجلد » في التاريخ والجغرافيا ، ألفه شاه رخ أيضاً ، وعبد الرازق السمرقندي صاحب « مطلع السعدين » أهداه إلى أبي سعيد ، ومعين الدين الإسفيزاري صاحب « روضات الجنات » في تاريخ مدينة هراة ، كتبه السلطان حسين .

ومنهم المؤرخ الكبير ميرخوند صاحب « روضة الصفا » أمضى معظم حياته في هراة في كنف الوزير علي شير .

ومن أصحاب التراجم دولتشاه صاحب « تذكرة الشعراء » ، وحسين الواعظ صاحب « روضة الشهداء » في مصارع آل البيت ، وعلى بن حسين الواعظ صاحب « رشحات عين



الحياة « في تراجم الصوفية . وقد ألف السلطان حسين كتاباً في التراجم سماه « مجالس العشاق » ، كما ألف وزيره على شير « مجالس النفائس » في تراجم الصوفية والشعراء . وكان للشعر رواج في ذلك العصر . وقد أثر شعراؤه في تركيا وما وراء النهر والهند . وكانت الصناعة والتسكف غالبين على الشعراء ، إلا جماعة من كبرائهم . ومن كبار الشعراء شاه نعمة الله الكرمانى ، وهو صاحب طريقة في التصوف ، توفى ٨٣٤ هـ ، وسيد قاسم الأنوار ولد في ولاية تبريز سنة ٧٤٧ هـ ومات في خرجرد سنة ٨٧٣ هـ وكان نبي النيسابورى ، وإمامى المروى . وقد ذكر على شير ٤٦ شاعراً معاصراً . وأما التصوف فكان غالباً على العلماء والشعراء . وقد ألف في تراجم الصوفية « نفحات الأنس » للجامى و « الرشحات » للواعظ و « شرح المثنوى » لسكّال الدين الخوارزمى . وإذا أردنا أن نختار من أدباء هذا العصر من يتمثل فيه علم العصر وأدبه وتصوفه في أكمل صورها فذلكم :

### الشيخ عبد الرحمن الجامى

( ١ )

هو نور الدين عبد الرحمن الجامى بن نظام الدين أحمد الدشتى بن شمس الدين محمد . كان جده من دشت إحدى محلات أصفهان . ثم رحل إلى ولاية جام من خراسان . وهناك تقلد القضاء والإفتاء ، وتزوج امرأة من ذرية الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ، فولد له نظام الدين . وكان شمس الدين وابنه يعرفان هناك بلقب الدشتى ، نسبة إلى دشت أصفهان . وهناك في قرية اسمها خرجرد من قرى جام ، ولد عبد الرحمن وقت العشاء ، ليلة الثالث والعشرين من شعبان سنة ٨١٧ هـ . وقد بين هو مولده في بيتين له بالفارسية . ورحل في صغره مع أبيه إلى هراة . وهناك غلب عليهما لقب الجامى نسبة إلى ولاية

جام التي رحلا عنها . وللاجامى بيتان يذكر فيهما أنه يسمى الجامى من جهتين :  
لأنه من ولاية جام ، ولأنه من المقتدين بشيخ الإسلام أحمد الجامى .

( ب )

بدأ عبد الرحمن تعلمه فى المدرسة النظامية فى هراة ، فدرس علوم الدين وأخذ علوم  
البلاغة ، فقرأ المفتاح والمطول وحواشيه . وكان من أساتذته على السمرقندى من تلاميذ  
السيد الشريف الجرجانى . قال عنه الجامى إنه لم يكن له نظير ؛ ولكنه استغنى عنه بعد  
أربعين يوماً . وكذلك سمع دروس شهاب الدين الجاجرى الذى اتصل تلمذته بسعد الدين  
التفتازانى . قال الجامى إنه لزمه مدة طويلة فلم يستفد منه إلا مسألتين اثنتين .

ثم توجه إلى سمرقند فى طلب العلم ، وحضر درس قاضى زاده الرومى . ووقعت  
بينهما مباحثات طويلة انتهى فيها الشيخ إلى رأى تلميذه . وقد قال قاضى زاده وهو  
يتحدث عن الأذكياء : إنه لم يعبر نهر جيمحون إلى هذا الجانب منذ حلت به مثل  
الشاب الجامى ذكاء وجودة طبع .

وكذلك درس فى سمرقند الهيئة وظهرت براعته فيها ونقد أقوال علمائها . وقد  
سئل مرة فى هراة عن مسائل من الهيئة فأجاب عنها ارتجالاً .

تجلى نبوغ عبد الرحمن فى كل ما قرأ أو سمع من العلوم . ولعل حدة ذكائه هونت  
عليه التلقى عن الأساتذة ؛ فقد روى عنه أنه قال وقد ذكر أساتذته : « لم أقرأ على واحد  
منهم درساً فكان فهمه خيراً من فهمى ، بل كنت أفوقهم فى البحث والإدراك ، ولا أعرف  
لأحد منهم على حق الأستاذية ، وإنما أنا تلميذ والذى أخذت عنه اللغة » .

وكان عبد الرحمن ممتازاً بعلوم نفسه كما امتاز بذكائه . أراد جماعة من إخوانه طلاب  
العلم على أن يذهب معهم إلى أحد أمراء السلطان شاه رخ ليحصلوا على وظيفة . فطال  
وقوفهم على الباب ثم قابلوا الأمير . فلما خرجوا قال الجامى : « لا أعود إلى مثل هذا  
أبداً » . فلم ير بعدها على باب أحد من أبواب المناصب .

( ح ) نصرف

ثم ذهب إلى خراسان فلقى سعد الدين الكشغرى ، وسلك طريقته . وكان سعد الدين



خليفة الطريقة النقشبندية . ويحكى أن هذا الشيخ كان يجلس على باب جامع هراة ، وكما بصر بالجامي ماراً قال : « إن في هذا الشاب مخايل عظيمة ، ولا أدري كيف نصطاده لطر يفتنا » . فلما جاء الجامي إليه قال : « اليوم ظفرت شبكتنا بصقر » . وكان أسف العلماء على تصوفه بمقدار فرح الصوفية به ؛ قال محمد الجاجرمي : « إن خراسان أخرجت بعد خمسمائة سنة رجلاً كاملاً فقطع عليه سعد الدين الطريق وأضاعه » . يعنى أن سعد الدين نقله من طريق العلماء إلى طريق التصوف .

ارتاض عبد الرحمن رياضة صوفية ، وأخذ نفسه بالجاهدات الشاقة ، واعتزل الناس واستوحش منهم ، وساح في البلاد ، فلقى كثيراً من كبار الصوفية في خراسان وما وراء النهر .

### ( ٥ ) صبحه ورياضته

عزم على الحج سنة ٨٧٧ هـ ، فتأهب للسفر في ربيع الأول ، فاجتمع كبراء بلده ليمنعوه من الحج قائلين إن خيراً كثيراً نصيب الفقراء من السلاطين على يدك ، وإن كل فائدة تفيدها الفقراء تعدل الحج مشياً . فأجابهم وكان يحب الفكاهة : « لقد تعبت من كثرة حجى ماشياً وأود أن أحج مرة راكباً » .

أخذ طريقه إلى الحج ، حتى بلغ همدان ، فلقاه حاكماً فضيِّفه هو وكل القافلة ، ثم أرسل معه خفراء حتى جاوز جبال كردستان وبلغ العراق . بلغ بغداد أول جمادى الآخرة ، وزار مزارات أهل البيت في النجف وكر بلاء . وقد اعترض بعض الشيعة في بغداد على أبيات في كتابه « سلسلة الذهب » وتألَّبوا عليه . فجلس الشيخ في إحدى مدارس بغداد واجتمع إليه الكبراء والعلماء ، فقرأ الأبيات التي اعترض عليها ، وفسرها تفسيراً أَرْضَى الحاضرين ثم قال : « لقد مدحت العلويين في « سلسلة الذهب » مدحاً خفت معه من السنيين في خراسان ، وما حسبت أنى سأعرض لثورة الروافض في بغداد » .

وقد نظم قصيدة يشكو جفاء أهل بغداد . ولعلها الواقعة الغدة التي تطاول فيها الناس على الشيخ . ثم ذهب إلى الحرمين ونظم قصائد يترجم فيها عن شعوره هناك . وبعد الحج توجه إلى الشام وسمع الحديث في دمشق ثم توجه إلى حلب .

( هـ )

ولما سمع السلطان العثماني محمد الفاتح ( ٨٥٥ — ٨٨٦ ) ، أن الشيخ ذاهب إلى الحجاز أرسل إليه بعض خواصه ومعه خمسة آلاف قطعة ذهباً ، وبضعة آلاف فلورى ووعد بألف أخرى ، وسأله أن يشرف بلاد الروم بزيارته . فلما جاء الرسول إلى دمشق كان الشيخ قد ذهب إلى حلب . وعلم وهو في حلب بمقدم رسول الفاتح فخشى أن يدركه هناك ، فعجل الخروج منها إلى تبريز . وكانت الحرب إذ ذاك ناشبة بين العثمانيين وأمير آذربيجان ، فتطوع بعض الأمراء لخمارة قافلة الجامى حتى جاوز بها المواضع المخوفة . ودعا بعض الناس إلى التوقف في طريقه فاعتذر بأنه يريد أن يرى والدته العجوز . ورجع إلى عمارة سنة ٨٧٨ فبقى بها في رعاية السلطان حسين ووزيره على شير حتى توفي سنة ٨٩٨ هـ .

وقد رثاه على شير وكثير من الشعراء وأرخوا موته بكلمات منها الآية : « ومن دخله كان آمناً » ومنها : ( آه أز فراق جامى ، آه أز فراق جامى ) .

( و )

وكان الشيخ الجامى ، على علمه وزهده وتقواه وتصوفه ، حسن العشرة فكها يحب المزاح . وقد سارت له لطائف دقيقة وأجوبة مسكتة ؛ فهو من هذه الناحية يشبه الشيخ سعدى الشيرازى .

كان من معاصريه شاعر يسمى ساغرى ، وكان يدعى أن الشعراء تسرق معانيه ، فنظم الجامى بيتين في هذا المعنى :

يقول ساغرى إن لصوص المعاني سرقوا من شعره كل معنى جيد . صدق ، لقد سرقوا معانيه ، فما رأيت في شعره بيتاً له معنى .

ومما يذكر في كتابه بهارستان أن رجلاً أحسن بضيق صدره ، فذهب إلى طبيب ، فسأله : ما عملك ؟ قال : شاعر . قال : أنظمت شعراً من قريب ؟ قال : نعم . قال : هل أنشدته أحداً ؟ قال : لا . قال : فأنشدنى . فأنشده فاستعاده مرة بعد مرة ثم سأله : كيف تجدك الآن ؟ قال : قد استرحت . قال : نعم ، كان هذا الشعر معقداً في صدرك .



( ز )

وقليل من العلماء والأدباء من بلغ في حياته المكانة التي بلغها الجامي بين العامة والخاصة . فقد أجمع الناس على تعظيمه والتبرك به ، وراسله الملوك ورغبوا في زيارته فأبى . ومن راسله وتودد إليه السلطان يعقوب من أسراء آق قيونلو ( ٨٤٤ — ٨٩٦ ) وجهان شاه قره قيونلو ، ( ٨٤١ — ٨٧٢ ) والسلطان محمد الفاتح ( ٨٥٥ — ٨٨٦ ) . وقد ذكر هؤلاء في شعره . والسلطان بايزيد الثاني ابن الفاتح ( ٨٨٦ — ٩١٨ ) . وفي منشآت السلاطين رسالتان من هذا السلطان وجواب الجامي عنهما . ومنهما يتبين تعظيم السلطان للشيخ ، وإمداده إياه بالمال .

( ح )

كان الجامي عالماً شاعراً صوفياً ، وقد كتب في موضوعات كثيرة نظماً ونثراً . فأما مؤلفاته المنشورة ، فمنها « نفحات الأنس » في تراجم الصوفية ألفه ( سنة ٨٨٣ ) وشواهد النبوة ( سنة ٨٨٥ ) وشرح اللمعات للعراقي ( سنة ٨٨٦ ) واللوائح واللوامع شرح فصوص الحسك لابن عربي ، وشرح النصوص لصدر الدين القنوي ، وشرح التائية والخيرية لابن الفارض ، ونأى نامه ، وهو شرح مقدمة المثنوي ، وشرحه على السكافية في النحو العربي ، وقد سماه الفوائد الضيائية نسبة إلى ابنه ضياء الدين ، وهو شرح ذائع جداً في البلاد الإسلامية الشرقية ، ألفه لابنه بعد أن قرأ له كلستان سعدى ، وكتاب بهارستان ، وهو قصص أدبية أخلاقية .

وله مؤلفات أخرى في التفسير والحديث والتوحيد والتصوف الخ تقارب الأربعين . وأما منظوماته فضربان : الأول الديوان وهو ثلاثة أقسام : فاتحة الشباب ، وواسطة العقد ، وخاتمة الحياة .

والضرب الثاني سبع منظومات قصصية مطولة تسمى هفت أورنك وهي : ( ١ ) سلسلة الذهب وتتضمن مسائل فلسفية ودينية وأخلاقية ، أتمها سنة ٨٩٠ وقدمها للسلطان حسين بيقرا .

( ٢ ) وسلامان وأبسال وهي قصة فيها ألف ومائة بيت تذكر القارىء بقصة حى بن يقطان ، نظمها ليعقوب بن أوزون حسن ( آق قيونلو ) .

(٣) وتحفة الأحرار في التصوف ، جعلها على مثال مخزن الأسرار لنظامي ، وأتمها سنة ٨٨٦ وهى ألف وسبعمائة بيت .  
(٤) وسبحة الأبرار في التصوف كذلك ، وفيه قصص وأمثال كثيرة ، وقدمه للسلطان حسين .

(٥) يوسف وزليخا ، وهو أسير منظومات الجامى أتمه سنة ٨٨٨ وقدمه للسلطان حسين  
(٦) ليلى والمجنون ، ويشتمل على ٣٧٦٠ بيت نظمها فى أربعة أشهر سنة ٨٨٩ .  
(٧) خسرونامه سكندرى ، فى الأخلاق والحكم ، نظمها للسلطان حسين .  
ويضيق المقام عن التحدث فى بعض منظوماته أو إيراد شئ من شعره ، فأكتفى بالحديث عن أقصر هذه المنظومات القصصية ، قصة سلامان وأبسال . وهى قصة رمزية صوفية وهذه خلاصتها :

كان فى بلاد اليونان ملك ذو شوكة ، وكان فى عهده حكيم يعترف الحكماء بأمامته ، وعرف الملك قدره فقرّبه واصطفاه واتبع مشورته فى أموره كلها ، فسخرت له ممالك الأرض كلها واستقر له السلطان ، وسعد الناس بعدله وسخائه .

وفكر الملك فى أمر نفسه فرأى أنه ظفر بكل ما تمنى إلا ولداً يخلفه ، ويحيى ذكره ، فأنضى للحكيم بأمنيته وقال : لا نعمة أعظم من الولد . وبقين عون الولد لأبيه ، ودفعه عنه فى الحادثات .

فلما سمع الحكيم كلام الملك قال إن الولد لا يكون إلا بالشهوة ، ومن الشهوة يُظلم العقل والفكر ويزين القبيح ، وتذهب الحكمة من القلب ، والنور من العين .

وتكلم الشاعر فى مضار الشهوة وانتقل إلى ذم النساء ووصفهن بالغدر وكفر النعمة .  
ودبر الحكيم تدبيره فأخذ نطفة من صلب الملك بغير شهوة ، ووضعها فى مكان ملائم فنشأ منها بعد تسعة أشهر طفل سوى . وفرح الملك به أى فرح ، وسماه سلامان واختار له مرضعة شابة ، سنّها دون العشرين - اسمها أبسال ، أوتيت من الجمال ما يعجز عنه البيان وقد وصف الشاعر جمالها وصفاً مفصلاً . وأحببت المرضعة طفلها بل جُنّت به . وافتنت فى تنظيفه وتزيينه ، وشغلت به ليلاً ونهاراً ، حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره كالبدور فى



الرابعة عشرة من الشهر . وشب سويًا جميلًا روعة للناظرين ، وفتنة للفتامين .  
وكان من حدة الفهم والذكاء ، وتصريف الكلام منشوره ومنظومه ، وجودة الخلط  
موضع الإعجاب والتعجب . وقد أوتى حظًا من كل حكمة ، وحذق حكمة اليونان .  
وكان ذا ولع بتهيئة مجالس الطرب بالليل . وكان إذا لعب برأسه الشراب شارك  
المغنين والموسيقيين ، « تارة يمزج صوت الناي بالسكّر فيملاً الأذان سكّرًا ، وتارة يتناول  
الرباب ، فيشعل النغمات التي تحرق الألباب . ويسلط البندق الرطب على الوتر ، فيرمي  
الأخضر واليابس بالشرر . وحينما يحتضن العود كالطفل الصغير ، ويعرك أذنه فيثير الأناث  
الحزينة ، ويقطر الأهداب دماء » .  
وكان يسمر كل ليلة حتى السحر . وينام قليلاً ثم يخرج إلى الميدان صبيحاً بين  
السكّر والنوم . فيلعب بالسكرة مع أترابه من بني الملوك ، فيبرزهم في تلقف السكرة  
بالصولجان ، لا تطيش له ضربة ، ولا تخيب له عزيمة .  
ثم ينصرف إلى المناضلة فيوتر أقواسه ويرمي ، فلولا السماء لجاوزت سهامه الأفق ،  
لا يسلم من سهمه غزال عداء ، ولا طائر يخفق في جو السماء .  
وهو في الجود والبذل بالغاية التي لا تدرك ، إذا قيس به حاتم ومعن فهما بخيلان .  
تعود بسط السكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه أنامله الخ .  
وبلغ سلامان مبلغ الرجال ، وحدثت أبسال نفسها به ، وعزّت عليها مرامه فجعلت  
تتجمل له ، لتعرض نفسها في فنون من الصور ، وألوان من الجمال ، لتأسر قلب سلامان .  
واستطرد الشاعر إلى قصة يوسف فقال إن زليخا أمرت فبنى لها قصر أبيض ناصع .  
ثم أمرت نقاشاً ماهراً أن يصورها في كل جانب منه . فلما راودت يوسف كان كلما  
أعرض عنها رأى صورتها ، ففتنته لولا أن رأى برهان ربه .  
وعمل في سلامان جاهلاً وتجميلها ، وتزيينها وتحيلها ؛ ولكنه خاف العاقبة ، وآثر  
العافية ، وخشى أن تذهب اللذة الزائلة بما يطمح إليه من جاه وجلال .  
ثم غلبه هوى أبسال فأذعن له ، وطابت بينهما الصحبة فأنفى اليوم إلى الأسبوع  
والأسبوع إلى الشهر ، والشهر إلى السنة .  
ولكن الدهر كان يناديها بالغيث أن ليس من دأبي أن أترك الصفاء لأهله . كم

صحبة وصلتها نهاراً ثم قطعها ليلاً ! وكم دولة طلعت بها مع الليل ، وفي الصباح سال بها السيل .

وانقطع سلامان عن لقاء الملك وحكيمه . فسألا حتى أخبرا الخبر . فدعوا وسألاه فعرفا كنه الأمر فعمدا إلى النصيحة وكان من قول أبيه :

« لقد آدميت قلبي كالشقائق سنين حتى نالت يدي وردة مثلك ... إنما يجدر بك اللعب بالصوبجان ، وركض الخيل في الميدان ، لا الإمساك بالطرر كالصواالج ، والقعود مع الغواني اللوابع . ويجدر بك أن ترمى الصيد فتصميه في البيداء ، لا أن تسكون كالصيد غرضاً لهذه الطباء ، وأن تضرب بالسيف في صفوف الرجال ، وتقطع أعناق الأبطال ، لا أن تفر من الشجعان ، وتعرض رقبتك لسيوف النساء . بالله يا بني دع هذا واطمح للمقصد الأسمى وإلا قتلت أباك غماً » .

فأجاب سلامان : إنه طوع أمر والده ، ورهن إشارته . وشكا إليه ما يلقي من حب أسال وقال إنه مغلوب على أمره .

وقال الحكيم :

« إيه يا باكورة البستان القديم وآخر ما أبدع قلم التسكوين . يا قارىء كتاب السمع والأربع<sup>(١)</sup> ، وعالم صفحات الليل والنهار ! أنت خازن كنز آدم ، وأنت نسخة هذا العالم . اعرف نفسك ولا تحسبها هملاً ، فأنت أرفع من كل ما أقول .

إن الذي صورت جنتك يد قدرته كتب في قلبك حروف حكمته . فأنق صدرك من نقوش الصور ، ووجه هذه المرأة إلى المعاني السكبر ، حتى يكون صدرك المعاني كنزاً ومرآتك لنور المعرفة مظهرها ...

لقد كنت على المنزلة في مبدئك ، وكان على الأفلاك موكبك ، فرمتك شهوة النفس من علاك ، وجعلت حضيض التراب مشواك .

وأجاب سلامان :

« يا من روح أفلاطون منه في حبور ، وأرسطو لأمره أسير . كانت العقول عشرة أول الأمر فجعلتها أنت أحد عشر .

(١) سبعة الأفلاك وأربع الطبائع أو العناصر



أنا سالكُ طريقك ، وأصغر تلاميذك . ولكن لا يعزب عن رأيك المنير ، أنه ليس باختياري المسير . إن قدرة الفاعل على قدر القابل ، وليست القابلية بجعل جاعل . فكيف انقطع آخر ، عما كنت له في بدايتي قابلا .

وضاق الأمر على سلامان بما لقي من اللوم . وهجر الملك والحكيم وهرب مع أبسال . ويصف الشاعر ما يفعل اللوم بالعشاق ، ويبين أن سلامان لم يجد بداً من فراق وطنه وأنه هيئاً محملاً له ولأبسال وسارا لا يفترقان ليل نهار ، حتى أتيا بحراً واسعاً عميقاً مانحاً ، السمك فيه ظاهر جميل الألوان والأشكال ، يشق الماء كما يشق الديباج الأزرق بمقراض من الفضة . وأراد سلامان أن يعبرا فوجد زورقا كاهلال ، فركبا فيه مسرورين فصار الهلال منزلاً للشمس والقمر . وسار الزورق تملأ شرعه الريح كالبط يسبح على الماء ، ويشق صفحة البحر بصدره مسرعاً إلى مقصده ، له سرعة السهم وإن كان مخنياً كالقوس .

ولاحت وسط اللج غابة يعجز الوهم عن وصفها ، اجتمعت فيها أصناف الطير كله ، أسراباً إثر أسراب ، وأفواجا بعد أفواج ، والأشجار ناضرة متشابكة ، والثر في أصول الشجر يابساً وجفياً . وفي ظل كل شجرة ينبوع كعين الشمس ، والأغصان تهزها الريح فتنتثر ما عليها من زهر وثمر .

« فلما رأى سلامان جمال المسكان ، كف عن السفر العنان ، وأقام مع أبسال فيه ، وادعين ، ومن الخوف والرجاء فارغين ، فرحين ممتزجين كالروح والبدن ، نضرين كالورد والسوسن ؛ صحبة لا يعلق بها فساد الدخلاء ، وراحة لا يشوبها غناء . ووُرد لا يعجبه وخز الشوك ، وكنز لا يقاربه نكز الشعبان . فهما نائمان في المرج كل آن ، شاربان من المنيابيع لا يفتران ، تارة مع العنادل في غناء ، وأخرى في حديث حلومع البغواء ، يحولان حيناً مع الطاووس ، ويتبختران حيناً مع الحجل .

وقصارى القول أنهما وصلا النهار بالليل في طرب وحبور وجذل . وماذا بعد أن يؤنسك الحبيب ، ويبعد عنك الحاسد والرقيب . »

وعرف الملك بعد حين خبرهما ، فاشتد حزنه لهما . وتبع أخبارهما ، فلم يقف لهما على أثر

فعمد إلى «مرآة العالم» التي يتجلى فيها كل شيء . . . وهي كقلب العارف لا يخفى عليه ما في العالم من خير أو شر ، فرآها الملك في هذا النعيم فرق لها .  
وازداد الملك على مر الزمان حسرة ، ولم يرعوا ابنه — معقد رجائه — عن غيئه . فوجه همته وفسكره إلى سلامان حتى حال على البعد بينه وبين حبيبته . وكانت العاقبة أن عاود أياه معتذراً إليه مما جناه .

وذهب الفرح بالملك كل مذهب حين رأى وجه ابنه ، وبالغ في الحفاوة به وإعظامه وإكرامه وقال له :

الملك لك نخذه ، ولا تخرجه من سلالتك . انفض يدك من هذه الغانية ، وامسح من يدك حذاء هذه الجلياة . فما يجتمع تدبير الملك وعبادة الغانيات . فاختر أن تكون ما تشاء ، إما مملوكاً وإما زير نساء .

وفعلت النصيحة بسلامان فعلمها ، فضاق بالدنيا وضائق به . فانطلق هو وأبسال إلى البادية ، وجعاً حطباً ، وركباً بعضه على بعض حتى صار كالجليل . ثم أضرم فيه النار ونظروا إليها فرحين ثم تقدما إليها فدخلها غير هائنين .

واطلع الملك على هذا بالغيب ، فوجه همته إلى إهلاك أبسال وإنجاء سلامان ، فظفر بما أراد .

« كان هذا ذهباً ، وكانت هذه غشا على الذهب ، فبقى الذهب خالصاً وذاب الغش ، إذا ألقى الذهب المغشوش في النار لم يعمل حرّها إلا في غشّه . إن للرجال مدداً من الله ، فليس هذا من همه الرجال بعيداً . يعرف هذا كل ذي همه ، وإنما يفسكه من لا همه له . ورأى سلامان أنه بقي واحترقت حبيبته ؛ بقي جسماً بغير روح ، فاضطرم في نفسه الحزن ، وأرسل الآهات ناراً ، وأسأل الدمع مدراراً » .

وكلما جنه الليل في داره ، أطال الحديث مع خيال حبيبته :

« يا من أحرقتني فراقه ، وحُرمت عيني جماله ، كنت أنيس روحى سنين ، وكنت نور ناظري الحزين .

كان كل لصاحبه قرة عين ، وكنا بالوصال سعيدين . عشنا فارغين من هم الناس ، لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ، وقد كفّ الفلك يد جورده ، وسارت الأمور على هوى



الفؤاد ، يجمعنا الليل سرين ، ويرانا النهار نجيين . ليت النار حين اضطربت ، أحرقتني وأبقت عليك ! ويلي قد احترقت وبقيت ، ويلاه إنه حظى العاثر . ليتني حم لى لقاء ، وسلكت معك طريق الفناء ، وخلصت من الوجود الشقي ، ووصلت إلى النعيم الأبدى . ونعى خبر سلامان إلى الملك ، فذهب به الغم المذاهب . قال : وارحمناه اسلامان ! لقد كان مع أبسال في هم ، وهو بدونها أسير الغم . كان في غم بها ، وهو في غم من دونها . إن قبة السماء دار غم عجب ، الخلو من الغم فيها كذاب . حينما ضربت طينة آدم ، وخلعت عليها الصورة أمطر عليه سحاب البلاء . مطر الغم أربعين صباحاً . فلما مضت الأربعون أمطر عليه الطرب يوماً واحداً . فلا يخلص من الغم إنسان ، ولا يجد السرور إلا يوماً واحداً من أربعين . ثم تنتهى الأمور إلى السرور . ولكن يعلم العارفون أن هذا في الدار الآخرة .

وبهظ الملك أمر سلامان ، وعجز عن التدبير له فعرضه على الحكيم العالم ، وسأله أن ينقذه بحكمته . قال الحكيم : إن لم ينقض سلامان عهدي ، ولم يخرج عن أمرى ، رددت إليه أبسال عما قليل ، وخلصته من هذا الحال الويل . أطب لأمره أياماً ، وأرّده نجى أبسال دوماً .

وسمع سلامان هذا من الحكيم ، فأسلس له قياده ، وأخلص له طاعته ، وفتح قلبه لأمره .

فلما انقاد سلامان للحكيم أقبل عليه يعلمه ويفقهه وأتى بالسير في تلقينه وتقويمه . وكان سلامان كلما ذكر أبسال صاح وناح . فصنع الحكيم صورة أبسال فكان يجلوها عليه كلما ثار به الوجد ، فسكن ثورته فيزيل الحكيم الصورة . « إذا قويت همه العارف خلق ما يشاء غير عاجز ، فإذا غفل عنه لحظة فارقت صورة الوجود » .

وكان الحكيم بين الحين والحين يعرض في أحاديثه للزُهرة يصف جمالها ، ومكاتها بين الأنجم ، ويحدث عن غنائها وطربها ، وإصاخة الأفلاك لأغانيتها . وكان سلامان يصفى إلى حديث الزهرة فيشرب قلبه الميل إليها . وازداد الميل على تكرار الأحاديث . فلما آنس منه الحكيم هذا توجه إلى الزهرة فأثر فيها حتى تجلت

في جمالها كاملاً ، وفعلت فعلها في روح سلامان وقلبه . فأثحت صورة أبسال من ضميره ، وتمكّن حب الزهرة في قلبه .

رأى الحسن الباقي فأعرض عن الغاني ، وآثر العيش الخالد على المتاع البائد .

### مبايعة الملك وأرطاة دولته سلامان بالملك :

رأى الملك سلامان قد خلص من هذه المحنة ، وسمت همته إلى المعالي ففوض إليه الملك . وأعدّ حفلاً دعا إليه الملوك والكبراء ورؤساء الجند . وبويع في هذا الحفل لسلامان ووضع الملك التاج المرصع على رأسه . وأجلسه على عرش من الذهب . وفوض إليه الأقاليم السبعة ، وعلمه كيف يسوس الملك ، وكتب له وصية تليت على الحضور . وهي وصية بليغة تتضمن سياسة الناس بالعدل ، والعطف على المظلوم والقسوة على الظالم ، واختيار الوزراء والعمال ، وتعرّف أخبار الرعية كل حين .

### مغزى القصة :

في كل صورة من القصص حصّة من المعنى لأهل الدقائق . وقد تمت صورة هذه القصة ، فعليك الظفر بمعناها . فليس الغرض منها القيل والقال بيننا وبينك ، بل كشف حالنا وحالك ؛ ما المراد بالملك والحكيم ؟ وسلامان هذا الذي ولده الملك بغير صاحبة ؟ ومن أبسال التي سعدت بسلامان ؟ وما جبل النار والبحر ؟ وما الملك الذي ناله سلامان حين صحا من حب أبسال ؟ وما الزهرة التي سلبت قلبه ، وجلت عن المرأة صورة حبيبته ؟ استمع لشرحها واحدة واحدة ، وكن من الفرق إلى القَدَم أذنًا مُصغية : لما خلق الصانع الواحد هذا العالم ، بدأ بالعقل الأول ، وتمت العقول عشرة . وعاشرُها مؤثر في العالم . وهو لهذا يسمى العقل الفعّال ، وهو في العالم مفيض الخير والشر ، وكفيل بالنفع والضّر . وهو مستغن عن الجسم والجسمانيات ، وهو بذاته وفعله منفصل عنها ، يؤثر فيها دون اتصال . وروح الإنسان وليدة تأثيره ، ونفسه أسيرة تديره . هما طوع حكمة ، وغمر يق إحسانه . هو الملك الأمر المؤمّر ، وسواه مأمور مستخّر .

وهو المقصود بالملك في هذه القصة . وأما الحكيم فهو الفيض الذي ينزل منه على



العالم . وروحه الطاهرة تسمى النفس الناطقة . وهى وليدة هذا العقل دون صلة جسمانية . ومفارقة هذه الصلة الجسمانية هى التى كفى عنها بالولادة من غير أب .

وهذا الوليد الطاهرسمى سلامان . وأما أبسال فهو هذا الجسم أسير الشهوة ، والخاضع لأحكام الطبيعة .

الجسم حى بالروح ، والروح بالجسم تدرك المحسوسات . فكلاهما ، من هذا ، عاشق صاحبه .

وما البحر الذى كانا فيه ، وسعدا بالوصال فى نواحيه ؟ بحر الشهوات الحيوانية ، ولجة اللذات النفسانية .

عالم فى موجه مستغرق ، وهو فى استغراقه بعيد من الحق . وأما حرمان سلامان من أبسال على قربها منه ، فقد عنى به تأثير الشيخوخة ، وطى بساط الشهوة .

وما ميل سلامان نحو الملك ، وتوجهه إلى عرشه ؟ هو الميل إلى اللذات العقلية ، والتوجه إلى مملكة العقل .

وما هذه النار ؟ هى الرياضة الشاقة ، إلى أن تحترق الطبيعة .

احترقت بها آثار الطبع ، وبقيت الروح ، وقد عرفت عن الشهوات الحيوانية . ولكن لإلفها هذا الطبع عمراً عاودها ألم فراقه بين الحين والحين .

ولهذا وصف الحكيم جمال الزهرة ، وأوحى عشقتها إلى نفسه ، حتى سكن على مر الزمان إليها ، وخلا من عشق أبسال وهما . فما الزهرة ؟ هى السمكالات العليا ، التى تكمل الروح ببلوغها .

ومن هذا الجمال يصير العقل نورانيا ، ومليكاً فى الملك الإنسانى .

قد أجملت لك هذه الأسرار ، واختصرت هذا المقال . فإن لم يكن لك من التفصيل بدء ، فأعمل فسكرك ، حتى تتجلى لك الأسرار القديمة .

## القسم الثاني

### عصر الدولة الصفوية

٩٠٧ — ١١٤٨ هـ

— ١ —

كان صفى الدين الأردبيلي من أسرة علوية تنسب إلى موسى السكاظم بن جعفر الصادق . وبين صفى الدين وموسى تسعة عشر أبا .

وكان لصفى الدين هذا مكانة عظيمة في أردبيل وما حولها ، يعظمه الناس ويقصدونه من البلاد القريبة والبعيدة .

وتوفى في جيلان سنة ٧٣٥ . وخلفه أبناؤه وازدادت على مرّ الأيام مكاتبتهم وشوكتهم حتى حارب بعضهم لحماية طريقتهم ودعوتهم الشيعية ، وقتل بعضهم في الحرب . قتل الشيخ حيدر ، وهو الحفيد الخامس لصفى الدين سنة ٨٩٣ هـ . وترك أطفالا ، أحدهم عمره سنة واحدة اسمه إسماعيل . وتقلبت الحوادث بإسماعيل حتى بويغ بالملك في تبريز سنة ٩٠٥ ، وسنّه ثلاث عشرة سنة .

وكان هذا إيذانا بقيام دولة هي أعظم الدول التي تساطت في إيران بعد الإسلام . وهي الدولة التي سميت الصفوية نسبة إلى الشيخ صفى الدين أحد أجداد الأسرة التي أقامتها . وكان في إيران اثنا عشر أميراً متفرقين في أرجائها حين بويغ إسماعيل في تبريز ، منهم أمراء من ذرية تيمورلنك .

وقد دانت البلاد سريعاً لهذه الدولة الجديدة فبلغت جيوش إسماعيل هراة بعد سنين قليلة . وشمل ملكه ما بين نهر جيحون وخليج البصرة وأفغانستان ونهر الفرات . ودام الملك لهذه الدولة زهاء قرنين ونصف . وبلغت حدودها في عهد الشاه عباس الأول حدود الدولة الساسانية القديمة .

وهذه الدولة تحالف الدول التي نشرت سلطانها على إيران قبلها من وجوه :





الشاه عباس الأول أعظم الملوك الصفويين وعلى يده باز للصيد





الأول : أنها بسطت سلطانها على إيران كلها ، واتخذت دار مملكتها في إيران نفسها . وكانت الدول قبلها تنشأ خارج إيران ويمتد سلطانها على جانب منها ، أو تنشأ في إقليم من إيران وتسيطر عليه .

والثاني : أنها نشرت المذهب الشيعي بالترغيب والترهيب وجعلت من العصبية المذهبية عصبية سياسية في نزاعها مع الأمم المجاورة ولاسيما الترك العثمانيين .

والثالث : أنها كانت في التاريخ الإيراني صلة بين العصور القديمة والعصور الحديثة ، واتصلت بدول أوربا وغيرها ، وقبست من الحضارة الأوربية .

ولهذه الدولة آثار جليلة تشهد بعمران البلاد في عهدها وازدهار الصناعات .

وأعظم آثارها في أصفهان ، التي اتخذها الشاه عباس الأول ومن بعده دار الملك ، فأتسع عمرانها ، وبُنيت فيها المساجد والقصور التي لا تزال قائمة يتجلى فيها الجمال والجلال . وقد زخرت أصفهان ، بالعمران حتى شاع بين الفرس هذا القول :

إصفهان نصف جهان ( إصفهان نصف الدنيا ) .

ونبغ في هذا العصر كبار المصورين مثل رضاي عباسي . ولا تزال آثارهم زينة في القصور القديمة والسكرت .

### المذهب الشيعي

جدّ الصفويون في نشر المذهب الشيعي بالترغيب والترهيب . وقسوا على الناس في هذا قسوة شديدة . واصطنعوا لتبليغ دعوتهم علماء كثيرين من أهل إيران ومن البلاد العربية . فأنحاز إليهم علماء الشيعة من البلاد الإسلامية الأخرى ولاسيما جبل عامل من بلاد الشام ، والبحرين ، فرحين بالدولة القائمة على مذهبهم ، الداعية إليه والناصر له بالسيف . وتعاونت الدولة والعلماء على إدخال الناس في التشيع طوعا وكرها . وجدّ العلماء في تأليف الكتب المبسوطة والموجزة ، ووضحو أصول المذهب وفروعه .

وكان أكثر هذه المؤلفات بالعربية ، وقليل منها بالفارسية ؛ إذ كانت العربية لسان العلم إلى ذلك العصر .

وقد بالغ الملوك الصفويون في إكبار المجتهدين وتعظيمهم ، واعتقدوا أنهم نواب الإمام المعصوم أو المهدي المنتظر صاحب الزمان « عجل الله فرجه » .  
 روى أن ملأ عبد الله التوني سار راكباً في ميدان الشاه بأصفهان وأمامه عباس الأول أعظم السلاطين الصفويين ماشياً ، ليرى الناس منزلته وقوته .  
 وكذلك روى أن الأمير محمد علي ميرزا أعطى مجتهدين كلاً منهما ألف تومان ليكتبوا له دعاء يضعان عليه توقيعهما ويختمانه ، يضمن به مكاناً في الجنة . فلما تردد أحد المجتهدين — السيد رضا — قال له الأمير : اكتب الوثيقة وأشهد عليها علماء النجف وكر بلاء أنل ذلك المكان من الله سبحانه وتعالى .

ويروى أن أحد ضباط الشاه عباس الكبير اقترب ذنباً فاستشفع الملأ أحمد الأردبيلي فكتب الشيخ إلى الشاه عباس :  
 يعلم بأن ملك العارية عباس أن هذا الرجل إن كان ظالماً أول الأمر فهو الآن في صورة المظلوم . فإن غفرت ذنبه فلعل الحق سبحانه وتعالى يغفر ذنوبك .  
 كتبه عبد سلطان الولاية<sup>(١)</sup> ( بنده شاه ولايت ) أحمد الأردبيلي  
 فأجاب الشاه عباس :

يعرض عباس أنه عدّ الخدمة التي أمرتم بها منة فأنفذها . لا يُنسى هذا الحب من دعاء الخير .

كتبه كلب آستانه ( عتبة ) علي ، عباس  
 وسيطر المجتهدون على الناس ، وعظم سلطانهم فأعروا ونهوا ، وأحيوا وأماتوا . روى أن حجة الإسلام محمد باقر قتل سبعين . وعُرف من بعد محمد علي — وكان معاصراً لسكريم خان زند — باسم قاتل الصوفية ( صوفي كُش ) لكثرة من قتل منهم .  
 والخلاصة أن المجتهدين بلغوا من السلطان والتمسكن في نفوس العامة والخاصة ما جعلهم ذوى الكلمة العليا في المملكة . فكان أكبر أمل الناس من طلبه العلم أن يبلغ يوماً رتبة الاجتهاد أو يقاربها . فتوجهت لهم إلى العلوم الدينية وانصرفت عن الأدب .  
 وأشبعت المملكة كلها مدرسة دينية يدبر أمرها المجتهدون .

(١) سلطان الولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه .



## الأدب في عهد الصفويين

— ١ —

اتفقت كلمة مؤرخي الآداب الفارسية على أن عصر الصفويين — على عظمة ملوكه واتساع عمرانه وازدهار صناعاته — كان عصر كساد في الأدب الإيراني .

ذلكم أن سلاطين الصفويين كانوا حماة المذهب الشيعي فصرّفوا همّهم إلى نشره وتأييده . ودعوا الأدباء إلى مدح الأئمة العلويين وورثاتهم ، والتجسّر لما أصابهم . ولم يشجعوا الشعراء على النظم في فنون الشعر المألوفة التي سار عليها شعراء إيران من قبل .

كان الصفويون ، ولا سيما طهماسب وعباس الأول ، يحرّضون الشعراء على مدح آل البيت وورثاتهم :

روى أن محتشما الكاشاني نظم قصيدة بليغة يمدح بها الشاه طهماسب وأرسلها إليه من كاشان . فقال : « لا يرضيني أن يُشغل الشعراء بمدحى . فينبغي أن يمدحوا صاحب الولاية والأئمة المعصومين . ويلتمسوا الصلة من أرواحهم المقدسة قبل أن يلمسوها منا » . فنظم محتشم موشحه المسمى هفت بند في رثاء آل البيت ونال الصلة التي كان يرجوها . وتبعه شعراء زمانه ، فنظم كثير منهم موشحا سباعياً ( هفت بند ) .

ولإعراض الصفويين عن الشعر ، كسد في إيران . فقصّد الشعراء بمدائحهم سلاطين الدولة التيمورية في الهند ( الدولة المغولية ) فلقوا من الكرامة والعطاء ما فاتهم في بلادهم . وقد عدّ البداءوني زهاء مائة وسبعين شاعرا من أصل إيراني مدحوا هؤلاء السلاطين ونالوا جوائزهم . وذكر الشيخ شبلى النعماني في كتابه « شعر العجم » واحدا وخمسين شاعرا هاجروا من إيران إلى الهند في عصر جلال الدين أكبر ( ٩٦٣ — ١٠١٤ هـ ) وحظوا ببقاء السلطان ومدحه .

وقد جمع شبلى أبياتا من الشعر الفارسي تبين عن حنين شعراء الفارسية في ذلك العصر إلى بلاد الهند ، وتمنّيتهم أن يظفروا بالسفر إليها ؛ منها قول صائب : « لا يخلو رأس من الفكر في حبك كما لا يخلو قلب من أمل السفر إلى الهند » .

ومن أعظم شعراء الفرس الذين هاجروا إلى الهند عرفى الشيرازى وصائب الأصفهاني . هاجر الأول فى صباه واتصل بجلال الدين أكبر . وتوفى فى الهند سنة ٩٩٩ فى سن السادسة والثلاثين . وسيأتى ذكر الثانى .

— ٢ —

ومع هذا فلم تخل هذه العصور من شعراء مجيدين ساروا على نهج سلفهم وحفظوا سنن الشعر الفارسى ونظموا فى القصص والتصوف كمهدنا بالعصور الماضية ، إلى موضوعات الشعر الأخرى .

فالشاعر هلالى المتوفى ٩٣٥ نظم قصة الملك والسائل ( شاه وگدا ) ومنظومة أخرى سماها صفات العاشقين ، ووحشى المتوفى سنة ٩٩١ ، وهو أحد شعراء الشاه طهماسب ، نظم منظومتين سماها الخلد الأعلى ( خلد برين ) والناظر والمنظور ، كما نظم قصة فرهاد وشيرين التى أولع شعراء الفرس بنظمها ؛ ولكنه خلف هذه القصة غير كاملة حتى انتدب لها الشاعر وصال فأتمها سنة ١٢٦٥ بعد ما يقارب قرنين من نظمها .

ومن شعراء هذا العصر شوكت البخارى المتوفى ١١٠٧ هـ . وهو ذو مكانة عالية عند الشعراء العثمانيين . ومنهم فضولى البغدادى أحد شعراء القرن العاشر الهجرى ( توفى ٩٧٠ ) وهو شاعر بالألسن الثلاثة : العربية والفارسية والتركية ؛ ولكنه غلبت شهرته بالشعر التركى . وشعره مثال بيقن لما بين الآداب الثلاثة من اتصال .

وله منظومة ليلى والمجنون باللغة التركية . وقد ترجم كتاب حسين واعظ السكاشفى المسمى « روضة الشهداء » إلى اللغة التركية « وسماء حديقة السعداء » ، وهو فى ذكر الشهداء من آل البيت النبوى .

ومن أدباء هذا العصر وعلمائه الشيخ بهاء الدين العاملى صاحب الخلاة والكشكول فى اللغة العربية ، وله منظومات فارسية مختلفة يغلب عليها التصوف ، وستأتى ترجمته . ومنهم ملا محسن فيض السكاشفى ، وهو شاعر متصوف .

ولا بد للباحث ، مهما أوجز ، من الاهتمام بموضوع حديث فى أدب هذا العصر هو : سرائى آل البيت ، وموضوع قديم هو التصوف .



## مراثى أهل البيت

لم تزد فنون الشعر الفارسي في هذا العصر ولم تخرج عن النهج الذي سلكه السلف من شعراء الفرس ، ولم يبلغ شعراء العصر شأواً من تقدمهم ، إلا نقلاً واحداً عنى به شعراء الفرس منذ ذلك العصر ، ووسّعوه وافتنّوا فيه على مر الزمان ، وفاقوا فيه من سبقهم من الشعراء . وهو رثاء آل البيت . فهو أولى فنون الشعر بالكلام في هذا العصر :

( ١ )

كانت واقعة كربلاء مثار غم وحزن في نفوس كثير من المسلمين . وتلتها وقائع زادت هذه النفوس غماً وحزناً .

وقد وجدت هذه الوقائع أول ترجمان بليغ لها في الشاعر العربي الأسدي السكيت ابن زيد .

وقفى شعراء العربية على أثره . وكان بعدهم صيغاً في هذا الأمر السيد الحميري من شعراء القرن الثاني الهجري ، ودعبل الخزاعي من شعراء القرن الثالث ، والشريف الرضي من شعراء القرن الرابع .

( ب )

وانتقل هذا الفن إلى الفارسية فنظم فيه الشعراء بين مقلّ ومكثر ، حتى كان هذا العصر الذي نؤرخه — عصر الصفويين — فوجّه السلاطين الشعراء إلى رثاء آل البيت وحرّضهم عليه . فأكثروا فيه وتغنّوا ، وعالجوه بما عرف في الشعر الفارسي من الإطناب والغلو . وكان من السابقين إليه المبرزين فيه محمّش الكاشاني . ومن شعره السائر في المراثى موشحه المعروف « هفت بند » .

وفيه ستة وتسعون بيتاً مقسمة على اثني عشر قصفاً ، في كل قسم سبعة أبيات على روى واحد والثامن مطلق . وبهذه السبعات المتفقة في الروى سمى هذا الموشح هفت بند . وقد ترجمت منه الفاتحة والخاتمة وأربعة أقسام أخرى . وحاولت أن أجعل النثر في الترجمة مسابراً للشعر في الأعمال على قدر الإمكان . فحافظت على الرديف وهو الكلمة المكررة في أواخر الأبيات . وجعلت كل بيت في سطر .

— ١ —

ماذا الهياج في العالم ، وماذا الفواح والبكاء والمأتم ؟  
ما هذه القيامة الهائلة تصعد إلى العرش من الأرض ، ولم ينفخ في الصور ليوم العرض ؟  
من أين تنفس هذا الصبح المظلم ، فاج به الناس والعالم في غم ؟  
أترى الشمس قد طلعت من المغرب ، فذرات العوالم كلها تهيج وتضطرب ؟  
إنها قيامة الدنيا لا جرم ، هذه القارعة المسماة بالمحرّم .  
إن ملايكوت القدس وليس مكان جزع ، سمدت فيه الملائكة من الهلع ؟  
والملك والجن في نواح دائم ، يشاركون في مأتم أشرف بنى آدم  
شمس السماء والأرض نور المشرقين  
ربيب صدر رسول الله الحسين  
إلى أن يقول :

— ٢ —

ليت سرادق السماء خوى ، وليت هذا السقف الرفيع هوى  
ليت سيلا أسود عمّ الأفطار ، وطلا وجه الأرض بالقار  
ليت شعلة من آهات أهل البيت المحرقة ، رمت هذه السماء بصاعقه  
ليتته ، وقد تحرك الفلك بهذا المصاب ، ظل وجه الأرض كالزئبق في اضطراب .  
ليتته حينما دخل جسمه في الرغام ، خرجت أرواح الخلائق من الأجسام .  
ليتته حين فُلك أهل البيت انحطم ، غرق العالم في بحر من الدم  
إن لم يقع هذا الانتقام بالدهر ، فكيف تكون مؤاخذه الدهر يوم الحشر  
إن بيت النبي حين يرفع أيديه يتظلم  
يزلزل أركان العرش الأعظم  
ثم يقول بعد أربعة أقسام :

— ٣ —

ولما بلغت هذه القافلة الميدان ، ثارت ضوضاء الحشر في السكون والمساكن



ودوت بالنواح ست الجهات ، وعمّ البكاء ملائك سبع السموات .  
 لم يبق في البادية غزال إلا شلت رجله ، ولا طائر إلا هوى من عشه .  
 وكانت قيامة تُنسى القيامة الأخرى ، حين وقعت عيون آل البيت على القتلى .  
 فما تقلبت العين من أجسام الشهداء ، إلا على ضربة أو طعنة نكراء  
 ووقعت بغتة عين بنت الزهراء ، على جسد إمام الزمان في العراء  
 فصاحت : « هذا الحسين » ، بغير اختيار ، فاشتعلت في العالم كله النار  
 ثم رجعت شاكية بضعةُ البقول  
 إلى المدينة تقول يأيها الرسول :

— ٤ —

هذا القتل الملقى في البيدا ، حُسَيْنك ، هذا الصيد المخرج بالدماء حسينك  
 هذه الشجرة الناضرة التي بنار العطش ، صعدت الدخان من الأرض إلى العرش ، حسينك  
 هذا القمر الساقط في بحر من الدم ، وجروحه تُربى على عدد الأنجم ، حسينك  
 هذا الغريق في محيط الشهادة ، وقد تورد من موج دمائه وجه البادية ، حسينك  
 هذا الظمآن المحروم من الفرات الميمون ، وقد صارت الأرض من دمه جيحون ، حسينك  
 هذا الملك القليل الجند الذي خرج من الدنيا الخدوع ، بجيش الآهات والدموع ، حسينك  
 هذا القالب الملقى بغير كفن ، الملك الشهيد الذي لم يدفن ، حسينك  
 ثم توجهت شطر البقيع تخاطب الزهراء  
 فأحرقت سمك البحر وطير الهواء :

— ٥ —

يا أنس القلوب الكسيرة إلينا انظري ، غرباء بغير صديق ولا عشيرة ، إلينا انظري  
 انظري أولادك شفعاء المحشر ، في صولة قلوب قاسية كالخجر ، انظري  
 لا لا ! تعالى كالسحاب الراعد إلى كر بلاء ، وإلى طغيان سيل الفتنة وموج البلاء ، انظري  
 انظري أجساد القتلى في الدم والتراب ، ورءوس الرؤساء على الحراب ، انظري  
 ذلك الرأس الذي كان مكانه كتف المصطفى ، فصلته من كتفه طعنات العدى ، فانظري

وذلك الجسد الذى كان صدرك مرهبا ، يتدحرج فى تراب كربلاء ، ويلاه ، فانظري  
ويختتم التركيب بهذا القسم :

— ٦ —

صمتا محتشم ! فقد ذاب قلب الحجر ، وزلزل العزاء وعيل المصطبر  
صمتا محتشم ! فمن هذا الكلام الذى يقطر الدماء ، احترق طائر الهواء وحوت الدماء  
صمتا محتشم ! فمن هذا الكلام ذى الشرر ، فاضت عيون السامعين بصافى الدرر .  
صمتا محتشم ! فمن هذا الشعر المثير البكاء ، تخضب وجه الأرض بدموع مازجتها من  
القلوب دماء .

صمتا محتشم ! فمن هياجك صار نور الشمس ، كاسفا كالقمرءاء فى الحفدس .  
صمتا محتشم ! فقد بكى الفلك بالدم ، حتى جاش البحر بحباب كالعندم  
صمتا محتشم ! فمن غبار غم الحسين القتيل ، احتجب من وجه الرسول جبريل  
لم يقترب الفلك الغادر كهذا الاثم منذ كان  
ولم يقس هذه القسوة على مر الزمان

عنى محتشم بهذه المراثى المبكية المفظمة التى يملؤها النواح والبكاء ، والدموع والدماء ،  
ويسيطر فيها الغلو والإغراق . وسار شعراء على هذا النهج وافتنوا فى الرثاء ، وعنوا بالحوار  
فى المراثى ويسروها للتمثيل . فنشأت قصص منظومة تمثيلية كمل تطورها فى العصر الذى  
يلى هذا العصر الذى نؤرخه . وهو عصر القاجار بين . وكان لها على العامة تأثير بالغ يبيكون  
لسماعها وينوحون ، ويلطمون الحدود ويلتدمون ، ويبلغ بهم الهياج أحيانا حد الجنون .



## التصوف

لم يخل الشعر الفارسي في هذا العصر من شعر صوفي صريح ، واستمرت النزعة الصوفية واضحة في الشعر الفارسي كله ؛ ولكن للمؤرخ لا يظفر في هذا العصر بشاعر صوفي يلحق كبار الشعراء الذين نشأتهم العصور الماضية مثل سنائي والطار والرومي والجامي . وكان من أسباب هذا بغض الصفويين للصوفية ، وقسوتهم عليهم ، والعداء بين شيعة ذلك العهد عامة وبين الصوفية .

وحسبنا أن نفعل هنا كلام المجلسي أحد أكبر مجتهدى الشيعة في العصر الصفوي . فقد قال وهو يدفع عن أبيه تهمة التصوف : « لا يسمي أحد الظن بأبي فيقوم أنه كان من الصوفية . كلا ، ما كان منهم ؛ فقد عرفت أحوال أبي سرّاً وعلانية ، وأخطت بعقائده . كان أبي سيّ الظن بهم ، ولكنّه في أول أمره حينما كان الصوفية في عنفوان قوتهم ، انتظم في صفوفهم ليستطيع أن يمحو ويستأصل جذور هذه الشجرة الخبيثة الزقومية . فلما أخذ نار عارهم صرّح بما يكنّ في نفسه » .

وقد كتب كثير من علماء الشيعة في الطعن على الصوفية والتشنيع عليهم ، وأثاروا عليهم العامة فقتل كثير منهم .

فقد نال الصوفية من الاضطهاد ، وأصاب شعراءهم من السكساد في دولة الصفويين ما نال كثيراً من فروع الفكر والأدب الأخرى .

وفي التصوف تجلّى نبوغ شعراء الفرس ، والشعر الصوفي أجمل أشعارهم وأعلاها ، وأرقها وأعماها . فكان من العدوان على الصوفية أن نال الشعر الصوفي خاصة والشعر الفارسي عامة ما ناله من فتور وخمود .

ولكن الصفويين -- وإن بطشوا بالصوفية -- لم يمحوا من الأدب الفارسي هذه النزعة الروحية التي شاعت فيه ، ولم يطمسوا هذه الصور الجميلة التي أبدعها فيه شعراء التصوف العظام . فما خلا الشعر الفارسي في جملته من نفحات التصوف حتى عصرنا هذا . وما خلا أدباء الفرس من متصوفين في العصور كلها .

وحسبى هنا مثلاً من الشعر الصوفي في العصر الصفوي وماتلاه ، موشح هاتف الأصفهاني المسمى « ترجيع بند » والترجيع اصطلاح في الأدب الفارسي لموشح يكرر فيه بيت بعينه بعد كل قسم من أقسامه .

هاتف عاش أكثر عمره بعد زوال دولة الصفويين ، ولكنه عاش في آثار هذه الدولة ، وفي الأحوال الأدبية التي سيطرت في عهدها .

السيد أحمد هاتف الأصفهاني من أسرة آذرية الأصل ؛ ولكنه ولد في أصفهان وعاش بها أكثر عمره ، وأمضى سنين في قم وكاشان .

وطلب العلم في صباه وبرع في اللغة العربية ، ويروى أن له فيها شعرا . وكان له منزلة في الأدب بين معاصريه .

وتوفي في مدينة قم سنة ١١٨٩ هـ .

وله ديوان فيه قصائد وغزليات ورباعيات . وهو في الغزل يسير على آثار سعدى وحافظ . وله سرث بليغة يرثي بها أصدقاءه وكبراء عصره .

وصيت هاتف في الأدب يرجع معظمه إلى ترجيعه الصوفي . فهو من الشعراء الذين أذاعت بصيتهم منظومة واحدة . وهم في تاريخ الأدب كثير .

ولعل هذا الفصل الذي أكتبه عن الأدب الفارسي في كتاب قصة الأدب ، لا يتسع لترجيح طويل كهذا ؛ ولكن لابد منه للتمثيل ، ولا يحسن الاكتفاء بجزء منه ؛ فقد ترجم إلى العربية لأول مرة أثناء كتابة هذا الفصل ، فينبغي أن يقدم تحفة لقراء الكتاب على طوله . وليس هاتف مبتكراً في ترجيعه . فقد سبقه شعراء التصوف فلم يدعوا لقائل بعدهم مقالا . وفي ترجيعه هذا معان وألفاظ من شعر العطار وجلال الدين الرومي وأوحدى المراغي وغيرهم من أئمة الشعر الصوفي ؛ ولكن حسب هاتف أنه ارتفع إلى هذه الطبقة فأحسن محاكاتها ، وعارض أشعارها معارضة شاعر مطبوع ، لا ناظم مقلد .

موشح هاتف



مالك القلب ! فى فداؤك قلبى      مالك الروح ! مهجتي قربان  
 تخلص القلب من يدك عسير      ويسير للروح فيك امتهان  
 مل طرقتى إلى وصالك هول      داء عشقى يعيا به الحُسمان  
 أعبدُ، روحنا فذاك ورهنُ الـ      أمر منك العيون والآذان  
 ذا فؤادى إن شئت صلحاً، وروحي      إن تر الحرب . كلنا إذعان  
 طاف بي الشوق والصبابةُ وهنا      هائم القلب ، والهوى حيران  
 وانتهى بي هوى الحبيب لدير      فيه جمع الجوس والرهبان  
 خلوة جئت — لارأت عين سوء —      عندها الحق ضاء لا النيران  
 ورأيت النار التى راء موسى      ليلة الطور والدُجى فُحيان  
 يوقد النار بالتبطل شيخ      حوله من مجوسه ولدان  
 كل فضى العذار والحدّ ورد      مبسم ضيق ، وحلو لسان  
 ورباب والنأى والعود والشمع      مع ونقل والراح والريحان  
 وبدير الكثوس كالبدر ساقٍ      فيكه مطرب له ألحان  
 وشيوخ الجوس والولد والمو      بذ كل أمامه غلمان  
 ومن الدين قد عراني حياء      فتمنحيت أن يرانى العيان  
 سأل الشيخ من ترون ؟ فقالوا :      عاشق عيل صبره ولهان  
 قال : كأساً من الرحيق وإن لم      يدع فى الشرب ذلك الندمان  
 صب ناراً فى الكأس نارى كف<sup>(١)</sup>      عابد النار كأسه ملآن  
 ضل حين احتسيت عقلى وحسنى      أحرقت الكفر فى الإيمان  
 سقط السكر بى ، وفى ذلك السكر      بلفظ يعيا به التبيان  
 قال هذا الكلام لى كل عضو      فى حتى الوريد والشریان :

واحده ليس فى الوجود سواء

واحده لا إله إلا هو

(١) نارى كف : ترجمة آتش دست . وهى بالفارسية كناية عن السرعة والمهارة .

لستُ يا خَلَّ صارما منك حيلي      لا وإن فيك قُطعت أوصالى  
فمئات الأرواح منّا تُغدّي      بسمّة حلوة بفيك الحالى  
يا أبا في الغرام يكثر نصيحى      لن ترى الابن أهل هذا المقال  
ينصح الناس بالسُّلوّ فهلاً      نصحونى بعشقك القَتال  
أنا نحو النجاة أعرف نهجى      ما احتيالى ؟ علقت بالأحبال  
راعنى فى السكّينس ظي النصارى      قلت : يا أسر القلوب الخالى  
فى خيوط الزُّنار قد شدّ شعرى      شعرة شـ ————— مرة بهذا الجمال  
عن طريق التوحيد حتام تجفّو ؟      وإلام التثليث يا ذا المحال ؟  
كيف يُسمى الحق الوحيد بروح      وأب وابنه لدى الضلال  
ففتح الثغر ساحراً بكلام      فى ابتسام ينسبك عذب الزلال :  
لو بسرّ التوحيد كنت خبيراً      تهمة الكفر لم تُدر بالبال  
فى ثلاث من المرایا شعاع      من نُحْيَا الجميل فى الآزال  
أنت تدعو الحرير خزا وديما      جا وإبريسما على أقوال  
بينما نحن فى الحديث إذ الفا      قوس دوّى لنا بلحن عال :

واحد ليس فى الوجود سواه

وحده لا إله إلا هو

جئت بالأمس حانة العدم      وبقلبي للعشق وقدّ الضرام  
مجلساً جئت ذا بهاء ونور      بائع الخمر رأس هذا النظام  
وقف الخادمون صفّاً فصفاً      ومن الشرب حلقة فى انتظام  
جلس الشرب حول شينخ مهيب      بين سكر ودهشة الأحلام  
طاهرو القلب ، والسريرة ودّ      صمتوا والقلوب فيض كلام  
كل عين ، من العناية ، للحق      وأذن للسرّ والإلهام



قول هذا لذلك : اشرب هنيئاً  
أذن للرباب ، والعين للسكا  
فتقدمت قائلاً في خشوع  
عاشق مومج يريد معيناً  
ضحك الشيخ قائلاً : إيه يا من  
أين منا أنت الذي من حياء  
قلت : في الروح شعله هات ماء  
هذه النار أحرقتني أمس  
ضاحكاً قال : هاك كأساً فلما  
فتجرعت جرعة خلصتني  
ثم أبصرت واحداً ما سواه  
بغثة من صوامع السكون أنعمت حديث المقرئين الكرام :

واحد ليس في الوجود سواه  
وحده لا إله إلا هو

افتتح القلب تبصر الروح جهرا  
إن توجه لساحة العشق وجهاً  
وتر الأنجم العلى دوائر  
والذى يبتغى الفؤاد تراه  
وترى السائل الذى لا تبالى  
وترى لاهضة أقدام صدق  
وترى حاسرى الرؤوس وظل العرش فوق الرؤوس يبسط سقرا  
وترى كل واحد في سماع  
وترى الشمس حين يسفر عنها  
وترى العشق كيمياء لروح

والذى لا يرى تراه مُقَرَّراً  
تر كل الآفاق ورداً وعطرا  
يمنى أهل هذه الأرض طراً  
وكذا كل ما ترى العين سراً  
يزدرى ملك ذلك السكون كبرا  
في ذرى الفرقدين تحيط خطرا  
نفضت كفه العوالم خُراً  
كل قلب لذرة حين تُغرى  
إن تُذهبا في وقدة العشق حَرَى

وترى مُلك « لا مكان » فسيحاً      إن تجد من ضيق الجهات مَقَرّاً  
والذى لا ترى العيون تراه      سامعاً ما اختفى عن الأذن سِرّاً  
وإلى أن ترى من الخلق والعا      لم فرداً له الفؤاد أقراً  
أخلص الروح والفؤاد لفرد      تر عين اليقين سرا وجهراً :

واحد ليس في الوجود سواء

وحده لا إله إلا هو

— ٥ —

وجهه من مشارق الأنوار      في تجليه يا أولى الأبصار  
في متوع الهار تطلب شمساً ؟      أنت في الليل من ضياء النهار  
خلص النفس من ظلامك تبصر      كل شيء يفيض بالأنوار  
قائداً تبغى والعصا كالاعشى      في طريق أضاء للتسيار  
ألف لون ، والماء في غير لون ،      لك تبدو في الورد والأزهار  
في طريق الطلاب أقدم جريئاً      وتزود بالعشق للأسفار  
رُبْ أمر في العشق يبدو يسيراً      وهو في العقل عُقدة النظار  
قل « حبيبي » بغدوة وأصيل      واطلب بن بالعشي والإبكار  
إن يقل ألف مرة : لن تراني      فاجعل الوجه قبلة الأنظار  
لتنال المكان تعجز عنه      قدم الوهم أو رؤى الأفكار  
وترى في حضرة ليس فيها      جبرئيل الأمين في الحُضَار

ذلك الزاد والطريق وذا المنـ      زل أقدم إن كنت أهل خطر  
وإذا للطريق لم تك أهلاً      قل حبيبي ، ونم إلى الأعذار  
هاتف ! العارفون حين دعوم      أهل صحو حيناً وصرعى عفار  
من مُدام ومطرب وسقاة      ومجوس والدير والزناز  
قصودوا رامزين أسرار غيب      هي بين الإيماء والإظهار  
إن يلح سرهم لقلبك تعلم      إن هذا لسر ذى الأسرار :

واحد ليس في الوجود سواء

وحده لا إله إلا هو



وأختم هذا الفصل بالكلام عن شاعر من أكبر شعراء الفرس في العصر الصفوي ،  
وعالم أديب من أكبر علمائهم وأدبائهم :

### صائب الأصفهاني

ولد في قرية عباس آباد على مقربة من أصفهان وحصل العلم في هذه المدينة . وسافر  
في شبابه إلى الهند ، وكانت مطمح أدباء الفرس وشعرائهم . ولحق به أبوه فردّه إلى أصفهان .  
ونبه شأنه هناك واتصل بالشاه عباس الثاني الصفوي ( ١٥٥٢ — ١٥٧٧ ) وتوفي بأصفهان  
وله مختارات من الشعر الفارسي دلت على سعة اطلاعه وحسن ذوقه . ويشبهه الشيخ  
شبلي النعماني بأبي تمام في هذا الاختيار .

وكان صائب معجباً بحافظ يتخذة إماماً . فظهرت في شعره مشابهة من شعر حافظ ،  
من بُعد الغور ودقة التصوير وجمال التعبير .

وله ديوان كبير متداول مخطوط ومطبوع .

وفي شعر صائب تتجلى القوة الروحية ، والعظمة النفسية ، التي تهبّ بما تلقى من محن  
وشدائد ، وتعلو على كل رغبة ورهبة في هذه الدنيا . وهو في هذا يشبه جلال الدين الرومي ،  
ومحمد إقبال شاعر الهند في العصر الحاضر . وإقبال يكرّر القول أنه من نفحات جلال  
الدين . وصائب يذكر في مواضع من كتبه « مرشد الروم » يعني جلال الدين ، معظماً  
له معجباً به .

وهذه أمثلة قليلة من شعر صائب ذهبت الترجمة المفتورة بكثير من جمالها وروعها :

— ١ —

تُلَوِّنَ براعمَ القلوب أنفاسُنَا ، وتَأبِي عَارَ الرنينِ أجراسُنَا<sup>(١)</sup>  
إِنْ هِيجَانَ الربيعِ كَأَمِنْ فِي عَالَمِنَا الحائرِ . وَإِنْ بَدَأَ يَابِسًا قَفَصُنَا<sup>(٢)</sup> الظاهر  
عَطَلْنَا زينةَ المرجِ الناضرِ ، وشوكُنَا نظامَ الروضِ العاطرِ

(١) يشبه القلب بالبرعم وهو الزهرة لم تفتح ، ويقول إن نفسنا ينضج هذا البرعم وأجراسنا  
تؤثر بغير صوت . ومعنى البيت الثاني والثالث أن ظاهراً هؤلاء الناس فيه فقر وضعف ولكن في قلوبهم  
الجمال والجلال والقوة . (٢) القفص : محبس الطير المعروف .

نُصْقِد كَصَدْرِ الشَّمْسِ أَنْفَاسَنَا نَاجِحَةً ، لَا كَأَنْفَاسِ الصَّبَاحِ الْبَارِدَةِ  
اسْتَيْقِظ الْوَرْدَ الْمَصُورَ مِنْ نَوْحِ الْبَلَابِلِ ، وَكَذَلِكَ إِمْدَادُنَا لِلرَّبِيعِ النَّامِ  
أَشْفَقَ قَلْبَ الْعَشْقِ مِنْ خَاجَتِنَا ، وَدَمَى قَلْبَ الْبِسْتَانِ مِنْ غَضٍّ ثَمَارَنَا<sup>(١)</sup>  
كُلَّ رَعُومِ ضَحْكَ بِنَفْسِنَا الْلطِيفِ ، لَا يَبْرِدُ قَلْبُهُ الْحَارَّ بِرِيَّاحِ الْخَرِيفِ

— ٢ —

لَسْتُ مِمَّنْ يَحْفَلُونَ بِالذَّهَبِ وَالنِّثَارِ ، إِنَّمَا تَحْفَافُ الْحُتْرَيْنِ قَبْضَةٌ مِنْ شَرَارِ  
لَا اتَّخِذِ الْبَسَاتِينَ وَالْحَصُونِ فِي الْبِلَادِ ، إِنَّمَا بَسْتَانِي الْبِيدَاءُ وَحَصُونِي الْأَطْوَادُ  
تَدَارِكُ مِنْ أَظْلَمَتِ أَيَّامِهِمْ بِسَرَّاجِ يَبْعَثُ النُّورَ ، لِيَكُونَ شَمْعاً عَلَى قَبْرِكَ الْمُهْجُورِ  
إِنْ شَوْكَأَ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ تَرْفَعُهُ ، يَنْقَلِبُ رَبِيعاً فِي تَرَابِكَ مِنْبَعُهُ  
إِنْ تُصِيبَ قَلْبَ نَمْلَةٍ بِغَمٍّ يَسِيرُ ، أَوْ قَطِطَتْ فِي قَبْرِكَ لِلْحِسَابِ الْعَسِيرِ

— ٣ —

جُرْحُنَا يَتَحَدَّى الْخِنْجَرَ ، وَزَجَاجِنَا يَصَادِمُ الْحَجَرَ  
إِنْ شَوْقُ السَّاقِطِينَ فِي طَرِيقِ الْعَشْقِ ، يَأْخُذُ الْقَدَمَ وَيَمْنَحُ الْجَنَاحَ بِرَفَقِ  
الْيَأْسِ أَوَّلَ أَمَلِنَا ، وَإِنَّمَا يُثْمَرُ حِينَ يَذْبُلُ ، نَخْلُنَا  
لَا يُحَرِّمُ الْعَنَكَبُوتَ صَيْدَ الذُّبَابِ ، يَعْطِي الرِّزْقَ جَنَاحًا ذَلِكَ الرَّازِقُ الْوَهَّابُ الْخ

— ٤ —

الْفَلَكَاتِ مِنْ تَجَمُّلِنَا بِغَيْرِ قَرَارِ ، وَالسَّيْفِ مِنْ تَحْمِلِنَا فِي نَارِ  
بَلَّغْتَ أَوْجَ الشَّمْسِ قَطْرَةَ الْغَدَى ، كَذَلِكَ تَنْزَلُنَا فِي رَفَقِ عَلَى الْمَدَى  
نَبْلُغُ الْمَطَالِبَ بِالْإِنْكَسَارِ ، وَلَنَا مِنَ الْإِنْكَسَارِ سَلَمٌ كَوَجِّ الْبَحَارِ  
حَتَّمَا الشَّكْوَى مِنْ عَفَاءِ الشَّبَاكِ ، إِنْ فِي هَذَا الْعَفَاءِ رَوْحُ الْإِدْرَاكِ  
يَا صَائِبُ ! مِنَ الْإِنْكَارِ شَعْرُ ذُو الْوَانِ ، وَمَنْ تَغْرِيدُ بَلْبَلُنَا هَذَا الرُّوحُ ذُو الْفَنَانِ

\*\*\*

وَمِنْ عُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ وَأَدْبَائِهِ الَّذِينَ تَتِمُّثَلُ فِيهِمُ الثَّقَافَةُ فِي نَوَاحِيهَا الْمُتَعَدِّدَةِ :

(١) يعنى أن حالتهم الدنيا لها أثر عظيم فكيف بأحوالهم العليا .



## بهاء الدين العاملي

بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الخارثي العاملي الهمداني ، ولد في بعلبك  
سنة ٩٥٣ هـ .

كان أبوه حسين من علماء الشيعة في جبل عامل . وكان من تلاميذ الشيخ زين الدين  
الملقب بالشهيد الثاني . فلما قتل الترك زين الدين لتشيعه ، هاجر الشيخ حسين إلى  
إيران . وكانت إذ ذاك موطناً لدعوة الشيعة ، وملجأ لعلمائهم ، في سلطان الدولة  
الصفوية . وسافر معه ابنه بهاء الدين صبياً .

وفي إيران جدّ بهاء الدين في تحصيل العلوم ولاسيما العلوم الدينية والرياضة والطب ،  
وأخذ عن والده وعلماء آخرين منهم ملاّ عبد الله اليزدي تلميذ جلال الدين الدواني تلميذ  
السيد الشريف الجرجاني .

وذاع صيت بهاء الدين وعلت مكانته حتى تولى مشيخة الإسلام في إصفهان دار الملك .  
ثم سافر للحج وطوّف في الحجاز ومصر والشام والعراق في زى الدراويش سنين  
كثيرة ؛ يقال إنه ساح ثلاثين سنة .

وفي مصر جمع كتاب الكشكول . قال المنيني <sup>(١)</sup> : « وكان يجتمع مدة إقامته بمصر  
بالأستاذ محمد بن أبي الحسن البكري . وكان الأستاذ يباليغ في تعظيمه ؛ فقال له مرة :  
يا مولانا أنا درويش فقير فكيف تعظمي هذا التعظيم ؟ . قال شممت منك رائحة الفضل .  
وامتدح الأستاذ بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

يا مصر سقيا لك من جنّة قطوفها يانعة دانية »

والظاهر أنه كان يكتم أمره في سياحته ولا يرغب في التعريف بنفسه . وقد لقي كثيراً  
من العلماء والصوفية ثم رجع إلى أصفهان . وبلغ عند السلاطين الصفوية أرفع المنازل  
قال المنيني :

« ثم عاد وقطن بأرض العجم . وهناك همى غيث فضله وانسجم . ألف وصنّف ، وقرط  
المسامع وشتّف . وقصدته علماء تلك الأمصار ، وانفتحت على فضله أسماعهم والأبصار . وغالت

(١) انظر كلام المنيني في آخر كتاب الكشكول ط القاهرة .

تلك الدولة في قيمته ، واستمطرت غيث الفضل من ديمته . فوضعت على مفرقها تاجا ، وأطلعت في مشرقها سراجا وهاجا . وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس ، واستنارت بشمس رأيه عند اعتكار حنادس الباس . فكان لا يفارقه سفرا ولا حصرا ، ولا يعدل به سماعا ونظرا .. وكانت له دار مشيدة البناء ، رحبة الفناء ، يلجأ إليها الأيتام والأرامل ، ويغدو عليها الراجي والآمل . فكم مهد بها وضع ، وكم طفل بها رضع . وهو يقوم بتفقيهم بكرة وعشيا ، ويوسعهم من جاهه جنابا مغشيا » .

وكانت وفاته سنة ١٠٣١ هـ ، بأصفهان ونقل منها إلى طوس فدفن بداره على مقربة من مسجد علي الرضا . وقد زرت قبره حينما ذهبت إلى مشهد طوس عام ١٣٥٢ هـ .

وكان الشيخ العاملي من كبار علماء الشيعة ودولة الصفويين في أوجها ، أيام شاه عباس الكبير . وقد ألف في فقه الشيعة وأصول الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والهيئة والفلك والحساب والهندسة .

وله كتابا الكشكول والخلاصة في مسائل شتى غير مرتبة ، يغلب عليها الأدب والتصوف والفلسفة والرياضة . وقد كتب في كل موضوع عرف في عصره حتى الجفر والرمل والطالسم . وله في هذه الفنون خمسة وتسعون كتابا ورسالة<sup>(١)</sup> .

والشيخ بهاء الدين من سعة العلم ، وتعدد الفنون ، وجودة التأليف والتلخيص ، وصحة التعبير ، ومن البراعة في النظم والنثر ما لم يتفق إلا لقليل من العلماء .

وكانت عيشته واسعة مختلفة الجوانب كسعة علمه وتعدد فنونه . كان شيخ الإسلام في دولة الصفويين ، وكان ذا منزلة عالية عند سلاطينهم ، وكان يخالط أصناف الناس كلها : يخالط العلماء والصوفية ، ويشهد حلقات الحوَّاثين والمشعوذين ، ويُرعى حيناً مع شاه عباس الكبير ، وحيناً في بيت عجوز فقيرة .

وقد طالت سياحته ، وامتدت إلى أقاليم مختلفة فزادته معرفة بالناس ، وتجربة بالجماعات والأفراد .

وكان مرجع العلماء والأدباء في حياته . وما تزال كتبه مرجعاً لهم بعد مماته ، ولا سيما كتاب الجامع العباسي في الفقه ، وزبدة الأصول في أصول الفقه ، والحبل المتين في الحديث

(١) انظر كتاب الشيخ البهائي أسعد نفيسي .



والفقه ، ومفتاح الفلاح في الأوراد والأذكار ، إلى شعره العربي والفارسي الذي يتمثل به الناس في أحوال مختلفة ، وموضوعات شتى .

وكان الشيخ ، على مشاركته في كل فن ومخالطته لكل صنف ، نقي السيرة ، مبرأ من المطاعن ، تقياً زاهداً . لم تشغله مشيخة الإسلام ، وممارسة الفنون الكثيرة عن رياضة نفسه وتصفيتها ، وسلوك طريق الصوفية ؛ بل رأى هذه الرياضة أعلى وأجدى من علوم الظاهر ، ونعى على الواقفين عند حدود العلوم ، الغافلين عما وراء هذه الرسوم :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| أيهما القوم الذي في المدرسه | كل ما حصلتوه وسوسه           |
| ذكركم إن كان في غير الحبيب  | ما لكم في النساء الأخرى نصيب |
| علم رسمي سر بسر قيلت وقال   | نه أزو كيفيتي حاصل نه حال    |
| علم نبود غـير علم عاشق      | ما بقي تلبس إبليس الشقي      |

أدبه :

كان العامل من أدباء اللغتين العربية والفارسية وله شعر عربي جيد منه قصيدة في مدح الإمام المهدي صاحب الزمان أولها :

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| سرى البرق من نجد فجدد تذكاري | عهوداً بحزوي والغديب وذى قار   |
| وهيج من أشواقنا كل كامن      | وأجيج في أحشائنا لاعج الفار    |
| ألا يالأياميات الغـوير وحاجر | سقيمت بهام من بنى المزن مدرار  |
| وياجيرة بالمأزمين خيامهم     | عليكم سلام الله من نازح الدار  |
| خليلى مالى والزمان كأنما     | يطالبني فى كل وقت بأوتار       |
| فأبعد أحبابي وأخلى مرابعي    | وأبدلني من كل صفو بأكدار       |
| وعادل بي من كان أقصى مرامه   | من المجد أن يسمو إلى عشر معشار |

وللشيخ تمسك في الأدب الفارسي له فيه مؤلفات منشورة ومنظومة ؛ منها قصة القط والفار ، وهي قصة صوفية منشورة ، وكتاب اللبن والسكر ، وكتاب الخبز والحلوى . وهما منظومتان صوفيتان كذلك .

وفي خلال شعره الفارسي كثير من الأبيات العربية تصلح أن تكون مثالا من شعره ، وتغنى عن ترجمة بعض أبياته الفارسية .

في فاتحة منظومة الخبز والحلوى :

أيها اللاهي عن العهد القديم      أيها الساهي عن النهج القويم  
استمع ماذا يقول العذليب      فهو يروي من أحاديث الحبيب  
يا برید الحی أخبرنی بما      قاله في حقنا أهل الحمى  
هل رضوا عنا ومالوا للوفا      أم على الهجر أقاموا والجفا

وفي السكتاب فصل عنوانه : « في التأسف والندامة على صرف العمر فيما لا ينفع  
يوم القيامة » وأوله :

قد صرفت العمر في قيل وقال      يا بدعي قم فقد ضاق المجال  
واسقني تلك المدام الساسيل      إنها تهدي إلى خير السبيل  
هاتها صهباء من خمر الجنان      دع كئوساً واسقنيها بالدنان  
ضاق وقت العمر عن آلاتها      هاتها من غير عصر هاتها  
قم أزل عني بها رسم الهموم      إن عمرى ضاع في علم الرسوم

وأول فصل آخر عنوانه « في تأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم حب الوطن  
من الإيمان » .

أيها المأسور في قيد الذنوب      أيها المحروم من سر الغيوب  
لا تقم في إثر لذات الجسد      إنها في الجيد حبل من مسد  
قم توجه شطر إقليم النعيم      واذكر الأوطان والعهد القديم

وفي المنظومة فصل عنوانه : « في نغيات الجنان من جذبات الرحمة » منه :

اشف قلبي أيها الساقى الرحيم      بالتي يحيا بها العظم الرميم  
خمرة من نار موسى نورها      دنها قلبي ، وصدرى طورها  
دأبها ارجاع أيام الشباب      من يذق منها عن السكونين غاب  
قم ولا تمهل فإن الصبح لاح      والثريا غربت والديك صاح  
يامغنى قم فإب العمر ضاع      لا يطيب العيش إلا بالسماع  
وارو عندي من أحاديث الحبيب      إن وقى في سواها لا يطيب



واطلو عني ذكر أيام الفراق      إن ذكر العهد مما لا يطاق  
قم وزمزم لي بأشعار العرب      كي يتم الحظ فينا والطرب  
وافتح منها بنظم مستطاب      قلته في بعض أيام الشباب  
قد صرفت العمر في قيل وقال      يانديمي قم فقد ضاق المجال  
ثم زمزم لي بأشعار العجم      كي تريح الروح من هم وغم  
وابتدئ منها بيت المثنوى      للحكيم المولوي المعنوي  
بشنو آرنی چون حکایت میکند      از جدائیا شکایت میکند<sup>(١)</sup>

(وينقل هنا مقدمة المثنوى كلها ؛ ثم يعود إلى النظم العربي فيختم به المنظومة) :

قم وخاطبني بكل الأسنة      علّ قلبي ينقبه من ذى السنه  
إنه في غفلة عن حاله      خابط في قيله مع قاله  
كلّ أن زاده قيد جديد      قائلًا من جهله : هل من مزيد  
نأثم في الغي قد ضلّ الطريق      هائم من سكره لا يستفيق  
عاكف دهرًا على أصنامه      يهزأ الكفار من إسلامه  
كم أنادى وهو لا يصغي التناد      وافؤادى وافؤادى وافؤاد  
يا بهائيّ اتخذ قلبًا سواه      فهو ما معبوده إلا هـواه

تم القسم الثاني من الجزء الثاني  
ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

(١) ترجمة هذا البيت :

استمع للنأي غني وحكي      شفّه البين طويلا فشكا

مكتبة العرب  
مؤلفها: صلاح الدين البستاني  
٢٠١ ش. كامل صليبي (الطبعة) القاهرة











DATE DUE





809:A51kA:v.2:pt.2:c.1

محمود، زكي نجيب

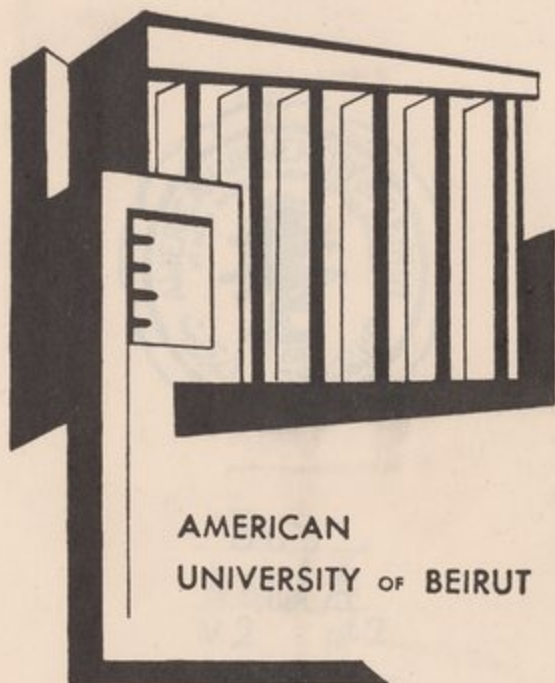
قصة الأدب في العالم...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030936

American University of Beirut



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT

